سلسلة ندوات ١

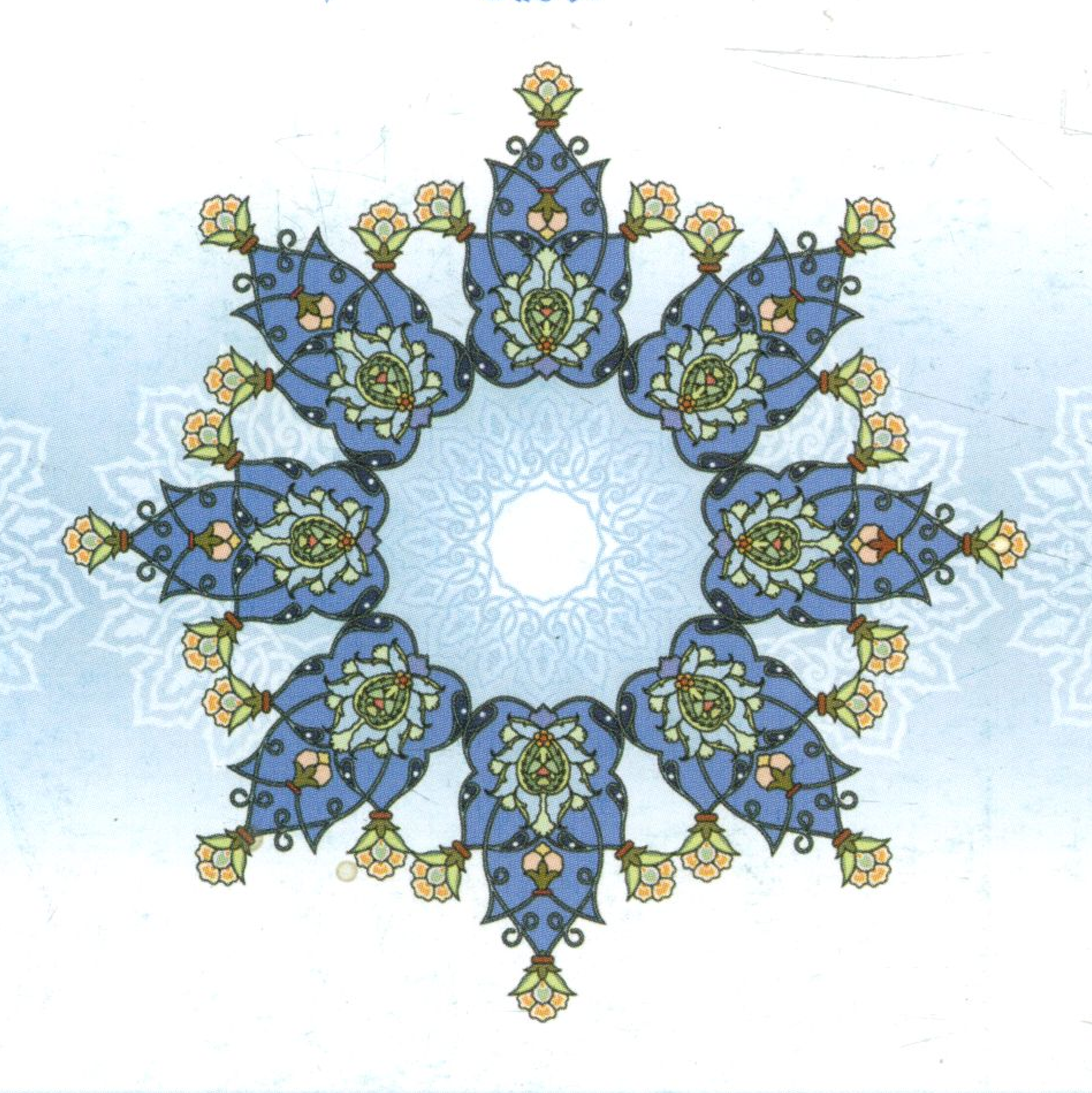
مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية

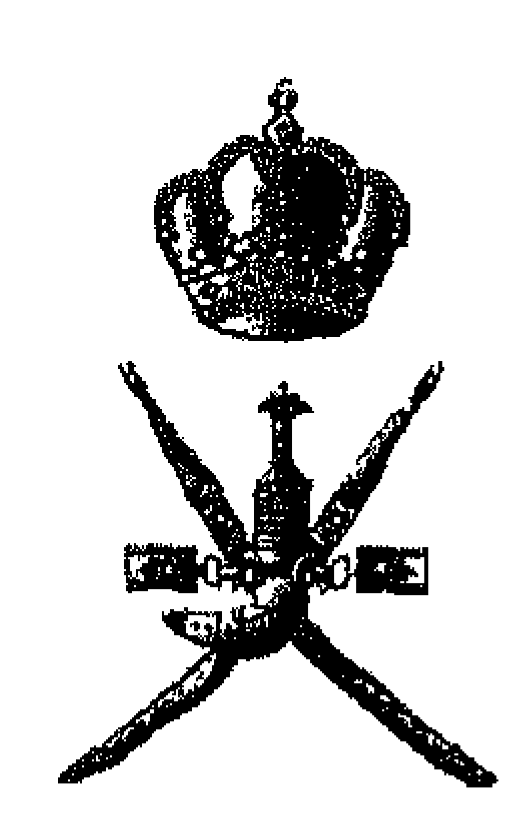
ندوة

الإسلام والعولمة

٢٤-٢٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ

٢٣-٢٤ إبريل ٢٠٠٦م





ديوان البلاط السلطاني

مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية



ندوة



٢٤ - ٢٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ

٢٣-٢٤ إبـريــل ٢٠٠٦م

بقاعة المحاضرات بجامع السلطان قابوس الأكبر

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

ص.ب: ٣٠٦٦ روي، الرمز البريدي: ١١٢، سلطنة عمان
هاتف: ٢٤٨٣٧٧٠١ - ٢٤٨٣٧٧٠٢ ، فاكس: ٢٤٨٣٥١٦١
www.sqcic.gov.om

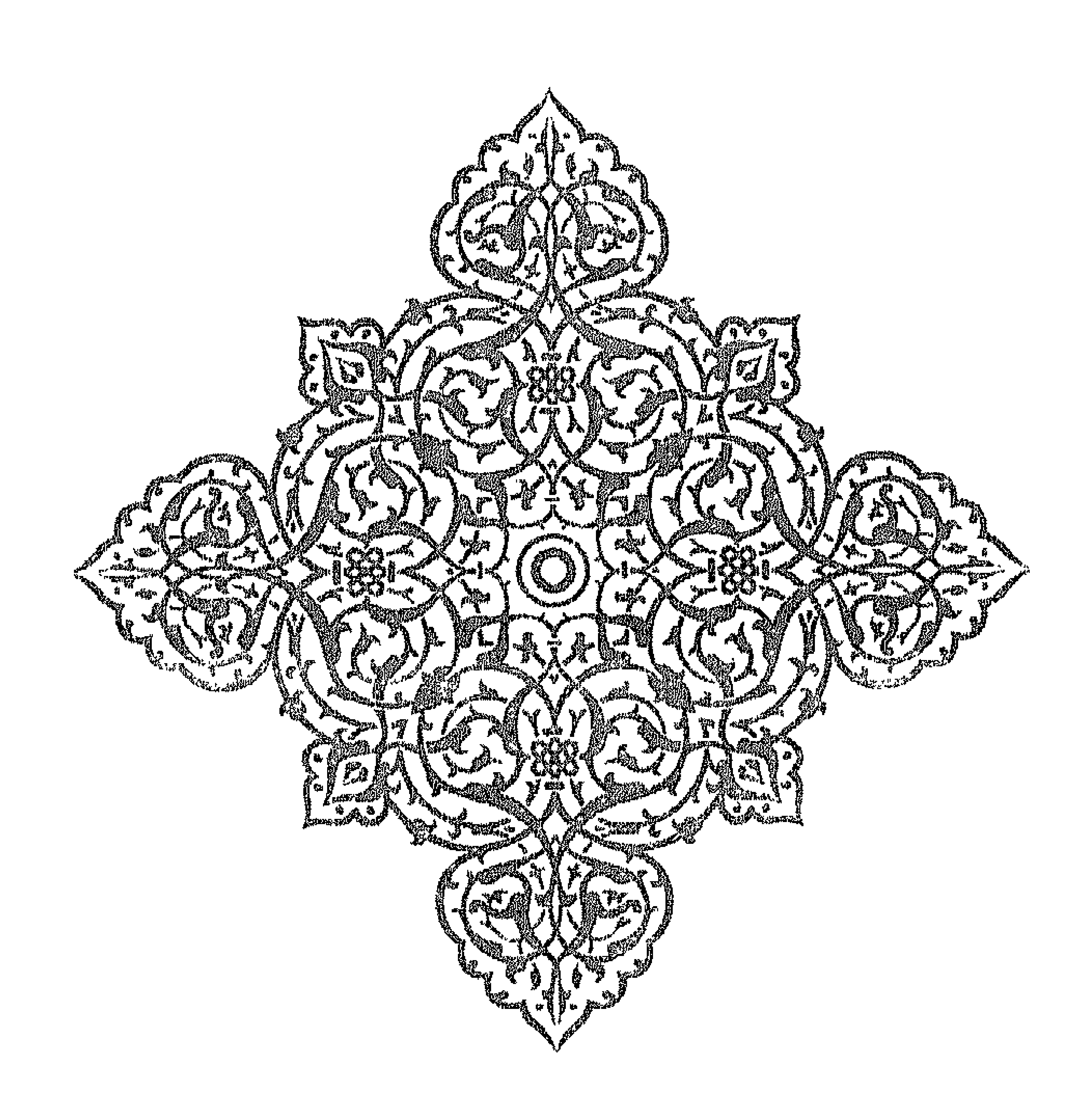
رقم الإيداع: ٣١٨ / ٢٠١٠

المحتويات

مُقَدِّمَة

ندوة

الإِسْلَامُ وَالعَوْلَمَة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تنعقد هذه الندوة رغبة من مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية في معالجة هذا الموضوع القديم الجديد ، وللنظر إليه من زوايا الآثار والتحديات المترتبة على العولمة باعتبارها حالة تمر بها البشرية أوصلتها إليها مجموعة من التطورات المتلاحقة وعلى أكثر من صعيد ، تلك التطورات التي حدثت خلال القرن العشرين ، و استكملت تبعاتها وآثارها خلال السنوات الأولى من القرن الراهن . ورغبة في تجاوز الجدل حول توصيف العولمة وتعريفها إلى التركيز على الآثار و التحديات، حيث أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر و انعكاساتها السياسية والإعلامية قد عصفت بملامح الفهم والاستعداد لهذه الظاهرة والتي كانت قد بدأت في البروز على مستوى الخطاب الإسلامي ، وأبدلته بحالة من الذهول والاستسلام ، أو الرفض والاستعصاء والعدوانية ، وإن تكوين موقف ورؤية لهذا الأمر يحتاج لمزيد من الوعي بالذات و الفهم للآخر ، والإدراك لحجم التحدي، وحدود القدرة على تجاوز حالة الأزمة والحرج، والاستعداد لما ينبغي علينا عمله لضمان البقاء والاستمرار لثقافتنا وحضارتنا الإسلامية مستقلة في مساقاتها الحضارية، قادرة على العطاء والتأثير.

- **أهداف الندوة :**

تضع الندوة نصب عينيها الأهداف التالية :

١- كشف الآثار المباشرة وغير المباشرة للعولمة على اللغة و الأدب و التربية و الهوية الحضارية ، والتحديات التي تضعها العولمة على هذه المستويات ، ومحاولة إيجاد سبل لتعزيز الاستعداد للدخول في مرحلة طويلة و شاقة من التدافع الحضاري .

٢- الوقوف على إمكانيات الأمة الحضارية و الثقافية وقدرتها على الإسهام الحضاري في ظل حالة يشيع فيها التنافس على كل مستويات الإنتاج المعرفي والمادي ، والوقوف على نقاط الضعف و القوة .

٣- كشف الأبعاد الإعلامية والاقتصادية للعولمة وما يترتب على ذلك من آثار سياسية واجتماعية ، والعواقب الإيجابية والسلبية لحالة الانفتاح الاقتصادي ، وما تنطوي

عليه من فرص وما تحمله من مخاطر ، وما يترتب على تحول المعرفة والثقافة إلى سلعة سواء في قطاعات السلع أو الخدمات .

٤- مناقشة الإسهام الذي يقوم به الإسلام في تزويد الأمة بالقدرة على العطاء والمنافسة، وتقديم الأمل للبشرية، ليكون بديلاً حضارياً عن حالة التنميط الذي تقوم به قوى عالمية تمثل حضارة معينة، لصالح حضارتها و أنماط عيشها ومسالكها الحضارية، وكشف الأبعاد العالمية للإسلام.

- **محاور الندوة :**

- **المحور الأول « عالمية الإسلام وعولمة الغرب » :**

يتناول دور الإسلام في تقديم بديل حضاري عن حالة الانسحاق والتبعية التي قد تترتب على العولمة في حالة الإخفاق في « التدافع »، كما يتناول البعد العالمي للإسلام وخيره على البشرية كافة، أتباعه أو غيرهم في الحد من غلواء القطبية الأحادية لحضارة غالبة.

- **المحور الثاني « العولمة الاقتصادية » :**

يتناول آثارها المختلفة من حيث اتفاقات التجارة العالمية ، و تبعات الاستثمار الخارجي، ونفوذ الشركات العابرة للجنسيات، وترابط الأسواق العالمية ، وفرص المنافسة التي يتيحها رفع الحدود ، وتحول المعرفة إلى سلعة وظهور اقتصاد المعرفة ، وانعكاسات ذلك كله على البيئة الكونية ، وشيوع أخلاقيات السوق .

- **المحور الثالث « تأثير العولمة على الكلمة العربية » :**

يتناول آثار العولمة على الكلمة والأدب العربي ، وموقع الأدب العربي بين آداب العالم، ومخاطر العولمة على الكلمة العربية في ظل حالة الهزيمة الحضارية ، وسبل دعم الكلمة العربية في هذا الزحام الحضاري باعتبارها وعاء للحضارة والثقافة الإسلامية.

- **المحور الرابع « الأبعاد الإعلامية للعولمة » :**

يتناول تأثير حالة الانفتاح الإعلامي المصاحبة للعولمة على البنى الثقافية والاجتماعية، وحدود التغيير المتوقع في حزم القيم الأخلاقية الضابطة للسلوك وللعادات، و الإعلام

البديل، ومستوى العطاء الإعلامي لمؤسسات الإعلام العربية بين التقليد المحض والتميز، وحتمية وجود حس نهضوي في فلسفة الإعلام في العالم الإسلامي.

- **المحور الخامس « شعار العولمة القرية الكونية مناقشة وتحليل »:**

يناقش فكرة القرية الكونية من حيث إنها نتيجة لحالة العولمة أو أنها هدف يراد له أن يتحقق ، كما يحاول إضاءة أمثال هذه الشعارات و العناوين و المصطلحات التي يحملها الخطاب « المعولم » ، والهدف من ترويجها ، و يتناول بالحديث آفاق التقنية الرقمية ودعمها للتواصل الحضاري ، و مستقبل تعدد الثقافات داخل القرية الكونية، وإسهام التقنية الرقمية في تقليل الفروق بين القوى الصلبة واللينة، والآثار المترتبة على ذلك .

- **المحور السادس « مستقبل الهوية العربية في منظومة العولمة »:**

يعالج آثار العولمة على مفهوم الهوية الإسلامية وهل سيعززه من خلال تحرير المسلمين من الهويات الثانوية لصالح الهوية العامة بسبب حالة الانفتاح؟ ، أم أن حالة العولمة ستؤدي إلى مزيد من التمييع وإذابة خصائص الشخصية الإسلامية في محيط أوسع؟ وإسهام العولمة في تغيير مفهومي الانتماء و المواطنة ، كما سيتناول موقف العالم الإسلامي من حالة التنميط الثقافي التي تجتاح الإعلام وتغزو المجتمعات .

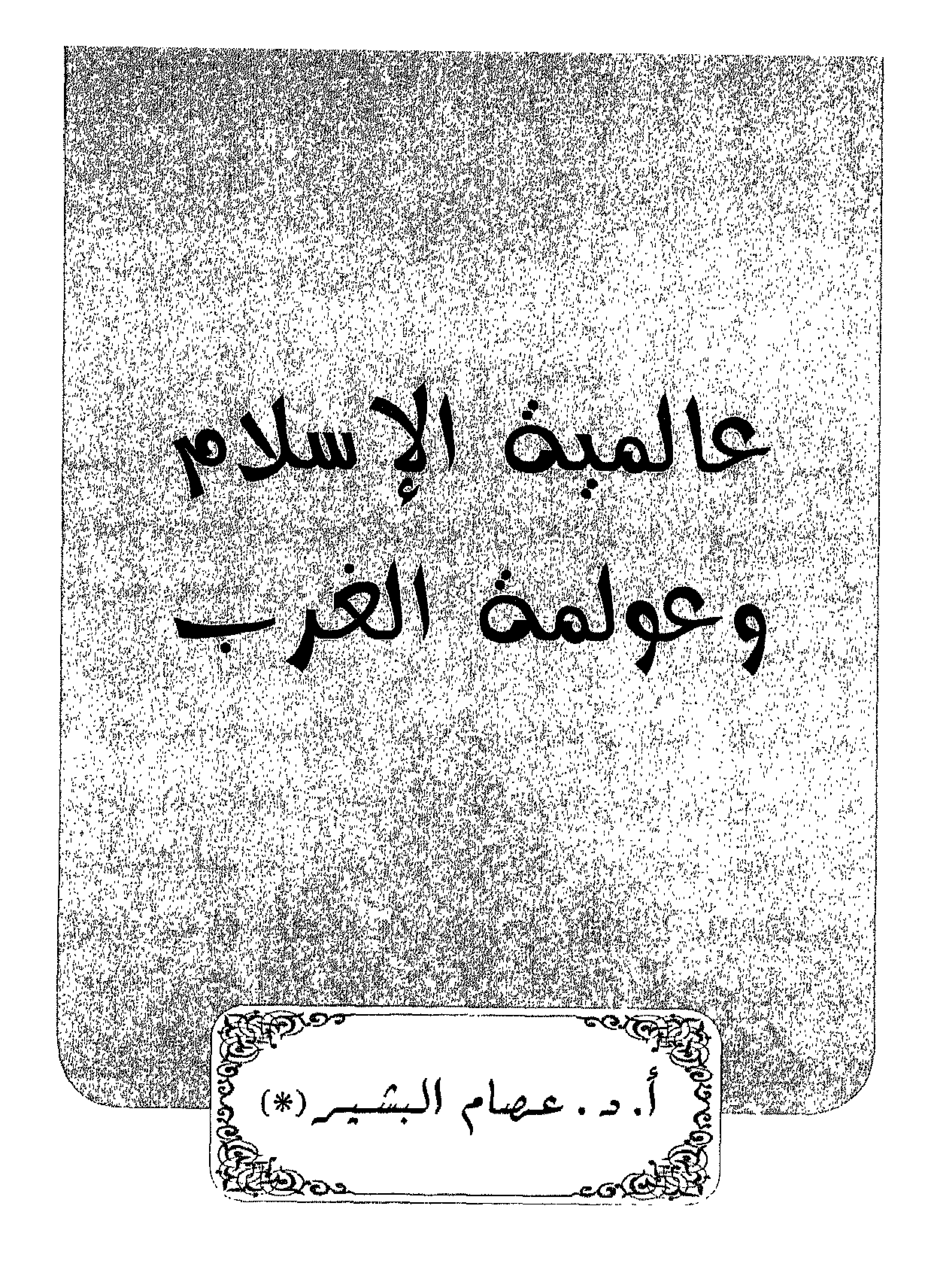
- **المحور السابع « التربية وتحديات العولمة »:**

يتناول التحديات التي تضعها العولمة وتجلياتها المختلفة الإعلامية والاقتصادية على مؤسسة التعليم ، في مستوى الفلسفة الموجهة أو في مستوى الخطط العملية أو مستوى إعداد المعلم أو خطط المناهج الدراسية أو المرافق والتقنيات، وموقع التعليم في مراتبه المختلفة من فكرة النهضة التي قد توازن ضغط الآثار المترتبة على العولمة ، كما يتناول مساحة الحركة الشاسعة التي تترتب على حالة رفع الحدود والقيود لمؤسسات التعليم العربي ، وما يوفره ذلك من مزايا وفرص، بالإضافة إلى موقع مؤسسات التعليم الديني من الآثار المباشرة وغير المباشرة للعولمة ، وما تتطلبه العولمة من قيم تربوية خاصة حان الوقت

لإنعاشها بعد اشتداد الحاجة إليها من قبيل قيم الرقابة الذاتية ، ونشاط الضمير، وقيمة تزكية الأنفس ، وموقع الأخلاق من الفلسفة التربوية في ظل العولمة .

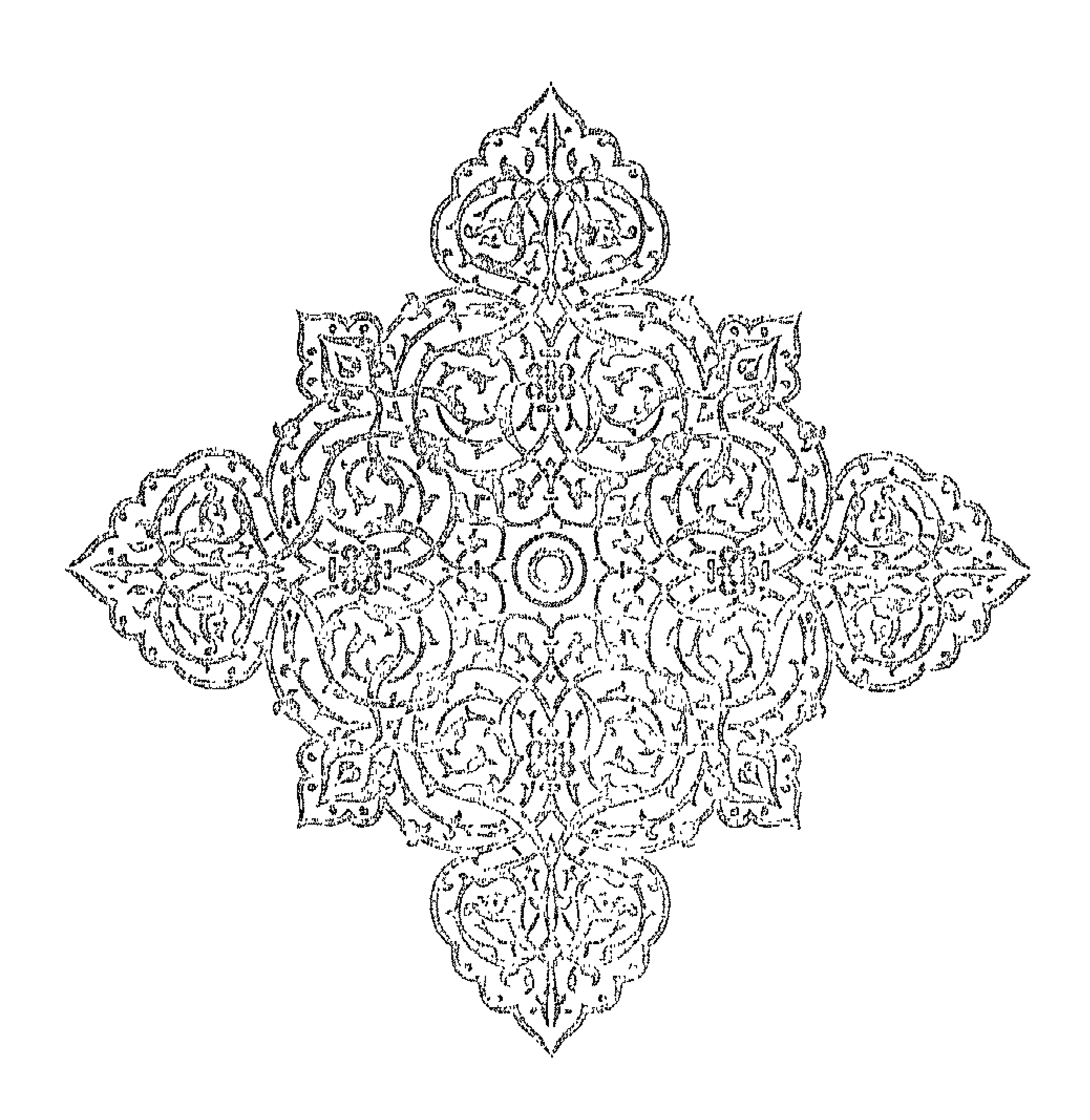
- **المحور الثامن « العولمة والفرص المتاحة »:**

يناقش الفرص التي تتيحها العولمة لتقديم عولمة مضادة ، من جهة أن العولمة بضغوطها على المجتمعات والشعوب والدول وفرت الفرصة لاستنفار الطاقات واستشعار التحدي ، واستفزت الولاءات المحلية الدينية والعرقية والثقافية ، ومن ثم فإنها وبطبيعتها التي تجنح للانفتاح وبسبب ثقتها بقدرتها على التنافس والدفع بأنماطها الحضارية القادمة من دول المركز (مركز العولمة) أعطت المجال في الوقت ذاته للتأثيرات المعاكسة، وعليه فإنها كذلك تتيح فرصاً للإسلام وقيمه الحضارية للانتشار والحركة في معركة لكسب القلوب و العقول ، فأين موقع المسلمين من استغلال الفرص المتاحة من أجل التبشير بقضايا الإسلام للإقناع به أو كسب التعاطف معه؟



(*) وزير الإرشاد والأوقاف بجمهورية السودان (سابقا)، وقد عمل أستاذا في العديد من الجامعات، وشارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية العالمية، وهو عضو في العديد من المجالس المتخصصة، والمجامع الفقهية كمجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وعضو بالمجلس الأعلى لمركز دراسات مقاصد الشريعة بانجلترا.

- ملاحظة: المحاضرة ألقاها نيابة عنه : الأستاذ محمد بن سالم الحارثي، تخصص أول بحوث بالمركز.



بسم الله الرحمن الرحيم

واقعنا والعولمة :

يتميز العصر الذي نعيشه -عصر العولمة- بسقوط الحدود الزمانية والمكانية، وتلاشي المسافات؛ حيث تحول العالم إلى قرية صغيرة أصبحت فيها العلاقات البشرية أكثر تنظيمًا وسرعة ، الأمر الذي أدى إلى مزيد من التفاعل البشري، والانفتاح الثقافي، والتنازع الحضاري .

كما يتميز بالتطور الهائل في تكنولوجيا الانتقال و الاتصال ، حيث وصل الإنسان إلى القمر، وأرسل أجهزة إلى المريخ جمعت صوراً لسطحه ، وعينات من تربته ، واخترعت أدوات جديدة للتواصل بين أعداد أكبر من الناس كما في شبكة الإنترنت ، والأقمار الصناعية والمحطات الفضائية ، التي أصبح الإنسان قادراً عبرها على أن يرى ويسمع ما يدور في أرجاء العالم .

هذه الثورة التقنية العلمية الهائلة ، نسبة لميلادها وتطورها في كنف الحضارة الغربية، أفرزت تحديات كبيرة – على كافة الأصعدة - أهمها :

* **اقتصاديا** : أدت إلى زيادة الترابط بين الأسواق المختلفة ، حتى وصلت إلى حالة أقرب إلى السوق العالمي الكبير، خاصة مع نمو البورصات العالمية ، وبروز الشركات عابرة القارات ، الأمر الذي أضعف الشركات الصغيرة ، وأعيا الدول الفقيرة.

* **دينياً** : أدت إلى تغليب المادة على الروح ، والعاجل على الآجل ، والنزوة على المبدأ، واختزلت الإنسان في بعده المادي الاستهلاكي بل والشهواني أحياناً ، وساهمت في ترويج العلمانية الغربية ؛ والدعوة إلى فصل الدين عن الدولة فكراً و ممارسة.

* **سياسياً** : أوجدت أداة فعالة للنظام العالمي الجديد تمكنه من بسط سيطرته ، ونشر حضارته والعمل على تشكيل العالم وفق الطريقة التي يريد عبر إحكام السيطرة على المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة ، وصندوق النقد الدولي ومجلس الأمن ... ونحوه، والسيطرة على أجهزة الإعلام العالمية من صحف وإذاعات وقنوات فضائية ونحوه .

* **اجتماعيا:** أدت إلى تزايد الصلات بين الجمعيات والمؤسسات غير الحكومية، وتعميق التنسيق بين المصالح المختلفة للأفراد والجماعات، فظهر ما يعرف بالشبكات الدولية (Networking) حيث برز التعاون استنادًا إلى المصالح المشتركة بين الجماعات والمؤسسات ؛ الأمر الذي أفرز تحالفات بين القوى الاجتماعية على المستوى الدولي، خاصة في المجالات النافعة مثل: الحفاظ على البيئة، أو في المجالات القانونية كتنظيف الأموال والمافيا الدولية للسلاح ، وفي الجانب غير المحمود أدت لظهور الجريمة عابرة الحدود الأمر الذي نتج عنه فقدان التوازن النفسي ، والقيمي في مسيرة الحضارة البشرية .

أسباب تنامي ظاهرة العولمة :

الأفكار الأساسية للعولمة ليست جديدة لكن ما أدى إلى تناميها ، وظهورها بقوة يمكن إجماله في الآتي:

١. انهيار الأسوار العالية ، التي كانت تحتمي بها بعض الأمم من تيار العولمة ، كالاتحاد السوفيتي ، وأوربا الشرقية ، والصين .
٢. الزيادة الكبيرة في درجة تنوع السلع ، والخدمات المتبادلة بين الأمم .
٣. الزيادة الكبيرة في أعداد السكان .
٤. انتقال العالم من حقبة تبادل السلع والخدمات ، إلى حقبة تبادل المعلومات و الأفكار .
٥. التغير الذي طرأ على مركز الدولة من خلال النمو، الذي حدث في العلاقات الاجتماعية خلال العقود الأخيرة .
٦. بروز الشركات متعددة الجنسيات كوسيلة أكثر فاعلية ونشاطاً في مجال انتقال السلع، ورؤوس الأموال و الأفكار .
٧. بروز النظام العالمي الجديد الذي تتبناه أمريكا وحلفاؤها.

محاذير العولمة :

الدول الكبرى ليست متخوفة من العولمة إلا بالقدر المتعلق بمسائل الربح والخسارة في ميدان التجارة والاقتصاد، وذلك لأنها مركز هذه العولمة وقاعدة انطلاقها، وتكمن

مخاوف الغرب في جدوى العولمة الاقتصادية و التجارية ، ومدى تأثيرها على حياة الإنسان في الغرب ، وهناك تخوف من أن تتسبب حرية الحركة التي تتيحها العولمة للشركات الكبرى متعددة الجنسيات في زيادة نسبة العطالة في البلدان الصناعية ، والبحث عن العمالة الرخيصة في دول العالم الثالث .

محاذير ثقافية :

العالم الثالث متخوف على مصدر حياته الثقافية ، وعلى طرائق عيشه المتوارثة ؛ لأن مشكلته مع العولمة ليست محصورة في الاقتصاد و التجارة ، لكنها مشكلة مركبة متعددة الجوانب تتبلور في :-

١. وسائل الاتصال الحديثة تنقل إليه أنماطاً من السلوك الاجتماعي طالت العلاقات الأسرية و الاجتماعية، وطرائق اللباس ، والطعام من منظور الثقافة الغربية المعاصرة، وهذه الأنماط في جملتها مختلفة - إن لم نقل متعارضة ومتصادمة أحياناً - مع ثقافات ومعتقدات ، و منظومات القيم السائدة في المجتمعات النامية.

٢. كذلك هناك محاذير من ناحية المنقول الثقافي، حيث يستخدم الصوت والحركة، وأحدث ما أنتجته وسائل الاتصال للتحريض على التقليد الذي هو أحط وسائل التعليم؛ فالتقليد يلغي العقل ووظيفته في التأمل والمضاهاة بين الخيارات ، وإمكان النظر في البدائل المتاحة .

٣. كذلك هناك إشكالية في مضمون الرسالة التي تحملها ثقافة الصورة والإعلام للمتلقين؛ فهي ثقافة ترفع من قيمة النفعية، والفر دانية والأنانية والنزع المادي الغرائزي المجرد من أي محتوى إنساني .

٤. كذلك هناك إشكالية أن الثقافة الوافدة ستكون منبتة الجذور لا صلة بينها ، وبين النظام الاجتماعي الذي قدمت إليه وبالتالي ستكون ثقافة (معلبة) تنتج في أفضل الأحوال إنسانا آلياً منبت الصلة بمحيطه وعديم الفاعلية.

محاذير اقتصادية :

يمكن إيجاز أهم آثارا لعولمة الاقتصادية في الآتي :-

١. العولمة تكرس انقسام العالم إلى عالم الأغنياء المنتجين ، وعالم الفقراء المستهلكين ، وذلك بهيمنة الشركات الغربية متعددة الجنسيات على اقتصاديات الدول النامية مما يفسر الانهيارات الضخمة التي حدثت في شرق آسيا .

٢. العولمة تكرس هيمنة المؤسسات الرأسمالية العالمية على الدول ، مثل صندوق النقد الدولي الذي يتولى وضع تفاصيل برامج اقتصادية للدول في تجاوز صارخ لمعنى السيادة ، والكرامة ، وفي تكريس واضح لنظم الحياة الغربية .

٣. العولمة تعمل على زعزعة استقرار العمال وإنجازاتهم المتمثلة في خفض ساعات العمل ، وضمان التأمين الصحي ، والاجتماعي ، بالتهديد بالإنتاج في البلدان الأكثر فقراً بتكاليف قليلة.

محاذير سياسية :

١. العولمة الاقتصادية أتاحت للشركات المتعددة الجنسيات التأثير المباشر على حكومات الدول النامية ومشاركتها الفاعلة في اللجان الاقتصادية ، مما أدى إلى تحقيق نفوذ سياسي كبير للشركات على حساب الحكومات.

٢. العولمة تهدد مفهوم الدولة القطرية ، وتهدد استقلالها ، وتنذر بتغيير شكل الدولة القطرية ، وتكييفها إن لم يؤد إلى زوالها.

٣. العولمة تؤدي إلى جعل العالم كله سوقاً ضخمة بلا أبواب ولا خفراء، تتحكم فيه شركات كبرى .

٤. العولمة تؤدي إلى سيطرة القطبية على أهم مناطق الاحتياطات النفطية في العالم ، وعزل القوى المنافسة .

حول عالمية الإسلام:

الواقع البئيس الذي يعيشه العالم اليوم يفرض على المسلمين أن ينشروا الخير العميم الذي عندهم، وأن يقدموا الحلول الناجعة لمشاكل العالم ؛ مستخدمين في ذلك أدوات العصر ولغته في مخاطبة الناس ، تحقيقاً للشهود الحضاري للأمة الإسلامية على الأمم الأخرى انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[1] فالشهود ليس في الآخرة فقط ؛ بل هناك شهود في الدنيا – كما يرى بعض المفسرين – قال عطاء: « إن أمة محمد شهداء على من ترك الحق حين جاءه بالإيمان، والهدى من كان قبلنا، ورسول الله شاهد على أمته ، وهم شهداء على الأمم » ، والشهود الذي تقوم به الأمة الإسلامية يقوم على :

* الخيرية المستندة إلى أكمل الشرائع ، وأقوم المناهج وأوضح المذاهب وأصح العقائد .. عقيدة التوحيد التي وحدت غاية النفس البشرية ، وجعلتها تنحصر في رضاء الخالق، فعصمتها من التمزق النفسي ، والصراع الداخلي، والتناقض الفكري ، والتنازع الكهنوتي، والتضارب السلوكي ، فأزالت الأرباب الزائفة ، وحطمت الأصنام المادية و المعنوية، وهذبت الرغائب النفسية ، وشذبت الشهوات الحسية ، ووجهت الغرائز الحيوانية، فأبانت الوجهة وحددت الطريق ، ووضحت المعالم ، وأرست المبادئ ونشرت القيم وأنشأت خير أمة أخرجت للناس ، فسعد العالم وطرب الوجود وفرح الكون ، وانتشت الحضارة ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2].

* الرحمة التي جعلها الله للناس كافة دون اعتبار لدين أو عرق أو حضارة ، الرحمة التي تشيع السماحة والود ، والتراحم بين بني البشر ، وتخلص العالم من التحاسد

---

(١) سورة البقرة : الآية : ١٤٣ .

(٢) سورة يونس : الآية : ٥٨ .

الفردي ، والتطاحن العنصري ، والتعصب الديني كما تمكنه من وقف نزيف الدم الذي أحدثته الحروب الطاحنة التي تقوم على الرغبة في التوسع ، والاستغلال المادي والعظمة الكاذبة .

١) عالمية الوجهة :

فالخطاب الإسلامي عالمي المنزع والوجهة ، لا يحفل بجنس ، ولا يتحيز لعرق ولا يتكتل في لونه، بل حفلت مفردات القرآن بنداءات للناس جميعاً : (يا أيها الناس) ، (يا بني آدم) وتكررت فيه لفظة «العالمين»، ولفظة «من» التي تفيد العموم والشمول لكل من يعقل، وتحققت عالمية الخطاب في سيرة الرسول ﷺ ، إذ وجه خطابه إلى ملوك ورؤساء العالم وقتها، فكتب إلى كسرى عظيم الفرس، وقيصر عظيم الروم، والمقوقس عظيم القبط ، والنجاشي ملك الحبشة وهكذا .

هذه العالمية — للإسلام — تبدت في قدرته على التعايش مع كل الجماعات البشرية غير المحاربة من نصارى ويهود.. ملوك وفقراء .. سود وبيض ..إلخ ، وفق الأسس والضوابط التالية :

١- **الاعتراف أن الاختلاف بين بني البشر في الدين واقع بمشيئة الله تعالى،** فقد منح الله البشر الحرية والاختيار في أن يفعل ويدع ، أن يؤمن أو يكفر :﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[١].

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير، والحكمة علم الناس ذلك أو جهلوه . ولهذا ينحصر دوره في مهمة البلاغ المبين قولاً وعملاً دون إجبار أو إكراه ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[٢].

٢- **وحدة الأصل الإنساني و الكرامة الآدمية:** انطلاقاً من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[٣]، وقوله ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ

(١) سورة الكهف : الآية : ٢٨ .
(٢) سورة يونس : الآية : ٩٩ .
(٣) سورة الحجرات : الآية : ١٣ .

﴿وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1]؛ فالناس أكرمهم عند الله أتقاهم ، أبوهم واحد ، والرابطة الإنسانية بينهم قائمة شاءوا أم أبوا، هذه الرابطة تترتب عليها واجبات شرعية كالقيام للجنازة أياً كانت عقيدة صاحبها .. روى البخاري أن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام فقيل له : إنها جنازة يهودي. فقال :« أليست نفسا ».

٣- **التعارف:** لقوله سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[2] وكما ورد في الحديث « وأشهد أن العباد - كلهم — إخوة » ؛ فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة في الدار أو الوطن بالتعبير العصري ، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها .

والروابط الاجتماعية بين البشر كثيرة ،عبرت عنها الآية ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[3] إذ حوت : الرابطة العائلية، والرابطة القومية، ورابطة الإقامة (الوطن) ، ورابطة المصلحة ، والرابطة الإسلامية.

٤- **التعايش:** إذ أن حياة المتشاركين لا تقوم بغير تعايش سمح: بيعاً وشراء ..قضاء واقتضاء..ظعناً وإقامة ...، وتاريخ المسلمين حافل بصور التعامل الراقي مع غير المسلمين ، وقد حدّد الله سبحانه وتعالى أساس هذا التعايش بقوله ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[4].

إن غير المسلم إذا لم يبدأ بحرب ، ولم يظاهر على إخراج ، فما من سبيل معه غير التعايش الجميل الملتزم بالبرّ ، وهو جماع حسن الخلق ، والقسط هو: العدل ، والفضل ، والإحسان.

---

(١) سورة الأسراء : الآية : ٧٠ .
(٢) سورة الحجرات : الآية : ١٣
(٣) سورة التوبه : الآية : ٢٤ .
(٤) سورة الممتحنة : الآية : ٨ .

٥- **التعاون:** كثير من القضايا العامة تشكل قاسماً مشتركاً بين المسلمين وغيرهم ، ويمكن التعاون فيها ، كما أن الأخطار التي تتهددهم معاً ليست قليلة ، ويمكن أن تشكل هذه القواسم المشتركة منطلقاً للتعايش والتعاون ، وأهم هذه القواسم المشتركة ما يلي:

أ- الإعلاء من شأن القيم الإنسانية، والأخلاق الأساسية فالعدل والحرية والمساواة والصدق والعفة كلها قيم حضارية تشترك فيها الأديان ، والحضارات وترسيخها في المجتمعات هدف مشترك يمكن التعاون عليه.

ب- مناصرة المستضعفين في الأرض وقضايا العدل والحرية ، ومحاربة الظلم ومن ذلك اضطهاد السود والملونين في أميركا ، واضطهاد الأقليات الدينية ، وسائر الشعوب المقهورة في فلسطين و كوسوفا والشيشان ونحوه ، فالإسلام يناصر المظلومين من أي جنس ودين ، والرسول ﷺ قد قال عن « حلف الفضول » الذي تم في الجاهلية :« لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أنّ لي به حُمر النّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت ».

ج- التعاون لمواجهة دعاة المادية الذين ينكرون الغيب ، ودعاة الإلحاد الذين يجحدون وجود الله ، ودعاة الإباحية الذين يروجون للعري والتحلل الجنسي ، والشذوذ والإجهاض.

٢) إنسانية المنطلق:

فالنزعة الإنسانية هي لحمة الخطاب الإسلامي وسداته، ويكفي للدلالة على ذلك أن لفظة «الإنسان» تكررت في القرآن (٦٣) ثلاثاً وستين مرة ولفظة « بني آدم» تكررت (٦) ست مرات وكلمة «الناس» تكررت (٢٤٠) مائتين وأربعين مرة ، وأول نداء في القرآن كان نداء للناس كافة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، كما أن أول خمس آيات نزلت من القرآن (من سورة العلق) ذكرت لفظة «الإنسان» في اثنتين ، منها : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة : الآية : ٢١ .
(٢) سورة العلق : الآية : ١-٥ .

و الله سبحانه كرم الإنسان إذ خلقه بيده في أفضل صورة و أجمل منظر و أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه ، و ميزه بالعقل الذي يعي ويريد ويختار ، وأسجد له ملائكته واحتفى به في الملأ الأعلى وسخر له الكون ، وأنزل إليه كتبه ، واختار منه رسلا ، يدعون إلى الواحد الديان ، ويسمون بإنسانية الإنسان .

كذلك كانت سيرة الرسول ﷺ تأكيدا لهذه الإنسانية ، إذ أنه ﷺ الرحمة المهداة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]، وكانت أفعاله وأقواله ﷺ تأكيداً لمبدأ الأخوة الإنسانية « أنا شهيد أن العباد كلهم أخـوة » ، والمساواة الإنسانيـة « كلكم لآدم وآدم من تراب » ، وأهمية الأعمال الإنسانية « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا : بلى ، يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد البين هي الحالقة » ، « أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم : تكشف عنه كربه، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا ، ومن كظم غضبه. ولو شاء أن يمضيه أمضاه. ملأ الله قلبه رخاء يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تنعقد الأقدام » .

٣) وسطية المنهج:

الخطاب الإسلامي يراعي التوازن بين العقل والوحي، وبين المادة والروح ، وبين الحقوق والواجبات، وبين الفردية والجماعية ، وبين الإلهام والالتزام ، وبين النص والاجتهاد، وبين الواقع والمثال، بين الثابت والمتحول ، بين الارتباط بالأصل والاتصال بالعصر ، لا ينظر للحضارة الغربية بازدراء واحتقار، كما لا يراها بعين الإعجاب والانبهار، بل يتعامل معها وفق الموجهات التالية:

١- يؤمن بالتعددية الحضارية الثقافية التشريعية والسياسية والاجتماعية ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٧٠ :

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

٢- يعمل على تنمية آفاق التواصل الحضاري ، ومن ذلك الإفادة من الحضارة الغربية في المنهج العلمي ، في الكونيات والنظم الإدارية المتقدمة ، وتجديد الإحساس بقيمة الوقت، وقيمة العدل في ظل مناخ كريم ، والدعوة إلى قيام شراكة إنسانية صحيحة وقويمة ـ التبادل العادل للمصالح ـ والسعي الجاد لخفض أصوات الغلاة من الطرفين .

٣- يهتم بالكتابات التي تقدم لغير المسلمين ، ويركز فيها على الحجة العقلية لا النصوص الشرعية.

٤- يدعو إلى تأسيس فقه الأقليات المسلمة في مجتمع غير المسلمين على قاعدة (لا تكليف إلا بمقدور) أي : على قدر الوسع والطاقة بما يحقق للمسلمين الحفاظ على هويتهم دون انكفاء ، وتفاعلهم دون ذوبان.

٥- يركز على المنظومة القيمية في علاقاتنا مع الغرب ، والقائمة على وحدة الأصل الإنساني ، ومنطلق التكريم الإلهي للإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾، و إحياء مبدأ التعارف ﴿ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾، وتعميق الأخوة الإنسانية « وأشهد أن العباد كلهم أخوة » ، والتعامل بالبر والعدل مع المسالمين ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾.

٦- يعمل على إيجاد القواسم المشتركة ، والإعلاء من شأن الأنساق المتفقة ، فالحضارات تتقاسم أقداراً من القيم مثل : العدل ، والمساواة و الحرية .. الخ ، وأهل الحكمة من كل ملة يستحقون الشكر و العرفان.

٧- لا يرى الغرب كتلة واحدة ، بل يتعامل معه على أساس أنه دائرة واسعة الأرجاء، متعددة المنافذ ، يمكن مخاطبتها بموضوعية؛ لرعاية المصالح والمنافع المتبادلة دون حيف ،أو ظلم لتحقيق الأمن والسلام العالميين .

٨- يؤكد الالتزام الواضح بالحرية وحقوق الإنسان ، ومشروعية الخلاف الفكري ، والتعدد الديني والثقافي ، والتداول السلمي للسلطة، ويدافع عنها بوصفها أساساً من مبادئ الإسلام ، وينبذ العنف في العمل السياسي ، ولا يخلطه بالجهاد .

---

(١) سورة المائدة : الآية : ٤٨ .

٩- يدعو إلى إحياء مبدأ التساكن الحضاري ، واستكمال التوازن المفقود في الحضارة الغربية بالأساس الأخلاقي ، عبر قدوة ومصداقية يتطابق فيها المثال والواقع ، ويكون بدلالة الحال أبلغ من دلالة المقال .

١٠- يدعو إلى مخاطبة الرأي العام الغربي من منطلق إنساني تجاه مآسي المسلمين - بإعلام قوي — و الإفادة من ذلك في دفع عجلة الحوار والتفاهم.

١١- تشجيع فكرة المواطنة للجاليات الإسلامية في الغرب مع رعاية مستلزماتها .

١٢- يتعين على الأقلية المسلمة أن تراعي المواثيق لدار العهد ، التزاماً بالقوانين وانضباطاً بأحكامها ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

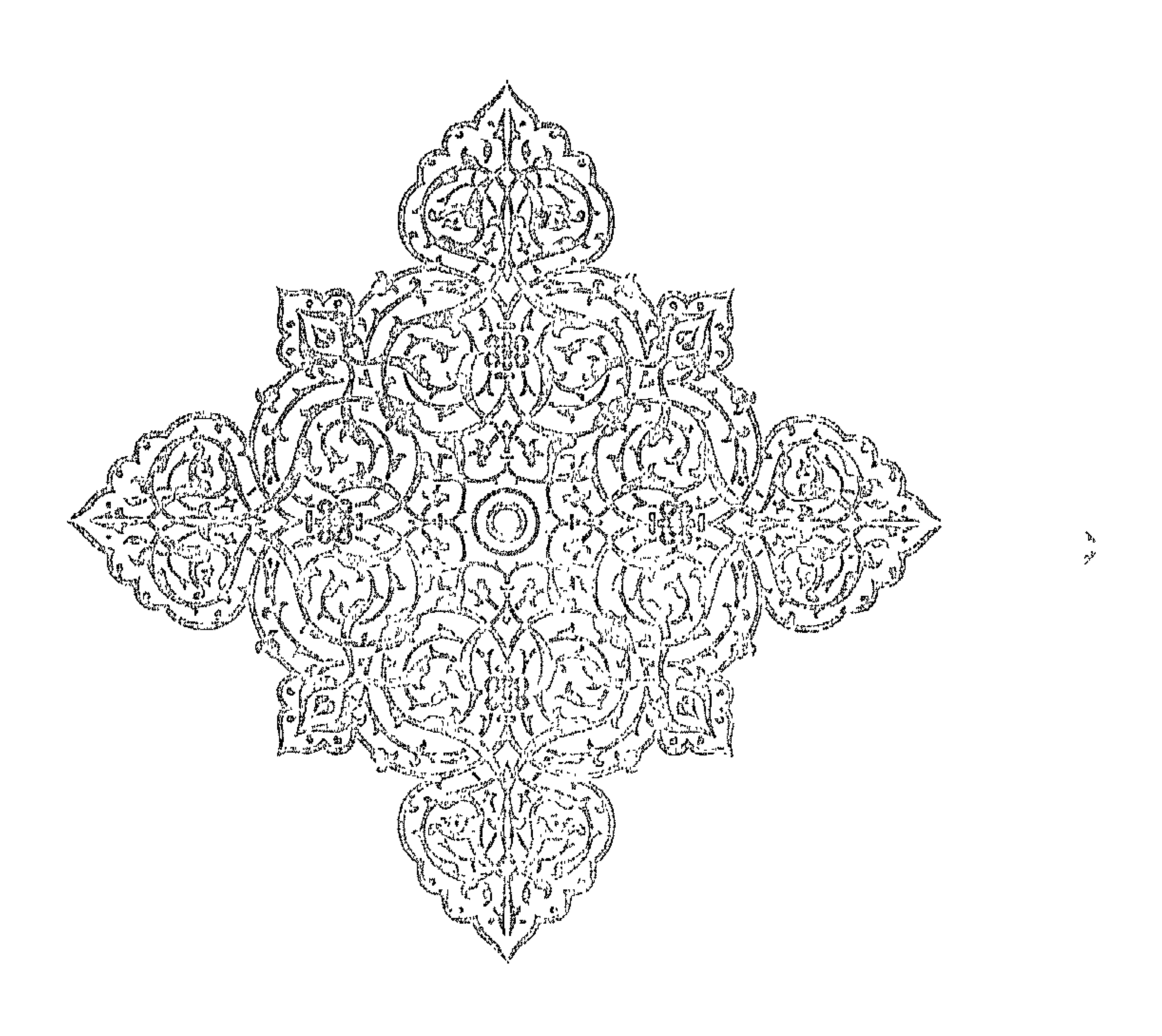
١٣- يعمل على الإسهام في علاج مشكلات المجتمع الغربي ، وإفرازات الحضارة .. من انحلال أسري ، وتفكك اجتماعي ، وانهيار أخلاقي ، وانحراف جنسي ، وتعصب عرقي، والعمل على إبراز تلك الإسهامات .

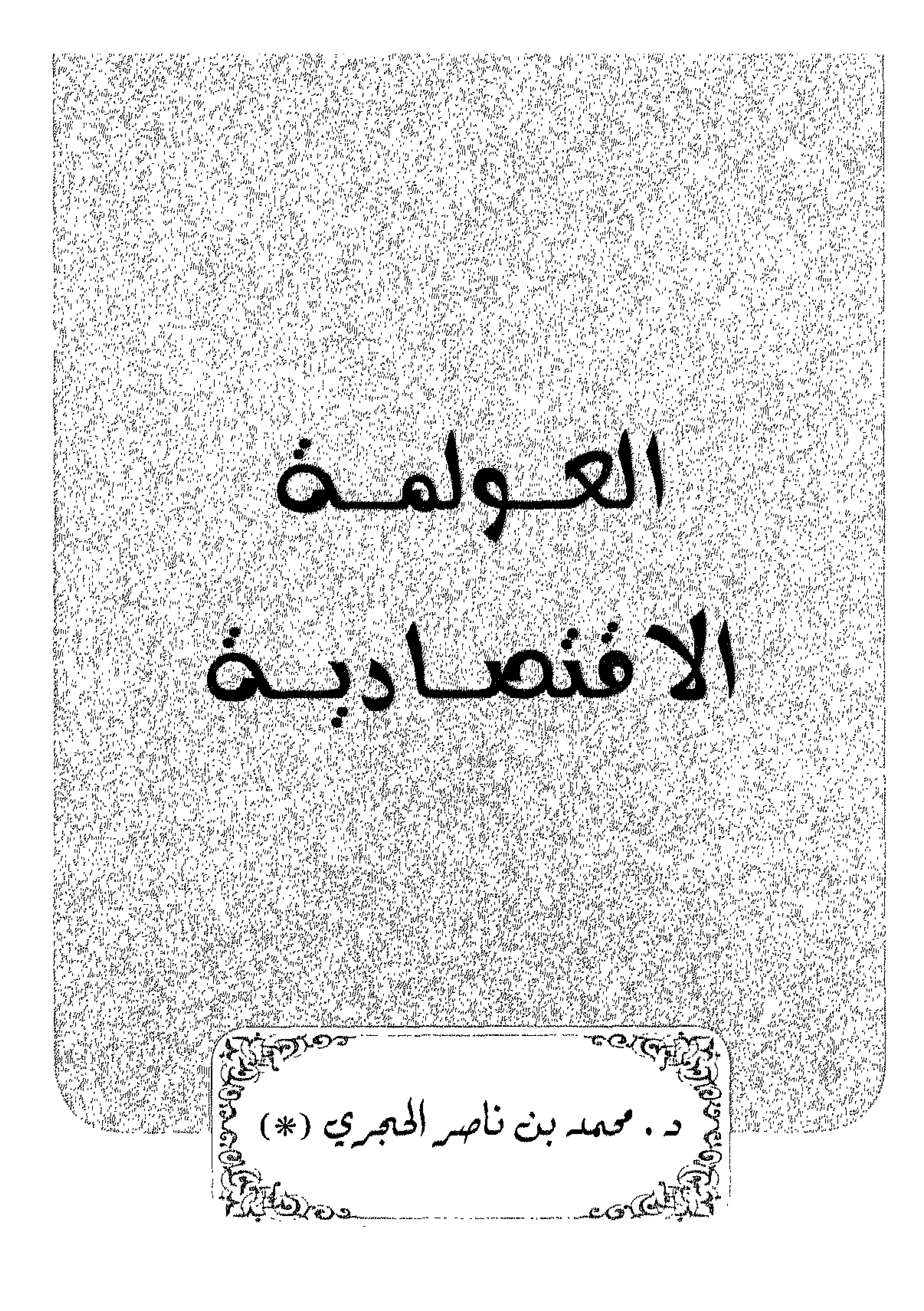
١٤- لا يتحدث عن تاريخ الإسلام و حاضره حديث المدل المختال .. يسرد المحامد ويعدد المناقب ، ويغفل النقائص والمثالب ، كما لا يتحدث عن الإسلام حديث المحامي عن المتهم المدان .. يلتمس الأعذار ، ويبحث عن المبررات ، ويقدم المسوغات، ويبذل التنازلات .

١٥- لا يقدم الإسلام مقاتلاً للبشرية، مشاكساً للمسلمين الملتزمين، منازعاً لغير الملتزمين، محارباً للمسالمين، مروعاً للآمنين، طالباً للدم ، ساعياً للهدم، باحثاً عن الزلات لنشرها ، طالباً للثغرات لهتكها ، كما لا يقدم الإسلام ضعيفا منهزما ، خال من دعوة للجهاد، وقتال للمحاربين والأعداء، بل وسط بين الإحجام والإقدام .. والانكماش والانتعاش.

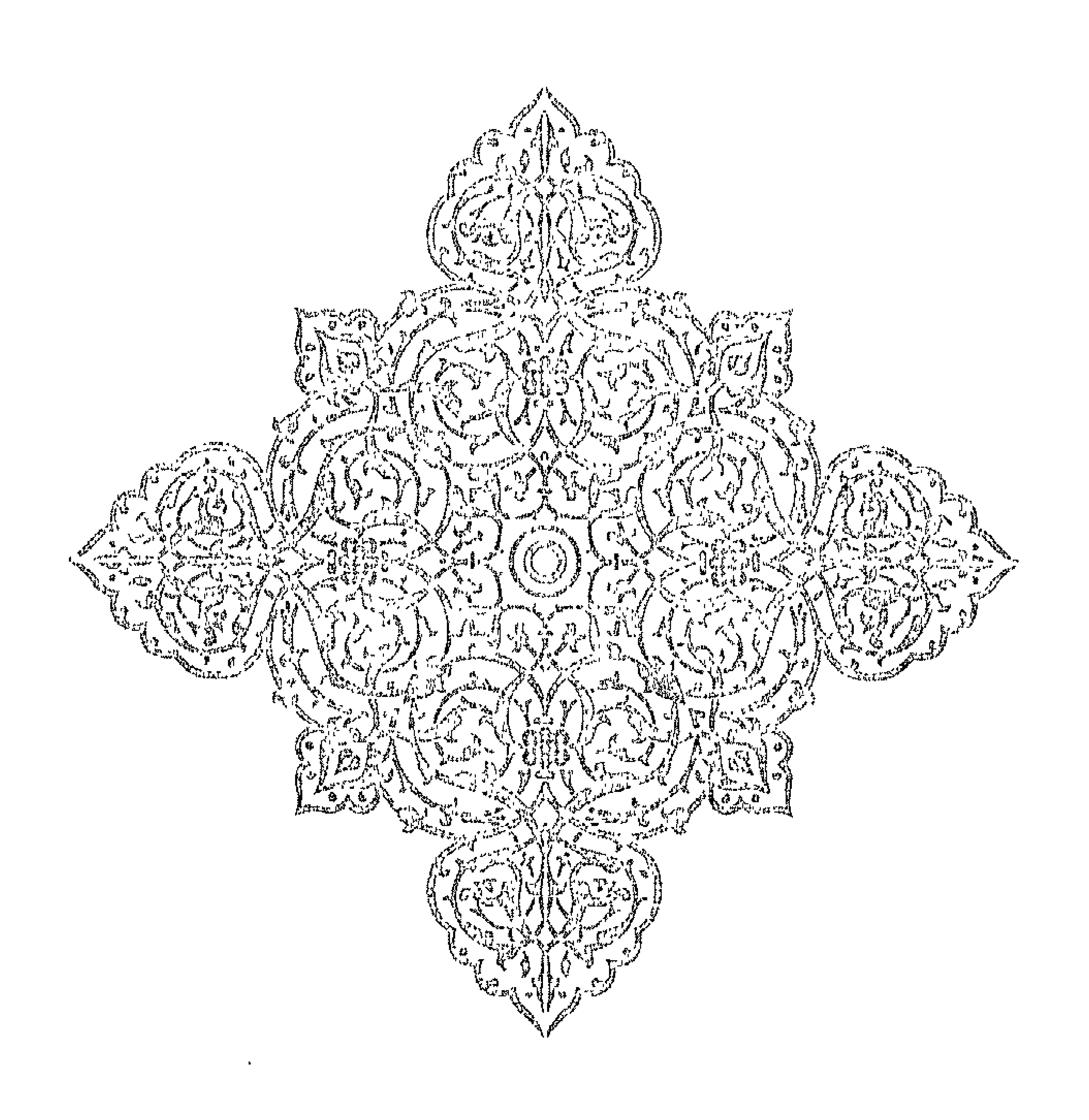
---

(١) سورة الأسراء : الآية : ٣٤ .





(*) عضو مجلس الدولة بسلطنة عمان (سابقا) وعضو بالمجلس الأكاديمي لجامعة نزوى، وأستاذ الاقتصاد بكلية التجارة والاقتصاد في جامعة السلطان قابوس، ومحاضر غير متفرغ في معهد العلوم الشرعية بمسقط، وقد نشر له مجموعة من الكتب منها: "أثر موقف الموازنة العامة للدولة على متغيرات الاقتصاد الكلي في سلطنة عمان خلال الفترة ١٩٧٠-١٩٩٥م"، "ونظام الأفلاج في عمان ودوره في التنمية".



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة :

يغلب على تقديري أحياناً بأن هناك إسرافاً في الحديث عن العولمة ، والكتابة حولها من قبلنا نحن العرب والمسلمين ، ويبقى هذا التقدير صحيحاً طالما تخلف القول عن الفعل كثيراً ، أما عندما يصاحب الكلام الكثير فعل وعمل فإن الحديث والكتابة عنها لا يمكن اعتباره إسرافاً، وفي جميع الأحوال فإن الاهتمام الواسع بالعولمة من طرف النخب المثقفة في العالم العربي والإسلامي يمكن اعتباره ظاهرة صحية ؛ لأنه يدل على أن جسم الأمة حي، ويستجيب للوخز الثقافي والصدمات الحضارية ؛ ذلك أن هذه الظاهرة جاءت بمؤثرات تطرق كوامن حساسة في جسد الأمة العقدي والثقافي قبل الاقتصادي والاجتماعي، أما درجة هذه الاستجابة ونوعها فتتباين وفقاً لتباين تشخيصنا لهذه الظاهرة ، وتحليل جوهرها ودرجة معرفة أبعادها وآثارها .

المهم هو أننا نحاول في هذه الورقة ليس رفع الصوت بالصراخ والعويل ، أو الإسراف في التهوين والتهويل، وإنما البحث في كيفية استنباط وسائلنا وأدواتنا الخاصة في مواجهة التحدي الذي تفرضه ظاهرة العولمة.

وسوف نسير في هذه الورقة وفقاً للمخطط التالي:

(١) تعريف العولمة.

(٢) معرفة أدواتها وتجلياتها.

(٣) معرفة نتائجها.

(٤) ثم تحليل وتحديد دورنا تجاهها.

(١) ما هي العولمة؟

العولمة : ظاهرة متعددة الأبعاد والجوانب منها الاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية، والاجتماعية، ومنها غير ذلك ، وعليه فكل أحد يتناولها من الجانب الذي يهمه ثقافياً ، أو إعلامياً أو اقتصادياً ، لذلك فهناك العديد من التعريفات والأوصاف التي حاول بها أصحابها تصوير العولمة على حقيقتها، أو الاقتراب منها ، وقد شبههم أحد الباحثين بالعميان الذين يتلمسون جسم الفيل لمحاولة معرفته ، فكل يصف ما وقعت عليه يداه من أجزاء الفيل ، ومن هذه التعريفات القول: بأنها نظام يسعى إلى فرض خططه المالية

والاقتصادية، والتسويقية ، ثم أفكاره ومناهجه ، ثم قيمه وأنماط سلوكه، ليصل في النهاية إلى فرض هيمنته وسيادته[١] .

ويقول بعضهم: إن العولمة المقصود بها الغطاء النظري، أو الفلسفة النظرية لاقتصاد السوق، ولمجموعة الدول الصناعية، والشركات متعددة الجنسيات؛ من أجل فتح أسواق العالم أمام الصناعات الغربية بدعوى المنافسة والإنتاج.

وهناك تعريفات أخرى تركز على جوانب أخرى من العولمة مثل القول بأنها:

مرحلة جديدة تتكثف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي، ويحدث تلاحم غير قابل للفصل بين المحلي والعالمي بروابط ثقافية، واقتصادية، وسياسية، وإنسانية.

أو أنها الرأسمالية فيما بعد مرحلة الإمبريالية، أو هي حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز، وسيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ.

أو أن العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور التلقائي للنظام الرأسمالي ، بل أنها أيضاً دعوة إلى تبني نموذج معين .. ، وهي أيضاً أيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم...[٢].

وهذا التعريف الأخير يثير مسألة مهمة وهي: هل العولمة ظاهرة تلقائية ، أم عملية مقصودة وواعية ؟ حيث حاول البعض الإيحاء بأن الأمر يتعلق بحدث شبيه بالأحداث الطبيعية التي لا قدرة لنا على ردها، والوقوف بوجهها، أي أنها نتيجة حتمية لتطور تكنولوجي واقتصادي ليس بوسعنا إلا الإذعان له.

ويرفض مؤلفا كتاب فخ العولمة هذا الرأي، ويؤكدان بأن التشابكات الاقتصادية ذات الطابع العالمي ليست حدثاً طبيعياً بأي حال من الأحوال ، وإنما هي نتيجة خلقتها سياسة معينة بوعي وإرادة..؛ فالحكومات والبرلمانات هي التي وقعت الاتفاقات، وسنت القوانين التي ألغت الحدود والحواجز التي كانت تحد من تنقل رؤوس الأموال والسلع...[٣].

---

(١) حسنة، عمر عبيد (مقدم الكتاب) ظاهرة العولمة رؤية نقدية، نقلاً عن مجلة المنعطف المغربية، العدد ١٨-١٩، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص:٢١٨ .

(٢) مراد، محمود بركات، ظاهرة العولمة: رؤية نقدية، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، الدوحة، ٢٠٠١م، ص:٢٢-٢٣.

(٣) هانس بيترمارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، ترجمة: عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨، ص:٣٣ .

وهذا هو بالفعل القول الصحيح في العولمة من هذه الناحية، فهي فعل مقصود ومخطط، وهذا الفعل المقصود والمنظم للعولمة تقف وراءه دول ، ومنظمات وشركات ذات أهداف ومصالح خاصة، هي منظمة التجارة العالمية WTO ، والشركات متعددة الجنسية، والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، والولايات المتحدة وغيرها.

وكذلك العولمة بهذا المفهوم لم تأت دفعة واحدة، بل عبر تطورات متوالية ومراحل متلاحقة.

يوجد إذن شبه إجماع على أن العولمة جوهر إيديولوجي؛ لأنها تقوم على تصور معين للعالم يقوم على الحرية الخاصة، والمنافسة والمصالح المادية، وأن تحقيق الربح والمنفعة الحسية هو الهدف الذي يستحق أن تبذل من أجله الجهود ، وتقدم في سبيله كل التضحيات، وهذا كله بعد الانتصار الكاسح للأنموذج اللبرالي، وتفرده بالعالم بعد انتصاره على الأنموذج الاشتراكي، فقد أعطى انهيار دكتاتورية الحزب الواحد في أوربا الشرقية ، هذه العقيدة دفعة قوية منحتها القدرة لتصبح ذات أبعاد عالمية ، وأصبح العمل جارياً على قدم وساق ، وجدية وإصرار على تشييد دكتاتورية السوق العالمية [1].

بعد هذه الجولة مع التعريفات المختلفة يمكن أن نقدم تعريفاً إجمالياً يركز على جانب العولمة الأعظم والأساسي ، وهو الجانب الاقتصادي فنقول: هي التوجه الاقتصادي، الذي يرمي إلى اندماج الأسواق المحلية للدول النامية بدرجة وفعالية أكبر في الأسواق العالمية ؛ وذلك من خلال فتح هذه الأسواق أمام حركة السلع والخدمات ، ورؤوس الأموال والعمل، وباختصار هي التكامل المتزايد للاقتصاديات الوطنية في الأسواق العالمية (Globalization) .

وعلينا أن نلاحظ أن اندماج اقتصاد ما في الاقتصاد العالمي يجعل حجم إنتاجه من السلع والخدمات متوقفاً على قدرته التنافسية ومزاياه النسبية ، وفرصه التصديرية . ومهاراته التسويقية.

---

(١) نفس المرجع، ص:٣٤ .

(٢) أدوات العولمة وتجلياتها :

نقصد بأدوات العولمة هي: الوسائل التي يستخدمها الفاعلون الكبار في فرضها وإخضاع العالم لها، وتتمثل في عدة أشياء أهمها: حرية التجارة ، وحرية تنقل رؤوس الأموال وخصخصة المشروعات والشركات الحكومية، وعزل الدولة وتقليص دورها.

فقد أصبحت أفكار التحرير والليبرالية والخصخصة هي الوسائل الاستراتيجية في السياسة الاقتصادية الأمريكية ، والأوربية التي رفعها المشروع الليبرالي الجديد؛ لتغدو أيديولوجية تتعهد الدول بفرضها...، وصار توسيع حرية التجارة هدفاً بحد ذاته لا يحتاج إلى تفسير. وبالتحرير الكامل لأسواق الصرف الأجنبي، وأسواق رأس المال أحدثت تغييراً جذرياً في النظام الاقتصادي العالمي.

ومن أدوات هذه العولمة وتجلياتها في نفس الوقت ، هيمنة الشركات المتعددة الجنسية والعابرة للقارات. وهناك ما يقرب من أربعين ألف شركة تمتلك مصانع في ما يزيد على ثلاث دول ، وصلت قيمة مبيعات المائة الكبرى منها إلى ما يقرب من ١,٤ بليون دولار في العام الواحد ، وتهيمن الشركات العابرة للقارات على ثلثي التجارة العالمية.

من هنا فإن هذه الشركات قد صارت محور العولمة ، والقوة الدافعة لها بلا انقطاع[١]، ومنذ عام ١٩٩٦ عملت منظمة التجارة العالمية على ضم دول عملاقة كالصين ، وعلى تحرير سوق الاتصالات من احتكار الدولة ، والحد من العوائق الحكومية التي تواجه استثمارات المؤسسات الأجنبية...، وأخذت تخطط للإلغاء التام لكل الرسوم الجمركية على المستوى العالمي ، وطالبت حكومات الدول المشتركة فيها بأن تقوم حتى عام ٢٠٢٠م بالتخلي عن كل الاتفاقيات المحلية ، وجعل العالم برمته منطقة تجارة حرة.

(٣) نتائج العولمة :

إذا كان علينا أن نذكر حسنات الشيء وسيئاته، فإن هناك بعض الحسنات للعولمة ، أو بعض المزايا الإيجابية منها : توفر أنواع السلع بالنسبة للمستهلك ، وتشجيع المنافسة بين المنتجين، وإتاحة الاطلاع على التطورات العلمية والتكنولوجية في مجال الإنتاج.

---

(١) نفس المرجع، ص:٢٠٦ .

ففيما يتعلق بحرية التجارة يستفيد المستهلكون في أنحاء العالم بتخفيض الرسوم الجمركية، وتشجيع المنافسة بين المنتجين ؛ حيث تنخفض أسعار السلع، وتستفيد الدول ذات القدرة التصديرية ، والكفاية الإنتاجية في ترويج منتجاتها ؛ وذلك مقابل ضعف قدرة الدول النامية على التصدير ، وضعف قدرتها التنافسية، كما أن حرية التجارة وحرية انتقال رأس المال من المفترض أن تنتقل معها المعارف والقدرة والابتكار، والتطور التكنولوجي مما يتيح الفرصة لدول العالم النامي أن تستفيد في مجال التصنيع ، والإنتاج الزراعي ، وتطورات صناعة الاتصال ، وقيام الاقتصاد القائم على المعرفة.

وفي مقابل هذه الإيجابيات المفترضة ، فإن سلبيات العولمة هي الطاغية بالنسبة لنا وللعالم النامي عموما ، وأهمها: انكماش الدولة ، واتساع البطالة العالمية، والتهميش الاجتماعي والتغريب الثقافي للدول ، والمجتمعات الضعيفة.

ففيما يتعلق بانكماش الدولة يترافق الاندماج العالمي، مع انتشار نظرية اقتصادية يوصي بها عدد كبير من المستشارين الاقتصاديين، وفي مقدمتهم الاقتصادي الأمريكي، ومستشار الرئيس الأمريكي مؤسس النظرية النقدية «ملتون فريدمان» ، ويقدمونها للمسئولين عن إدارة دفة السياسة الاقتصادية على أنها النهج الصحيح ، والعلاج الناجع لمشاكل العالم الاقتصادية. والمقولة الأساسية للنظرية هي ببساطة: «أن ما يفرزه السوق هو صالح، أما تدخل الدولة فهو طالح».

وقد اتخذت الغالبية العظمى من الحكومات الغربية في الثمانينات من القرن الماضي هذه النظرية اللبرالية مناراً تهتدي به في سياساتها.

وحسبما يتوقع بعض الاقتصاديين المختصين بشؤون المستقبل ستكون السلطة في أيدي مجموعة متحدة من رجالات أعمال دوليين، وحكومات مدن همها الأول هو تعزيز القوة التنافسية لتلك المشاريع، والمؤسسات العالمية المستوطنة في مدنها[1]، وأما بخصوص الإفراز الآخر لظاهرة العولمة وهو اتساع البطالة العالمية، فقد تسببت تطورات العولمة في القضاء على القواعد التي قامت عليها الاقتصاديات الوطنية في الماضي، وهي الحماية والدعم ، وأدت العولمة إلى أن تنمو الإنتاجية بمعدلات أسرع من معدلات نمو الناتج القومي الإجمالي، ونتيجة هذا ما سمي (Jobless Growth) أي أن النمو لا يفضي إلى زيادة في

---

(١) نفس المرجع، ص:٥٤ .

فرص العمل، ومن ناحية أخرى فإن هذا غير من توازن القوى بين رأس المال والعمل على نحو جذري ؛ فالقوى العاملة تواجه شركات دولية تستغل فكرة الانتقال إلى خارج الحدود؛ للتخلص من كل ما يواجهها من مطالب.

فالقطاعات المنتجة للسلع كثيفة العمل التي تشغل كثيراً من الأيدي العاملة، واجهت مشروعات منافسة من بلدان الأيدي العاملة الرخيصة، فأصبح على هذه الصناعات إما التحول إلى صناعات كثيفة رأس المال ، أو الانتقال إلى العالم الخارجي حيث العمل الرخيص.

إن التخلي عن الإنتاج الواسع للسلع الكثيفة العمل والتحول نحو الإنتاج المعتمد على التقنية العالية ، وسع من نطاق العاطلين عن العمل بنسب عالية على المستوى العالمي.

وكما يقول مؤلفا كتاب فخ العولمة : إنَّ المنظرين السذج والسياسيين قصيري النظر فقط هم الذين يعتقدون أنه بإمكان المرء أن يسرح سنوياً ملايين من العاملين من عملهم، ويحجب عنهم وسائل التكافل الاجتماعي من دون أن يدفع في يوم من الأيام ثمن هذه السياسة[1].

إذن فالعولمة كظاهرة في حد ذاتها عملية مؤداها تحطيم قدرات العالم الثالث على النمو والإنتاج، مضيفة إلى فقره فقراً وإلى ضعفه ضعفاً... ويدعم هذا الرأي المفكر الفرنسي «جورج لابيكا» الذي لا يرى في العولمة سوى حركة تدعمها الولايات المتحدة ، والشركات المتعددة الجنسيات ، هدفها سحق مواطني العالم بأسره، وخلق نسخ مكررة واستهلاكية ذات نمط استهلاكي يغذي الحركة الرأسمالية[2]، والنتيجة أن عدد المهمشين يزداد بالتدريج وبشكل متسارع ، وتزيد معه قدرة الرأسمالية على التخلص من أعداد كبيرة من البشر كل عام.

ومن النتائج السيئة للعولمة أيضاً اضطراب أسواق رأس المال العالمية، وهو النتيجة المنطقية للسياسة التي اتبعتها حكومات الدول الصناعية الكبرى؛ فانطلاقاً من النظرية

---

(١) نفس المرجع،ص:٣٦ .

(٢) مراد،بركات محمد.ظاهرة العولمة-رؤية نقدية، مرجع سابق،ص:١١٧ نقلاً عن مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٢، أغسطس ١٩٩٧.

الاقتصادية الداعية إلى ضرورة تحرير الأسواق من القيود والحدود ،ألغت هذه الحكومات منذ السبعينيات من القرن الماضي وعلى نحو مستمر كل الضوابط التي كانت قد مكنتها في السابق من التحكم في تنقلات النقود ، ورؤوس الأموال والسيطرة عليها دولياً.

فهناك سلبيات تترتب على انتقال رؤوس الأموال ، وخاصة بالسرعة والأحجام الهائلة الحالية. فبالنسبة للدول المتلقية تفقد حريتها في السيطرة على فترة بقاء رأس المال ، وعلى تدوير أرباحها داخل الاقتصاديات النامية ، وكذلك سيطرة أصحاب رؤوس الأموال فيما يتعلق بتوظيف العمالة ، واختيار نوعيات المشروعات الممولة.

ومما شاهدناه من سلبيات الانتقال الكبير والمفاجئ لرأس المال ، ما حدث في دول جنوب شرق آسيا ، عندما لجأ بعض المستثمرين الكبار إلى سحب استثماراتهم فجأة ؛ حيث باعوا أسهمهم في الأسواق المالية ، فحدث انخفاض حاد ، ومفاجئ في أسعار هذه الأوراق، ثم اضطراب هذه الأسواق ، وسحب رأس المال الأجنبي المستثمر من جهة أخرى ؛ إذا كان بأحجام كبيرة يؤدي إلى انهيار قيمة عملات هذه الدول؛ لأن السحب معناه عرض العملة المحلية والطلب على العملات الأجنبية بأحجام كبيرة، وهو غطاء هذه العملات، فهو يؤدي إلى انخفاض سعر الصرف الفعلي للعملات الوطنية بشكل حاد.

وهكذا أصبح هذا الجهاز الاقتصادي المستقل بذاته: سوق المال كما لو كان حدثاً طبيعياً لا قدرة للبشر ، ولا لعلماء الاقتصاد والساسة على مواجهته.

ويسمي الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» المضاربين في هذا السوق دون مواربة «وباء الإيدز في الاقتصاد العالمي»[١].

أخيراً فإن من نتائج موجات العولمة التغريب الثقافي حيث تجد الشعوب نفسها في حالة تغريب مع ثقافتها الوطنية الممتدة لأعماق بعيدة في التأريخ ؛ فالفرنسيون يتحدثون عن (موت الثقافة) ويقصدون بها عملية «التسليع» التي تعم العالم ؛ لكي تطال معاً العقول، والأجساد والكلمات والأشياء[٢].

ولا ننسى أن العولمة أيديولوجيا تهدف إلى إلغاء الخصوصيات ، وبسط التنميط الثقافي وإبعاد الحياة عن الدين ، وتشكيلها بعيداً عنه.

---

(١) هانس بيترمارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، مرجع سابق، ص:٩٨ .

(٢) مراد،بركات محمد.ظاهرة العولمة-رؤية نقدية، مرجع سابق ،ص:٣٠ .

وكأن المقصود أن ينتهي صراع الأفكار ؛ لتخلو الساحة للمنافع والمصالح المادية فقط. ويتأسس هذا الاعتقاد على فكرة مفادها أن العولمة وضعت حداً لعصر صراع الأفكار والمعتقدات، وجعلت الاعتبارات الاقتصادية هي التي تتحكم في باقي جوانب الحياة الأخرى. وبناء على هذا فإن العولمة بما هي توجه كوني يتجاوز الخصوصيات المحلية والقومية والدينية والثقافية، تسعى إلى توحيد كل مواطني العالم من خلال أساليب الإنتاج، وقيم الاستهلاك المادي...، ومن ثم فإن التمييز بين الناس لن يكون بعد اليوم على أساس الملة ، أو السياسة ، أو الثقافة ، أو الانتماء القومي، أو العرقي، وإنما على أساس درجة القدرة على الانخراط في موجة العولمة، وبهذا فهي توجه ذو طبيعة تدميرية للخصوصيات الذاتية والمحلية [1].

الموقف من العولمة : ماذا نعمل؟

ربما نطرح في بداية هذه الجزئية سؤالاً هو لماذا نخاف أصلاً من العولمة؟ وما هي دواعي هذا الخوف؟

أرى بأن خوفنا من العولمة يرجع ـ إضافة إلى الفكرة الأساسية وهي: أن سلبياتها بالنسبة لنا أكثر من إيجابياتها ـ إلى عدة أمور منها ما يعود إلى ظاهرة العولمة نفسها ، ومنها ما يعود إلينا نحن.

فما يعود إلى العولمة؟

* إنها ليست حركة عفوية وتلقائية وغير مقصودة ، وإنما هي ظاهرة تجري بحركة واعية ومخططة ، تقف وراءها دول ومنظمات لها طموحات وأهداف محددة.
* إننا لا نعرف بالضبط الوقت الذي ستصل فيه إلى منتهاها ؛ لتصبح نمطاً استاتيكياً مستقراً، وبالتالي يمكن التعامل معها؛ فهي اتجاه متنام ولا نعرف الشكل النهائي الذي سوف تصل إليه.
* الشعور العالمي بأنها أصبحت أمراً واقعاً لا مفر منه ولا محيص.

---

(١) الحسين عصمة، مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي العدد ٢٩٢، سبتمبر٢٠٠٥م، ص:٥٠ .

* ليست ذات بعد واحد وهو البعد التجاري أو الاقتصادي، وبالتالي يمكن التغلب على نتائجه السلبية؛ فالعولمة مصطلح شاع بسرعة، تفوق شروط تشكيل المعنى وتأسيس المرجعية التي يحيل إليها في الواقع؛ فهي لفظ مشحون بعديد المعاني ؛ لأنه ما زال يبحث عن مدلول مادي واضح ؛ فهو يعني الآن كل شيء ولا يعني شيئاً بعينه[1]، وأخطر ما فيها هو الاتجاه نحو التنميط الثقافي والتهميش الاجتماعي.

* إنها تهدد كيان الدولة وقد تعود الناس على الدولة، وخاصة في العالم النامي فهي تعلمهم وتعالجهم ، وتحميهم وتحمي اقتصادهم.

أما دواعي الخوف من العولمة التي تعود إلينا ذاتنا فهي:

* مركب النقص وضعف الشعور بالثقة ، الذي يرجع بدوره إلى تراكمات تاريخية ، وثقافية وسياسية واجتماعية.

* إننا لم ننظم جهودنا ، وإمكاناتنا في رد فعل عملي مخطط ومدروس، وإنما معظم ما نقوم به هو عقد المؤتمرات والندوات والنشر والكتابة.

والحقيقة أنه لو رجعنا إلى إمكاناتنا الحضارية والثقافية والعلمية لوجدنا أننا لا نستطيع أن ندفع شرور العولمة عنا فقط ، وإنما أيضاً يمكننا الاستفادة منها ؛ بل والمساهمة فيها ، وعليه فإن رد فعلنا تجاه تحدي العولمة يمكن ترتيبه في ثلاث درجات على الترتيب منطقياً وواقعياً كما يلي:

كيف يمكن أن ندفع شرورها ؟ و كيف يمكن أن نستفيد منها ؟ وكيف يمكن أن نسهم فيها؟

أولاً : كيف يمكن أن ندفع شرور العولمة ؟

نحن إذا رجعنا إلى مخزوننا الحضاري والثقافي، فإننا نجد أنفسنا لسنا بحاجة إلى مناعة أخلاقية، أو حضارية ضد العولمة، بل الذي نحتاجه فعلاً هو المناعة الإبداعية والعلمية. فالاستعمار أو العولمة تجد مكاناً ورسوخاً في البيئة الضعيفة، التي لديها القابلية لذلك كما قال مالك بن نبي، وعملية النهوض واسترجاع الحيوية الحضارية لا يمكن أن

---

(١) مراد، بركات محمد. ظاهرة العولمة، مرجع سابق، ص:٦٧ .

تحصل بشكل تلقائي، فهناك سنن ونواميس إلهية تنسحب على جميع الأمم والشعوب ، وتتمثل هذه السنن في اكتساب ناصية العلم والمعرفة ، والعمل الدءوب والمتواصل لاكتشاف وتسخير ما أودعه الله لنا في الكون.

وإذا كنا نريد أن ندفع شرور العولمة بالدرجة الأولى ، فإننا يجب أن نعرف الأدوات التي تقوم عليها فنكسرها ، من خلال تبني حلول استراتيجية وتكتيكية تقوم على مرتكزاتنا الخاصة في الفلسفة الاقتصادية ، وأدواتنا الخاصة في سياستنا الاقتصادية ، ومثلنا في هذه المرحلة من الدفاع كمثل استعمال كاسر الأمواج التي توضع عند الموانئ وشواطئ المدن.

ويمكن اختصار أدوات العولمة التي تعتمد عليها في اختراق المجتمعات والدول في الآتي:

١. تأجيج شهوة الاستهلاك ، ونشر الثقافة الاستهلاكية.

٢. استغلال عدم التكافؤ في القدرات الإنتاجية ، والمعرفية بين دولها والدول الأخرى.

٣. تسخير الأدوات القانونية والاتفاقيات.

٤. العزف على وتر الحقوق والحريات.

ويكون ردنا على ذلك وفقاً لمبدأ «كاسر الأمواج» الذي قلناه هو الآتي:

١. ضبط شهواتنا الاستهلاكية، وتنمية قدراتنا الادخارية.

٢. التضحيات وبناء الدوافع الوطنية ، و «العصبية الاقتصادية» استعارة من ابن خلدون، بحيث نلجأ إلى المنتجات الوطنية والعربية والإسلامية.

٣. مضاعفة الجهود في تدريب وتعليم الكوادر البشرية ؛ من أجل رفع الإنتاجية، وهنا أيضاً على مؤسسات الأعمال أن تسهم في التضحية ، وتخصيص جزء من أرباحها للتدريب على رأس العمل.

٤. يقع على مسؤولية قواعد و نظم المعلومات سواء الحكومية أو الخاصة ، نشر البيانات الدقيقة ، وتحديثها عن السلع والخدمات ؛ لبيان ما هو أجنبي وما هو محلي أو عربي أو إسلامي.

٥. تشجيع أدوات التمويل الديناميكية ، التي تنبثق من بيئتنا وتنبني على قناعاتنا، ومعتقداتنا؛ لتشجيع الادخار والاستثمار ، والعمل على إعادة تدوير المدخرات، بحيث تقوم على الدراسات الرصينة ، والتقديرات الموضوعية ، وعلى المحاسبة والمسؤولية والعدالة.

٦. مواجهة حرية الأسواق العالمية بحريات اقتصادية أوسع وأعمق فيما بين الدول العربية إقليمياً ،وعربياً ، وإسلامياً وذلك بكسر جميع أنواع العوائق الاقتصادية ، والإدارية.

٧. التغلب على التناقضات الاجتماعية والثقافية بجميع أشكالها ، وعلى المصالح الآنية الضيقة بين الطبقات والفئات ، والدول الإقليمية.

٨. سد جميع الثغرات والعورات الاجتماعية المتعلقة بالحقوق والمسؤوليات ، والفقر والأمية.

و كما نرى هذه الأدوات تنبع من داخلنا، ولا تعتمد على استهلاك وتداول قيم وأدوات الآخرين. فقد أدى الابتعاد عن روح الدين وحقائقه الواضحة إلى وجود أجيال تهتم بالإسلام المظهري ، بينما هي في الواقع تعيش الارتباك والتردد في مجتمعاتها، وهو ما ساهم في المبالغة في تصوير قوة الآخرين ، الأمر الذي سهل عملية اختراق جسد الأمة.

ثانياً: كيف يمكن أن نستفيد من العولمة؟

لقد رأينا أن ظاهرة العولمة تحمل بعضاً من الفرص الإيجابية فعلينا أن نعظم استفادتنا منها ، ومن ذلك ما يراه أحد المفكرين بحق من أن هذه العولمة لا تخرج عن كونها إحدى صور المغالبة الحضارية ، أو إحدى سنن المدافعة الحضارية[1]، وعليه فإن الغالب في هذه المدافعة هو من يملك مقومات الصمود والتحدي ، ويعرف كيف يوظف إمكاناته في استمرار هذا الصمود ، ويرى كذلك بأن العولمة يمكن أن تعتبر من بعض الوجوه محرضاً حضارياً ومنبهاً للحماية الثقافية ، والتشبث بالذات ، وهذا يعني أن العولمة شيء إيجابي من هذه الناحية؛ لأنها تستفزنا وتستثيرنا ؛ لكي ننظر إلى أنفسنا فنعرف نقاط القوة والضعف فينا، فندعم جوانب القوة ونعالج نقاط الضعف ، ومن المؤكد أن ذلك سوف يهدينا إلى ابتعاث طاقاتنا الكامنة، واستنفار مخزوناتنا الثقافية ؛ لتجديدها وإزالة غبار التخلف الذي ران عليها.

(١) حسنة، عمر عبيد. ظاهرة العولمة (مقدم الكتاب)، مرجع سابق، ص: ٢٧ .

ومن ذلك أن العولمة تكسب الوعي الاجتماعي قدرة ودافعاً ؛ لمحاجة بنى سلطوية جاثمة تاريخياً ، ومساءلة أطر مرجعية قائمة ، فليس ثمة شيء من وضع البشر معطى مرة واحدة وإلى الأبد معرفياً وثقافياً ومنطقياً[(١)].

كما أن علينا أن نحلل نسيج وظواهر العولمة ، وأدواتها إلى عناصرها وعواملها ؛ فالعولمة لا تدخل إلينا مع الشمس والهواء ، وإنما تأتي عبر اتفاقيات وعقود تبرم بين مؤسسات وحكومات، وتتحرك من خلال إجراءات وسياسات اقتصادية ، واجتماعية وإدارية تتخذها الدول داخل حدودها ، وفيما ينظم العلاقات الخارجية بينها وبين الدول الأخرى.

وتحكم الشريعة الإسلامية على الحوادث والتصرفات بالجواز أو عدم الجواز بالنص أو الإجماع أو القياس أو الاجتهاد ، فعندما لا يوجد النص المباشر فإن المجتهد يلجأ إلى نصوص الشريعة العامة ومبادئها وقواعدها الكلية ، وإلى قاعدة المصلحة المرسلة، وهي عبارة عن «وصف مناسب ترتبت عليه مصلحة للعباد ، واندفعت به عنهم مفسدة، لكن الشارع لم يعتبر ذلك الوصف بعينه ولا بجنسه في شيء من الأحكام ، ولم يعلم إلغاء له، وبذلك يسمى مرسلا[(٢)]..... وعلماؤنا يقبلون هذا النوع من المناسب ، ويعللون به لما دل عليه مجملاً ، أي وإن لم يدل على اعتباره بعينه أو بجنسه ، فإن الأدلة الشرعية دالة على اعتبار المصالح مطلقاً كما في قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾..... وبما أن المقاصد الشرعية اعتبرت المصالح جملة وتفصيلاً ؛ فينبغي إلحاق ما لم يعلم اعتباره بما علم اعتباره لعلمنا بمراعاة الأصلحية منه تعالى[(٣)].

وفي ضوء ذلك يمكن تنظيم كل التصرفات ، والاتفاقيات، والعقود وإدخال الشروط المناسبة التي تجلب المنافع للأمة أو تدفع عنها المضار.

أما فيما يتعلق بالآثار الكلية لتفاعلات العولمة على اقتصاديات العالم الإسلامي من خلال إجراءات الحكومات وسياساتها ، وبسط سلطتها على إقليمها ؛ لرعاية وحماية مصالح مواطنيها ، وصناعاتها فإن هذه الحكومات تستطيع أن تحتفظ بهامش من المناورة مع مقتضيات العولمة تحقق من خلالها بعض المزايا والحقوق ، وحرية الحركة.

---

(١) مراد، بركات محمد، ظاهرة العولمة، مرجع سابق، ص:١٢٩ .

(٢) السالمي، عبد الله بن حميد، طلعة الشمس، ج٢، ص:١٨٥ .

(٣) نفسه، ص:١٤٣ .

وهنا يجب أن نؤكد أن النظرية الاقتصادية في الإسلام تدعم مبدأ الحرية، حرية انتقال الأفراد والتجارة ، وحرية المستثمرين في نقل رؤوس أموالهم واستثماراتهم ، وأرباحهم وحرية الحكومات في التصرف في ممتلكاتها بيعاً وإيجاراً، ولكن ذلك ينبغي أن يتم في ضوء تحقيق المصالح المتوازنة لجميع الأطراف.

والنظرية الاقتصادية في الإسلام تقر بقانون العرض والطلب ، ولكن في ظل مفهوم مغاير للحرية الاقتصادية المطلقة ، حرية مقيدة بضوابط معينة : مبدأ الحلال والحرام، ومبدأ لا ضرر ولا ضرار، ومبدأ التكافل الاجتماعي. وفي ظل المبدأ الأخير تكون الحرية موضوعية وليست شكلية ، حيث يمارسها الفرد في ظل ضمانات تقدمها الزكاة والنفقات الواجبة ومسؤولية الدولة... وهكذا فإن آلية السوق كما تقدمها النظرية الاقتصادية في الإسلام آلية تعمل في حدود بيئة مواتية ومساحة آمنة.

ثالثاً: كيف يمكن أن نسهم في العولمة؟

يجب أن نتعامل مع العولمة بحكمة وعقلانية ، وثقة عالية في النفس حتى نتمكن من الإفادة من معطياتها ، وتوظيف آلياتها وقنواتها وتقنياتها ؛ لتوصيل خطابنا للعالم ، حتى لا تبقى العولمة ذات اتجاه واحد ، وبعبارة أخرى يجب ألا نرضى بوضع الاستقبال فقط، وإنما يجب أن ننتقل إلى حالة الأخذ والعطاء ، والإرسال والاستقبال ؛ لأن في ذلك مصلحة لنا وللآخرين ، وأهم ما نملك على الإطلاق هو وثيقة الخطاب الإلهي الخالد للعالمين (القرآن)، القادر على العطاء والإنتاج في كل زمان ومكان ، كما ثبت عبر مسيرة الحضارة الإسلامية.

ومما يؤهل قيمنا للعالمية تجربتها التاريخية ، وإسهاماتها البشرية في بناء الحضارة حتى أصبح يصعب تلوينها بغير الإسلام ، كما يملك المسلمون اليوم الإمكان الحضاري للعالمية سواء على المستوى المادي المتمثل في البترول كسلعة عالمية، والأسواق الكبيرة، والممرات المائية ، أو على المستوى البشري المتمثل في الرصيد الكبير من السواعد، والعقول التي تقيم في مجتمعات العولمة ، وتحتل شتى التخصصات وشعب المعرفة حتى أصبحت جزءاً من حركتها.

وإذا كانت العولمة تعبر عن رغبة الشمال في السيطرة على الجنوب باعتبارها الأداة المعاصرة للرأسمالية من أجل السيطرة ، فإن الحل كما يراه أحد المفكرين يتمثل في مواجهة

العولمة على صعيد عالمي ، من خلال السعي المشترك إلى تكوين قطب ثاني خارج المركز الغربي ، من خلال التأكيد على أهمية المسألة الثقافية العربية ودورها في حماية الأمة[١].

إن القيم الإسلامية بما تحمل من خصائص ، وصفات متميزة مؤهلة للانتشار، ومؤهلة للإنقاذ، ومؤهلة لأداء الدور الغائب .

لقد اتجه الإسلام صوب العالمية منذ الخطوات الأولى ، وقدم رسالته إلى الإنسان أينما كان بكل مكوناته المادية والروحية ، وحاجاته الدنيوية والأخروية ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[٢] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٣] .

و من المعروف في التاريخ الحضاري الإنساني أن رسالة الإسلام تأهلت وانطلقت إلى العالمية بكل اقتدار ورحمة ؛ لأن القيم والمعايير التي تضبط مسيرتها وتحكم وجهتها ، وتحدد أهدافها مستمدة من مصدر خارج عن وضع الإنسان...[٤].

إن العالم الإسلامي كما هو معروف لديه إمكانات ومؤهلات كثيرة ومتنوعة ، من شأنها لو استثمرت على النحو الأمثل أن تجعل منه أكبر قوة في العالم بدون منازع ، ولا يتعلق الأمر هنا بالمؤهلات المادية فحسب، رغم أهميتها (أكبر خزان للثروات الطبيعية، والموقع الجغرافي المتاز) ، ولكن أيضاً بالأساس بالثروة البشرية باعتبارها خزان الطاقة الذهنية، أو المعرفة العلمية التي أصبحت تشكل أهم مصدر للثروة على الإطلاق.

إن انفجار عصر المعلوماتية ، وثورة الاتصال الذي يعتبر العلم والمعرفة قوامه الخاص يؤكد أن الإنسان بما أودعه الله سبحانه وتعالى فيه من طاقات جبارة ، هو المصدر الحقيقي لكل ثروة ، وعالمنا الإسلامي الذي يعرف نمواً ديموغرافياً يحسد عليه يزخر بالطاقات البشرية الكفيلة بالنهوض به.

وعلى الرغم من أن أمة الإسلام تعيش في عمومها حالة من التمزق السياسي ، والتخلف الاقتصادي تترجم بصدق حالة الغثاء والوهن التي تحدث عنها الرسول ـ ﷺ ـ إلا أنها ما تزال تمتلك كل مقومات النهوض الحضاري ، وهي قادرة إذا قيض الله لها من يوفر لها الشروط الضرورية لذلك.

---

(١) حسن حنفي وجلال العظم، ما العولمة؟ "سلسلة حوارات لقرن جديد" ، دار الفكر، دمشق،١٩٩٩ .
(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨ .
(٣) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .
(٤) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص: ٥١ .

ومقومات النهوض هذه لا تقتصر فقط على المقدرات المادية والبشرية المشار إليها سلفاً على أهميتها، ولكن أيضاً بالأساس تتمثل في امتلاكها لمشروع حضاري متكامل برهن على فاعليته وخصوصية أدائه خلال قرون عديدة[١].

ويؤكد مفكرو الغرب أنه : في هذا الجزء من العالم ، سيكون الإسلام بسبب تأييده المطلق للمقهورين والمظلومين أكثر جاذبية ، فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح»[٢].

ويعترفون أن أنموذج الحضارة الذي ابتكرته أوربا فيما مضى لم يعد صالحاً لبناء المستقبل، فما بشر به الرئيس الأمريكي هاري ترومان فقراء العالم في عام ١٩٤٩ بضرورة رفع المستوى المعيشي على نحو جوهري لكل أبناء الأقطار المتخلفة ، وذلك عن طريق «زيادة الإنتاج الصناعي» أمر لن يتحقق الآن على وجه الخصوص، أي في هذا الزمن الذي صارت فيه مليارات البشر الموحدة تلفزيونياً تتطلع إلى تحقيق تطور يقتفي خطى النموذج الغربي، تخلى أولئك الذين كانوا يدعون صلاحية هذا الأنموذج عن دعواهم، فهؤلاء لم يعودوا قادرين ولا حتى في بلدانهم ذاتها- أعني في الولايات المتحدة وأوربا – على الوفاء بما تعهدوا به، ولم يعودوا قادرين على التحكم في التفاوت الاجتماعي المتزايد[٣].

ويقوم الأنموذج الذي يقدمه مشروعنا الحضاري على جملة من المرتكزات، أهمها في سياق بحثنا هذا ما يلي:

١. مركزية الإنسان وبناء كيانه، وأنه يحمل عقيدة خاصة عالمية، وإنسانية، وليست مادية أو عنصرية.

٢. أن غاية الإنسان في الأساس ليست غايات استهلاكية، وإنما غايات حضارية ذات جوهر روحي أكثر مما هو مادي.

٣. إن تراكم الأرباح والماديات ليست هي غاية، وإنما الغاية سعادة الإنسان.

وعليه فإن حرية الأسواق المطلقة غير مسلم بها ؛ بل الحرية المنضبطة بقواعد العدالة، وتكافؤ الفرص ، والدليل على ذلك نستمده من قواعد التعامل الشرعية المتمثلة

---

(١) الحسين عصمة، مجلة الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص: ٥٢ .

(٢) هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة ، مرجع سابق ، ص: ٦٤ .

(٣) نفس المرجع، ص: ٦٩ .

في تحريم الاحتكار ، وتحريم المنافسة الضارة المدمرة ، وتحريم الاستغلال ، وكافة أنواع الكسب غير المشروع.

٤. **بناء طاقات الإنتاج يقوم أساساً على الارتقاء بقدرات الإنسان الخلاقة ، والإبداعية،** من خلال نظام إنتاج ينمي الحوافز ، ويقوم على أساس المشاركة وليس الاستغلال ، والمشاركة هنا ليست المشاركة في الربح فقط ، وعائد العملية الإنتاجية ، وإنما المشاركة في عملية التفكير واتخاذ القرارات ، والمشاركة في عمليات البحث عن الحلول.

ولا يعني أننا في الوقت الراهن مجرد مستقبلين وغير فاعلين في المجتمع الدولي ، فهناك حضور ودور للمشروع الإسلامي بدأ يأخذ طريقه في المجتمعات الغربية ، وهي مجتمعات تصدير العولمة، ويتمثل ذلك في المستويين العلمي والتطبيقي.

المستوى العلمي:

١. الكفاءات التدريسية في الجامعات ، ومراكز البحوث في الجامعات الأمريكية والأوربية ، وتنتمي هذه الكفاءات إلى عدة دول عربية وإسلامية ، وتحتل مواقع مرموقة في الهيكل الأكاديمي ، وقامت هذه الجامعات بفتح أقسام للدراسات العربية والإسلامية.

٢. المراكز البحثية والمؤسسات العلمية المستقلة، مثل المؤسسة الإسلامية في بريطانيا Islamic Foundation ، فقد أنشأ المسلمون هناك مراكزَ للبحوث والدراسات العربية، ودراسات الشرق الأوسط ، ومؤسسات علمية تقوم بعقد الندوات والمؤتمرات ، وعمل الورش التدريبية لجانب من العلوم الإسلامية، والحقول المرتبطة بها ، مثل العلوم المصرفية.

٣. تأليف الكتب ونشرها وتدريسها في مجال الاقتصاد الإسلامي وغيره من العلوم ، وقد قام بتأليف هذه الكتب ليس علماء مسلمون فقط ، وإنما علماء وأساتذة من أوروبا وأمريكا ، مما يدل على اقتناعهم بما لدينا من أفكار وبدائل كثيرة ، وحلول لأزمات العالم المعاصرة.

المستوى التطبيقي:

وهنا نشير إلى انتشار المصارف الإسلامية ، وقيام المصارف الغربية نفسها بفتح فروع تعمل وفقاً للنظرية الإسلامية، وأصبح العالم يبحث ويسأل عن مفهوم هذه النظرية، وماذا

يمكن أن تقدمه في مجال التمويل كنظرية بديلة في حركة الاقتصاد العالمي، وفي غير هذا المجال هناك العديد من العلماء والخبراء العرب والمسلمين في مؤسسات الصناعة الغربية مثل مايكروسوفت وغيرها.

وإذا رجعنا إلى مخزوننا الفقهي والثقافي لوجدنا أننا نستطيع توظيف أدوات أصيلة تنبع من ثوابتنا، وتمكننا من ابتكار آليات اقتصادية وإدارية وتنظيمية متطورة نحشد فيها إمكاناتنا ومواردنا الاقتصادية، وقدراتنا العقلية والبشرية، وخلق كيان اقتصادي اجتماعي ثقافي متماسك، قادر على التحدي المعاصر، ويتمتع بالمناعة الحضارية.

ويتمثل ذلك في الكيان الوليد ألا وهو مؤسسات التمويل الإسلامية، وما أنشأته من مؤسسات وهيئات معروفة، تعمل من أجل معالجة المشاكل التنظيمية، والمحاسبية، والقانونية، التي تظهر أثناء مسيرة هذا النظام.

ولقد أخذ هذا النظام التمويلي ينتشر، ويتمدد داخل البلاد الإسلامية وخارجها، مقدماً خياراً وبديلاً آخر للبشرية، مقابل الأنموذج القائم على صيغة واحدة هي صيغة الفائدة الاستغلالية.

وميزة نظامنا التمويلي هذا تتمثل في عدة جوانب منها:

١. **أنه يقوم على المشاركة** حيث يتشكل من مجموعة من صيغ التمويل فحواها المشاركة والعدل، وهي ليست مشاركة في الربح والعائد فقط، وإنما يتبعها ويستلزمها المشاركة في صنع القرار، والبحث عن الحلول.

٢. **أنه يقوم على قناعة الجماهير وحماسهم** وبالتالي فمن هذه الناحية يستند إلى عمق جماهيري، ويخلق علاقات ترابط متينة بين المراكز المالية، وكافة فئات المجتمع.

٣. **أنه يمثل مرحلة آخذة في التطور** بتطوير كوادر بشرية، وعقول مالية، واقتصادية مفكرة تجمع بين المعرفة بالنظريات الاقتصادية، وآليات النظام الاقتصادي الدولي من جهة، وبين ثوابت وأدوات اللأنموذج الإسلامي، وبالتالي قادرة على التعامل مع المستوى المحلي والعالمي.

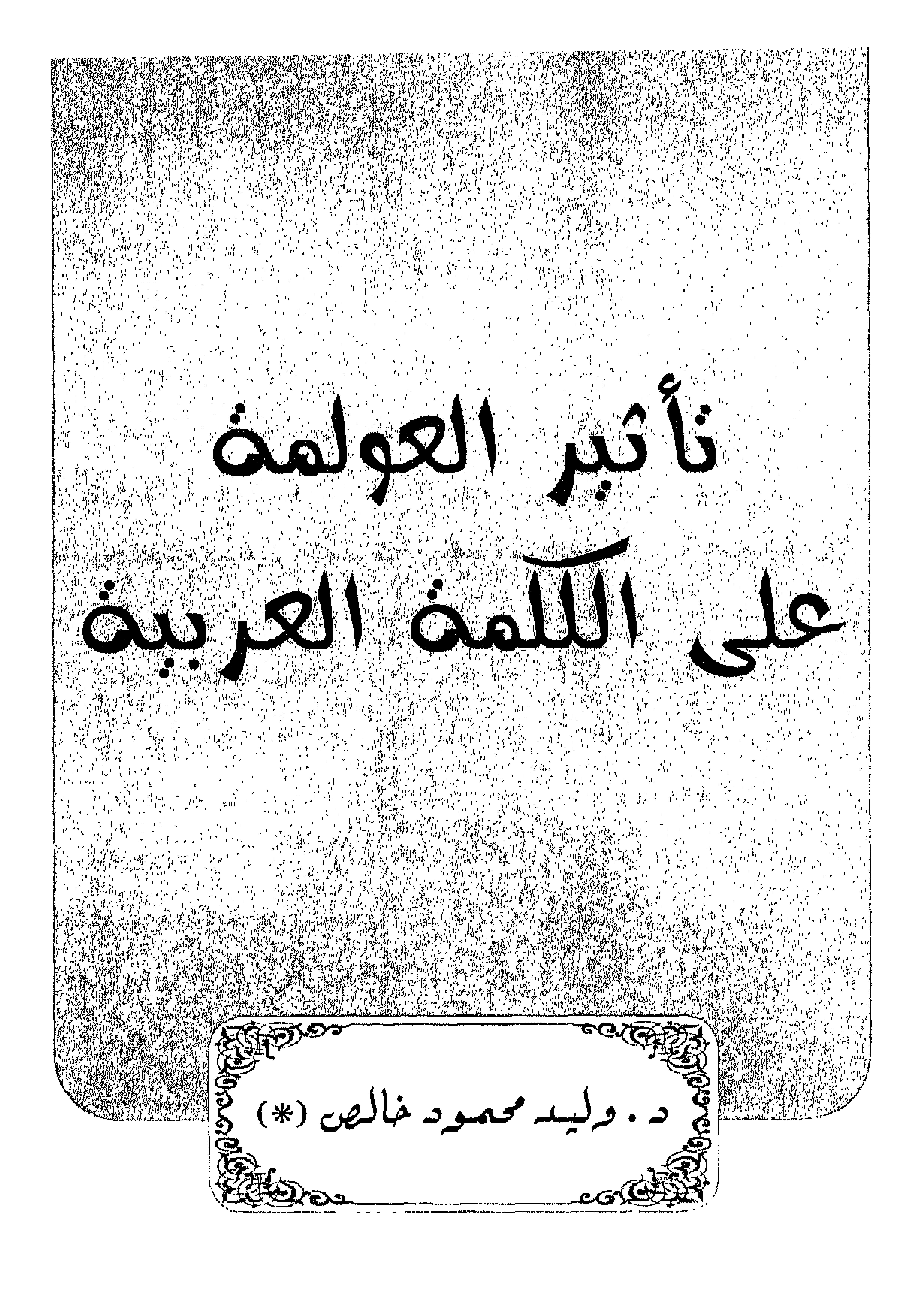
كما أن مخزوننا الفقهي والتشريعي يمدنا بأداة أخرى تتكامل مع النظام السابق، هو مؤسسة الزكاة، وإذا كان الأول جوهره تمويل تجاري بمعنى أنه مقصوده الربح، فإن الزكاة فحواها تمويل اجتماعي؛ لمعالجة مواطن الخلل في التوازن الاجتماعي.

فهي وسيلة الأمة في سد العورات الاجتماعية، التي أفرزتها التطورات الاقتصادية عبر عقود من التغير الاقتصادي والاجتماعي في أقطار ومجتمعات العالم الإسلامي ، الذي كان يتم تحت تنظير اقتصادي مستورد لا يستمد شرعيته من صميم ثقافة المجتمع وحضارته. لقد خلقت النظريات والنظم المجلوبة من الغرب والشرق تشوهات اقتصادية ، وأورام اجتماعية خبيثة أوهنت جسد الأمة، وجعلتها صيداً سهلاً لمخالب النظم الأخرى البائدة والمتجددة.

ولا يمكن أن يقف أحد ويجادل بأن نظام الزكاة نظام قديم ، ولا يستجيب للتطورات الاقتصادية المعاصرة ، وأنواع الأنشطة والمؤسسات، ولشركات وأشكال الأعمال الحديثة، ومع التطورات الاجتماعية الحديثة ، فقد قامت جهود من مؤسسات وحكومات إسلامية في المنطقة بتطوير نظام الزكاة ، وبيان كيفية فرضه على جميع أنواع المؤسسات والشركات، وعقدت لذلك عدة مؤتمرات وندوات علمية ، اشترك فيها نخبة ممتازة من علماء الأمة في الشريعة ، والاقتصاد والمحاسبة والقانون ، وتم التوصل بعد كل ذلك إلى نظام متكامل لكيفية حساب الزكاة وتوزيعها ، ولكن بسبب تردد زعماء الأمة وتخوفهم تم تجميد ما تم التوصل إليه ووضعه على الأدراج.

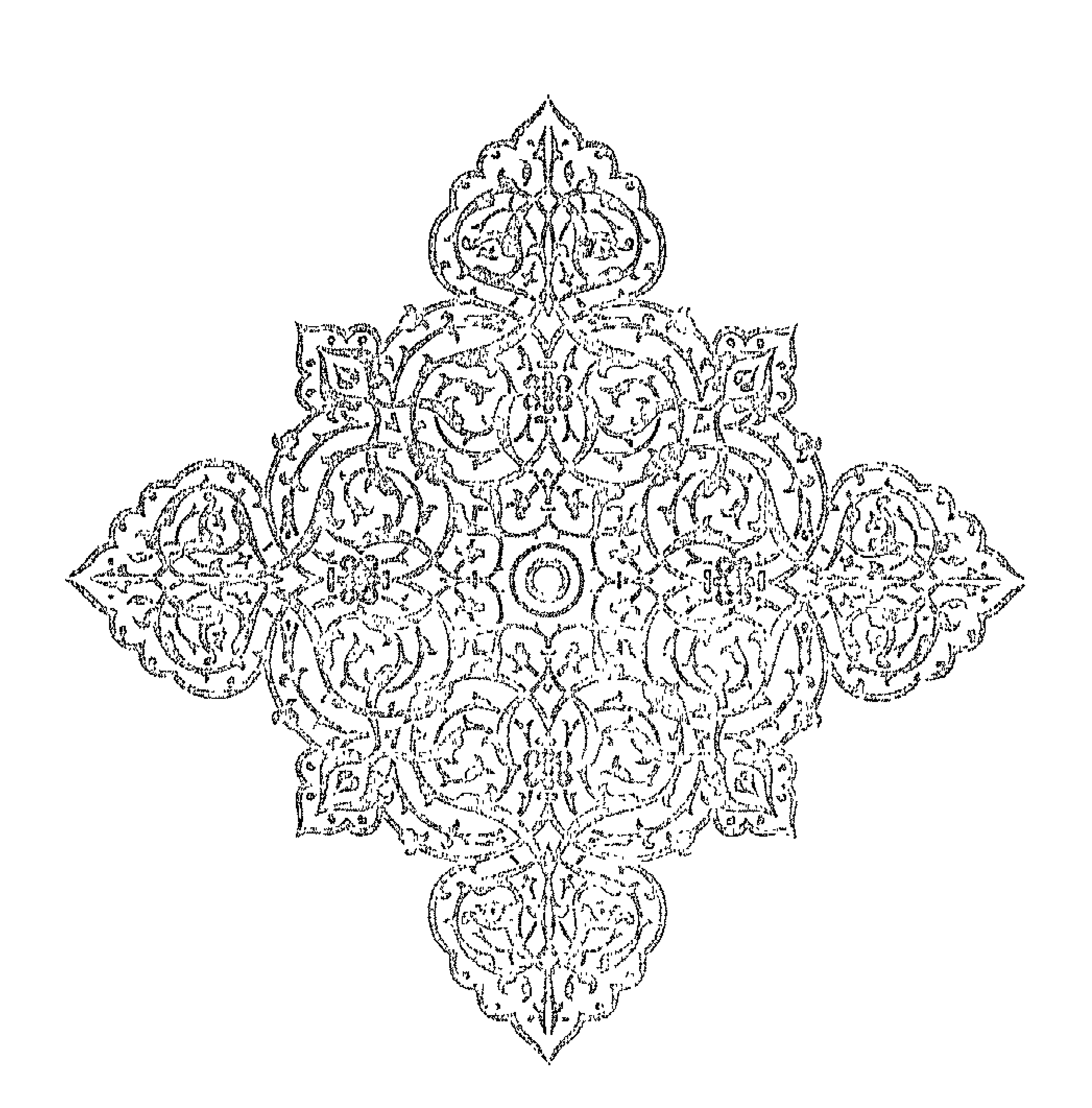
وهنا نود التنبيه على أن أي نظام اقتصادي أو اجتماعي أو غير ذلك لا يمكن أن يبرز مفعوله وأثره في الواقع المعيش ، كما لا يمكن أن تكتشف نواقصه إلا بوضعه على محك التجربة والتطبيق ، كما أن الابتكار والاجتهاد والتجديد الفقهي لا يأتي إلا من العمل ومحاولة التجربة والخطأ ، أما التجميد والتردد فلا يزيد الأمة إلا جموداً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(*) أكاديمي، وباحث، ومحقق في قضايا التراث والأدب والثقافة، وعمل في عدد من الجامعات العربية، وترأس (سابقا) قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية في جامعة السلطان قابوس، وشارك في تطوير برنامج الدراسات العليا فيها. وترأس العديد من اللجان العلمية منها: لجنة التحكيم في جائزة السلطان قابوس للإبداع الثقافي ٢٠٠٦م، وعضو مجلس أمناء جائزة السلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب.





بسم الله الرحمن الرحيم

لعلّه من المعاد المكرور الحديث عن العولمة، وتعريفاتها، وتجلّياتها في السياسة، والاقتصاد، والاتصال ، والثقافة بعد ذلك السيل الجارف من الكتب ، والمقالات ، والدراسات [١] التي كُتبت فيها، والندوات ، والمؤتمرات [٢] التي عُقدت حولها، ولكنّ المتتبّع المدقّق في تلك الجمهرة من الدراسات، والمؤتمرات يلحظ غياباً واضحاً في الحديث عن الأثر اللغوي الذي تحدثه العولمة لا على العربية وحدها بل على كثير من اللغات الأخرى ، كأنَّ في الأمر نوعاً من التواطؤ، أو (المسكوت عنه) في هذه القضية ، وهي التي يسمّيها د. المسدي[٣] بحقّ (أمّ المرجعيات) ، ولعلَّ ما قرّره جورج طرابيشي يفسّر شيئاً من هذا الغياب من حيث صخب المثقفين عن العولمة من جهة ، وصمت رجال المال ، والاقتصاد، والصناعة العربية من جهة أخرى ، فالعولمة « دخلت إلى العالم العربي ليس من طريق الظاهرة نفسها، بل عن طريق مفهومها في المقام الأول ، فهي لم تتظاهر في بورصات العالم العربي ، ولا في أسواقه المنفتحة... بل في أدمغة المثقفين أولاً... فمفهوم العولمة المتداول في العالم العربي هو من إنتاج المثقفين في المقام الأول، وبرسم استهلاكهم » [٤]، وبما أنَّ الحديث عن اللغة، والاهتمام بها، وصلتها بالواقع يأتي متأخراً دائماً، ويشوب كثير من خطابه الحماسة، والإنشائية التي لا تغني كثيراً مع تعصّب ملموس يؤدي إلى بتر التواصل، أقول إذا كان الأمر كذلك فمن هنا يأتي الضمور الواضح في تناول أثر العولمة على اللغة، والنتائج المترتبة على هذا الأثر، في حين نالت الجوانب الأخرى اهتماماً ملحوظاً تمثّل في ذلك التضخم الواضح من الكتب ، والدراسات، والندوات.

ولا ينكر أحد أنَّ كثيراً من المهمومين بأمر العربية، ومستقبلها مع قليل جداً من الخائضين في بحور العولمة قد حاموا حول هذا الموضوع ، ولم يقعوا، ونريد به أثر العولمة على اللغة، والأدب، وتحكيم قوانينها، وسيطرة أذرعتها على القريب والبعيد، ولكن يبدو أنَّ ما قرّروه، وجهدوا في التنبيه إليه لا يلقى أذناً مصغية ، أو عقلاً واعياً، إذ لا نجد له

---

(١) أحصى الباحث على سبيل المثال مائتين وخمسين كتاباً ويزيد عن العولمة في مكتبة الجامعة الأردنية وحدها، وهناك غيرها بالطبع، أمّا المقالات، والدراسات فأصعب من أن تحصى إذ هي بحاجة إلى جهد إحصائي منفرد.

(٢) اطّلع الباحث على أعمال ست ندوات عربية عن العولمة، وهناك المزيد.

(٣) ينظر: كتابه العولمة والعولمة المضادة، ص٣٨٨، وما بعدها.

(٤) من النهضة إلى الردّة، ص١٦٥.

تطبيقاً على الواقع، أو نلمس له تجلّياً في حياة الأفراد، وكأنّ ما يُكتب ويقال هناك موجّه إلى آخرين ليسوا من هنا، وتظلّ الفجوة متّسعة، وتتّسع يوماً بعد يوم، ولابدّ لهذا من تشخيص صريح بعد فحص دقيق، ولعلَّ مهمة هذه الدراسة تنحصر في الفحص، وبعده التشخيص بعيداً عن التنظيرات المطوّلة، والتجريد الثاوي في عقول المثقفين وحدهم بلا نزول له إلى أرض الواقع.

إذا كانت العولمة تعني في أبسط تعريفاتها زوال الحدود بين الدول، وتراسل المصالح، وقيام عالم جديد شعاره الصفقة بدل الوثيقة على حدّ تعبير توماس فريدمان [1] من حيث بروز الشركات الكبيرة، وهيمنتها على اقتصاديات الدول بلا حواجز مانعة، وضمور دور الدولة القطرية، وشهوة تلك الشركات الكبرى إلى التهام ما يعترضها من معوقات، وموانع لتصل في النهاية إلى ما اصطلح عليه بـ (القرية الكونية) التي يحكمها نظام واحد، وآليات عمل، وتفكير واحدة، وأهداف واحدة بعد هذا. أقول، إذا كانت هذه هي العولمة[2] كما يقدّمها أصحابها، فمن الضروري أن ينضوي تحت ذلك التأثير، بل قل تحت ذلك الالتهام ثقافات الأمم المستقبلة – بكسر الباء – للعولمة، وتقف اللغة في المقام الأول من هذه الثقافات على اعتبار أنَّ اللغة هي روح أيّ ثقافة، وعمادها، ووعاؤها، يتساوى في هذا الثقافةُ الشفوية، أو المكتوبة، إذ تشترك الاثنتان في أنّ الحامل لهما، والحاضن لقيمهما هو اللغة، وللعربية في هذا المجال خصوصية أخرى سنقف عندها فيما بعد، ومن هنا كثر الحديث عن اختفاء معظم لغات العالم في المستقبل القريب [3] بسبب ذلك التقارب الشديد، وعجز تلك اللغات عن مواجهة هذه المستجدات السريعة، والقوية في آنٍ واحد، ولهذا أسبابه المختلفة، وتقف العولمة في مقدّمة هذه الأسباب كما هو واضح، فلغة العولمة هي الإنكليزية، وهي «تصبح

---

(١) ينظر كتابه (السيارة ليكساس وشجرة الزيتون) ترجمة ليلى زيدان، ص٣١.

(٢) لعلّه من المفيد ونحن نتحدث عن تأثير العولمة على العربية أن نشير إلى اشتقاق مصطلح (العولمة) الآتي من "صيغة فوعل بدلالتها على التشكيل المفروض من خارج المادة، والذي يحمل معنى الفوقية وأحادية الاتجاه في مقابل صيغة تفاعل التي توحي بالحوارية وثنائية الاتجاه"، فكأن المصطلح نفسه حتى قبل شرح مفهومه يومئ إلى الاستعلاء، والقسر، وهذا فيه ما فيه. ينظر تحديات الهوية العربية، د. أحمد درويش، ص٢٠، بحث منشور ضمن بحوث الندوة الفكرية التي نظمتها جامعة السلطان قابوس، سنة ١٩٩٩.

(٣) ينظر على سبيل المثال للتوسع : العولمة والعولمة المضادة، د. عبدالسلام المسدي، ص٣٩٠، واللغة العربية في عصر العولمة، د. أحمد الضبيب، ص٦٤، وما بعدها، وصراع اللغات في القرن الحادي والعشرين، مجدي شرشر، مجلة الهلال، أبريل سنة ٢٠٠٠، ص٩٩، وما بعدها، ولغات آيلة للانقراض، محمد القدوسي، مجلة دبي الثقافية، العدد التاسع، فبراير سنة ٢٠٠٦، وفيه عرض جيد للدراسة التي أعدتها اليونسكو عن اللغات البشرية.

بسرعة اللغة التي لا غنى عنها بالنسبة للأشخاص الناجحين من دول ، وثقافات مختلفة، وهذا يعود في جانب منه إلى أنَّ عدداً غير متجانس من أغنياء العالم يتحدثون الإنكليزية؛ ولأنّها لغة الثورة التقنية، فحتى قبل ظهور الإنترنت ساعدت الهواتف، والتلفزيون، والنقل الجوي لغات الثقافات، والاقتصادات المهيمنة على الانتشار»[1]، وممّا يلفت النظر في كتاب (السيارة ليكساس وشجرة الزيتون) لتوماس فريدمان، وهو أحد أهمّ منظّري العولمة ، والمروّجين لها، والمدافعين عنها، أقول : ممّا يلفت النظر في هذا الكتاب أنّه تحدّث عن كلّ شيء ذي صلة بالعولمة إلا اللغة ، كأنَّ المسألة في وعيه ، أولا وعيه محسومة لصالح اللغة الإنكليزية فلا داعي للحديث عنها البتّة، فمادامت العولمة أمريكية – كما يعتقد هو – فلتكن لغتها إنكليزية، وليس للّغات الأخرى سوى الاستسلام فالضمور، وفي نظري إنَّ هذا الكتاب من الكتب المهمّة التي يجب تفحّصها بدقّة، وعناية؛ لأنّه قدّم العولمة من الداخل بلا رتوش، أو محاولة تجميل، وهذا ما يحتاجه القارئ العربي فعلاً، بينما نجد أنَّ استقباله في مناخ الثقافة العربية كان محبطاً للغاية من حيث تجمّع جمهرة من الردود عليه يغلب على أكثرها التشنّج، والحماس المشوب بالسخرية، وكأنَّ هاجس تلك الردود هو الكلام حسب، وتنتهي المسألة بلا محاولة جادّة للفهم، والحوار، وهذا أحد مظاهر الخلل في الفكر العربي الحديث المبتعد عن العقلانية، والحوار الهادف للوصول إلى حلول عملية.

وإذا كانت القضية وفق ما تقدّم منتهية لأولئك القائلين بالعولمة، وقيمها، وقوانينها لصالح اللغة الغالبة فأين موقع العربية من هذا كلّه، وخصوصاً مستوى الفصحى منها؟ وهل تستطيع البقاء، والاستمرار في ظلّ هذا الدفع القويّ من الجانب الآخر؟، ولا أقول الإنكليزية، فالمسألة أكبر من هذا ، فهي ذات بُعدين: داخلي، وخارجي، وهما متكافئان من حيث الأهمية ، بل أكاد أذهب إلى أنّ البعد الداخلي هو مكمن الداء، والعامل الجوهري، ويأتي ذلك الثاني، أي البُعد الخارجي ليزيد من علله شيئاً فشيئاً ليحكم عليه بالموت، والزوال.

إنَّ ظاهرة احتكاك اللغات، أو صراعها ظاهرة قديمة قِدم اللغات نفسها لا تنفرد العربية بها، ولهذا أسبابه المتنوعة، منها الاستعمار، والغزو، والفتح، والتجارة، والانتقال الحرّ للبشر بين دول مختلفة إلى غير ذلك، وهذا يولّد انتقالاً حتمياً للّغات، وبعد هذا احتكاك

(١) لغات آيلة للانقراض، محمد القدوسي، مجلة دبي الثقافية، العدد التاسع، فبراير سنة ٢٠٠٦، ص١٢٢.

بعضها ببعض، وتأثر الواحدة بأخرى، أو بأخريات وعند ذاك تحدث الغلبة لواحدة، أو أكثر على مجموعة من اللغات وفق شرائط طوعية، أو قسرية يطول الحديث عنها، وقد أسهب اللغويون العرب في الحديث عن (الاقتراض)، و (التعريب)، و (الدخيل)، و (الترجمة) مع موقع كلّ واحد من هذه المصطلحات من حركة الاحتكاك الواسعة، كما أشاروا من قديم إلى (غربة) العربية بين أهلها، ولا أريد التحدّث عن إعادة التاريخ نفسه، أو سيره ضمن خطّ مستقيم مرسوم لا يمكن العودة البتّة إلى نقاطه الأولى، أقول، لا أريد الخوض في هذه الإشكالية فهي فلسفية في المحلّ الأول ، كما إنَّ المقام لا يتّسع لها، بَيْد أنّني قبل الدخول إلى ظاهرة (الغربة) تلك، أودّ الإشارة إلى نقطتين جوهريتين ذات مساس مباشر بموضوعنا، وهما تصنيف العولمة تاريخياً، وتقليد الغالب.

أمّا تصنيف العولمة تاريخياً فقد انتهت الكثرة من الباحثين إلى أنَّ هناك عولمتين: قديمة، وحديثة مع نقاط اختلاف بينهما بسبب تغيّر الزمن، واختلاف الآليات التي تحكم الزمنين كليهما، وتبدو بواكير القديمة منها منذ القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، تلك المرحلة التي «شهدت نموّ المجتمعات القومية ، وإضعاف القيود التي كانت سائدة في القرون الوسطى» [(١)]، لتصل إلى مرحلة النشوء فالانطلاق ، ليبدأ بعدها الصراع من أجل الهيمنة [(٢)] بحيث تغيّر الموقف من الحدود، والدول القومية، أو بتعبير فريدمان من أنَّه «كلما كان نظام واحد يؤثر في عدد أكبر من الناس بعدد أكبر من الطرق، وفي آن واحد، فذلك النظام هو العولمة» [(٣)]، وهكذا «وبفضل سقوط كلّ تلك الأسوار في أنحاء العالم خرجت إلى الوجود حقبة العولمة والتكامل» [(٤)]، وحتى الزمن نفسه قد تغيّر فقد اكتسب مفهوماً مغايراً بسبب التغيّر الجذري في وسائل الاتصال، وتضييق المسافات، وتقريبها، وهذه هي العولمة الحديثة التي نرى مظاهرها في ثورة الاتصال ، وسهولة الانتقال، واقتراب أجزاء العالم المتباعدة، وظهور الشركات العملاقة، أو ما يطلق عليها فريدمان (القطيع

(١) في مفهوم العولمة، السيد يسين، ص٣٠، دراسة منشورة في كتاب (العرب والعولمة) وهو مجموع بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة ٢٠٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣١، وينظر كذلك جذور العولمة، محمد حسين مرتضى عرفة، وفيه تفصيل جيد للكشوف الجغرافية، والتوسع الاستعماري، ونشوء النظام الرأسمالي ليصل من خلال مسرد تاريخي إلى نهاية الحرب الباردة، وظهور العولمة كحقيقة واقعة هي ما نعيشه اليوم.

(٣) السيارة ليكساس، فريدمان، ص٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص٧٨.

الإلكتروني) المكوّن من الماشية القصيرة القرون، والأخرى الطويلة القرن، وهي الشركات المتعدّدة الجنسية [1] التي تتحكّم في اقتصاد العالم، بل مصيره، والعلاقات المتشابكة المصالح بين الدول، وهذه الشركات يخلق وضعاً جديداً غير مسبوق بحيث يزول مفهوم (الوثيقة) كما أشرنا ليحلّ محلّه مفهوم (الصفقة) بكل ما يحمله هذا المصطلح من مضامين حقيقية، أو مجازية.

وبما أنَّ العرب اليوم مستقبلون لهذا كلّه غير مشاركين في إنتاجه، بل يصل بعضهم إلى مرحلة الانبهار به، والدعوة العَجْلى إلى الأخذ بأسبابه مهما كانت العواقب بغية اللحاق بالركب، وتضييق الفجوة، فهذا يقودنا إلى النقطة الثانية التي يرصدها ابن خلدون بذكائه النادر، واستقصائه الفريد حين قال في المقدمة: «... إنَّ المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره ، وزيّه، ونِحلته، وسائر أحواله، وعوائده، والسبب في ذلك أنَّ النَّفْس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت إليه ، إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أنَّ انقيادها ليس لِغَلَب طبيعي، إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك، واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبّهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه – والله أعلم – من أنَّ غَلَب الغالب لها ليس بعصبية، ولا قوة بأس، وإنَّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغَلَب» [2]، إنَّ هذا الرصد النادر إنَّما يسري على عصر ابن خلدون وقبله، ويسري على عصرنا الراهن لكونه طبيعة عامة ، وقانوناً يحكم العلاقة بين الغالب والمغلوب، والشواهد أكثر من أن تحصى ، فقد تحرّك فيه ابن خلدون باتجاهين يؤديان إلى نتيجة واحدة ، أحدهما : هو إضفاء الكمال على الغالب، وثانيهما : هو الإحساس المرير بالخذلان والهزيمة والنقص الذي ينتاب المغلوب ، وليس مردّ ذلك كلّه إلا لجودة ما اصطنعه الغالب من قيم أدّت إلى غَلَبه، وما تمسّك المغلوب به من مذاهب كانت السبب في هزيمته ، وبما أنَّ النفس تنزع دوماً إلى ما هو كامل ، أو ما تعتقد أنّه كامل فمن هنا جاء نزوعها إلى قيم وعادات الغالب لعلّها تجد به خلاصها ممّا هي فيه، ومن الضروري أن نشير هنا إكمالاً للمشهد إلى أنَّ الغالب هو الآخر يتأثر بالمغلوب إما في لغته ، أو عاداته، أو مواضعاته، فالمسألة متحركة ذات حيوية خاصة، بَيْد أن الحسم النهائي للغالب بالطبع ، فالعرب عموماً مغلوبون، و (الآخر) غالب فمن الضروري أن

(١) ينظر السابق، ص١٦٤، وما بعدها.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٢٥٨.

يؤدي هذا إلى التقليد، والأخذ، والانبهار، وهو ما نلمسه فعلاً، ولعلَّ هذا هو المدخل الحقّ لإشكالية اللغة ، أو غربتها في عصور معينة قديماً، وفي عصرنا الحالي وهو ما نودّ الوقوف عنده.

وخبر غربة العربية في وطنها حديث ذو شجون يقترن اقتراناً صميماً بتاريخ العرب القديم، والحديث، ويرصد انتصاراتها، كما يومئ إلى انكساراتها، وليس هذا بالأمر المستغرب ، إذ ظلّت العربية ذلك الوعاء الأمين الذي حافظ على ثمرات عقول المفكرين، والأدباء ، وحفظ العرب من الذوبان خلال تلك المسيرة الطويلة، فإذا التحم هذا كلّه بالدين بحيث تصبح لغة التنزيل العزيز هي العربية، ولغة الرسول الكريم ﷺ هي العربية، ويحتشد هذا كلّه لتصبح هذه اللغة بعد هذا لغة التشريع، والفكر، والعقل ، والوجدان معاً، أقول إذا علمنا هذا أدركنا المنزلة التي تحتلّها العربية في عقول، ونفوس العرب من حيث دورانها في شُعَب شتى: دينية، وعقدية، وفكرية، وسياسية، غير أنَّ الموضوع بعدُ بحاجة إلى فضل نظر، ولا أريد به ـ مثلاً ـ ظهور اللحن المبكر منذ عصر الرسول ﷺ حين طلب من أصحابه أن يرشدوا أخاهم الذي ضلَّ بسبب اللحن ، فقد كانت العربية تجري على لسان أهلها فصيحة مشرقة ، وظلّت بعد هذا كذلك لزمن طويل ، ذلك لأن العرب أنفسهم كانوا مقبلين ، آخذين بأسباب النهوض ، واعين لشرائط التحضّر، أقول : لا أريد هذا وأشباهه ذلك الذي مرّ، وإنّما أريد به تلك الشكوى المريرة ، وذلك الألم الدفين الذي شعّ في كتابات بعض العلماء، وهم يلمحون صدوداً عن العربية من أهلها، وإعراضاً عنها من داخل بني جلدتها ، ومَتْحاً من آبار غيرها، وزهداً في التحدث، أو الكتابة بها ، فنرى ابن قتيبة يرصد حالة عامة تتمثّل في أنّه «رأى أكثر أهل زمانه عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيّرين، ولأهله كارهين»[1]، ولم تكن النتيجة سوى ما لحظه من أن «العلماء مغمورون، وبكرّة الجهل مقموعون حين خوى نجم الخير، وكسدت سوق البرّ... ، وصار العلم عاراً على صاحبه»، فإذا كان ابن قتيبة يصف حالة عامة عن وجة اللغة، فإنَّ الحريري يلمس أنَّ لغة (النخب) قد داخلها الشيء الكثير من الخطأ، يكتب: ... إنّي رأيت كثيراً ممّن تسنّموا أسنمة الرُّتب، وتوسّموا

---

(١) - أدب الكاتب، ص٥، وينظر كذلك بحثي عن منزلة الشعر والشعراء في التفكير النقدي العربي المنشور بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الرابع والستون، سنة ١٩٩٤، وفيه تفصيل عن موقف ابن قتيبة السابق الذي لا يخلو من النظر الشخصي للمشكلة.

بسمة الأدب قد ضاهوا العامة في بعض ما يفرط من كلامهم، وترعف به مراعف أقلامهم ممّا إذا عثر عليه... خفض قدر العلية، ووصم ذا الحلية[1]، ويبدو أنَّ هذه الظاهرة أخذت تستشري بعد هذا وتنتشر متزامنة مع طلائع انحسار الدولة العربية ، وبدايات تفتّتها، فقد بدأت تطالعنا كتب كثيرة توجّه اهتمامها لما اصطلح عليه بـ (التصحيح اللغوي)، وتنبّه الشعراء، والكتّاب إلى ما يقعون فيه من الخطأ بغية اجتنابه [2]، وكأنّها «دليل على القلق الذي يشعر به الدارسون لهذه اللغة، والحريصون على مستقبلها»[3]، ويطالعنا ثلاثة من كبار العلماء في عصور مختلفة بآرائهم عن حال العربية في أزمانهم ، وهي حال متقاربة تؤدي إلى نتيجة واحدة، فنرى ابن منظور صاحب المعجم الشهير لسان العرب يقول في فاتحته مبيناً دوافع تحريره هذا المعجم وذلك «لما رآه قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى أصبح اللحن في الكلام يعدّ لحناً مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمنٍ أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون» [4]، ألا نجدُ شيئاً قريباً بل شبيهاً بين كلام ابن منظور وحال العربية بين أهلها اليوم؟ ويتابع القلقشندي شريكه في الهمّ ابن منظور ليقول: «إنَّ اللحن قد فشا في الناس، والألسنة قد تغيّرت، حتى صار التكلم بالإعراب عيباً، والنطق بالكلام الفصيح عيّاً» [5]، إنَّ هذا ليشير بقوة إلى انقلاب جذري في النظرة إلى الفصحى حين صار الوضع معكوساً، فبعد أن كانت الفصحى غاية الغايات أصبح التكلّم بها عيباً ، وعيّاً، وهكذا حين لم يجد المرتضى الزبيدي صاحب (تاج العروس) [6] ما يضيفه إلى تلك اللوحة المؤلمة يروح يستعير من كلام ابن منظور السابق حين حرّر معجمه في الوقت غير الملائم مشبهاً بذلك صنيع نوح عليه السلام لافتخار أهل العربية بلغة، بل بلغات غير لغتهم، ولا تحتاج النصوص السابقة إلى فضل إيضاح ، فالانهيار ضارب أطنابه، وهو في تزايد في ظلّ تراجع أصحاب اللغة عن مواقعهم القديمة، وتحكّم سنن التغير في دولتهم التي تفتّتت

---

(١) درّة الغواص، الحريري، ص٩ .

(٢) ينظر: عن هذا الموضوع: حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث ، د. محمد ضاري حمادي، ص٩، وما بعدها، وفيه مسرد جيد لكتب التصحيح اللغوي قديماً وحديثاً.

(٣) اللغة العربية في عصر العولمة، د. أحمد بن محمد الضبيب ص١٣٥.

(٤) لسان العرب، ٨/١.

(٥) صبح الأعشى، ١٧٣/١.

(٦) ينظر: تاج العروس، ٥/١.

فأصبحت دولاً لا رابط يربطها سوى خيط واهٍ ضعيف لا يمثّل عند التدقيق قوة تذكر، ولن نغفل هنا أثر اللغات الأخرى التي بدأت ألفاظ كثيرة منها تتسرّب إلى العربية بفعل المخالطة، والجوار، واشتراك أهل هذه اللغات في الحركة العلمية بشكل عام حتى برزت ظاهرة عند كثير من الشعراء الذين كانوا ينظمون الشعر بأكثر من لغة، العربية واحدة منها، وعمد الميداني صاحب كتاب مجمع الأمثال – مثلاً – إلى تحرير معجم سمّاه (السامي في الأسامي) [1] ينضوي تحت المعاجم الثنائية اللغة، فأدرج الكلمة العربية وإلى جانبها ما يقابلها بالفارسية مع شرح لهما، فكأنَّ المناخ الثقافي كان يتقبّل تلك الظواهر لانتشارها من جهة ، واحتياجه لها من جهة أخرى، وظلّ الحال على ما هو عليه في عصور قريبة حيث تطالعنا نصوص كثيرة تشي ر إلى ضعف العربية في (وطنها) لا يختلف في هذا تلك (النخبة) التي كتبت، أو قالت الشعر، أو ما جرى على ألسنة الناس من لغات عامية، ويكفي أن نسوق نصّين يجلّيان هذه الصورة الجديدة القديمة، أولهما قول الأستاذ محمد المبارك مِنْ أنّ «مَنْ كان يعرف الكتابة من الخاص، والعوام كان يكتب العامية بالحروف العربية» [2]. وثاني النصين: هو ما ذهب إليه جورجي زيدان في وصف لغة الكتابة في القرن الثامن عشر الميلادي بأنّها «صارت... أشبه شيء بلغة العامة لركاكة عباراتها مع ما فيها من الألفاظ الأعجمية والعامية» [3]، واتصل الحال حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث بدأت نهضة لغوية من نوع ما بسبب تفتّح ما نستطيع تسميته بالوعي اللغوي الذي رافق تلك النزعة المبكّرة للقومية التي نهض بها دعاتها من الرواد ، فكأنَّ ما نريد الوصول إليه يتلخّص في أنّ حياة العربية وازدهارها نابع من حياة أهلها [4]، وإقبالهم، وقدرتهم على اكتشاف مكامن العبقرية، والثراء فيها، وتمكّنهم من توظيفها في عيشهم ومناحي حياتهم، مع مواجهة الأخطار المحيقة بها، وبهم وفق خطة عقلانية مرسومة من أظهر سماتها التخطيط، والنظر المستقبلي النابع من الواقع بغية رصده بصراحة حادّة من جهة، وتجاوزه إلى ما هو أفضل منه من جهة أخرى.

وتأسيساً على ما تقدّم من حيث تسرّب الوهن إلى جسم العربية للأسباب السابقة،

---

(١) طبع السامي في الأسامي ونشره د. محمد موسى هنداوي، سنة ١٩٦٧.

(٢) فقه اللغة، ص٣٢٧، عن حركة التصحيح اللغوي، د. محمد ضاري، ص٢٥.

(٣) اللغة العربية، جرجي زيدان، ص١٣٥، عن حركة التصحيح اللغوي، د. محمد ضاري، ص٢٥.

(٤) «اللغة ستظل دائماً مسؤولية الجماعة الناطقة بها»، هذا ما يقرّره د. نبيل علي ود. نادية حجازي في كتابهما (الفجوة الرقمية)، ص٣٠٥.

وتسرّب تأثير اللغات الأخرى فقد رميت العربية بتهم ، وأقاويل بغية إقصائها عن مكانها المفترض لها عند العرب، وإحلال العامية، أو لغة أجنبية مكانها، وبعبارة أوضح تتلخّص في أنّ هذا الضعف واقع، والعربية عاجزة عن مواكبة الجديد فمن الأوْلى أن تتنحّى عن موقعها ليحتلّ غيرها هذا الموقع، وما تزال هذه التهم، والأقاويل تكرّر نفسها في مناسبات متباينة ، وعلى ألسنة مختلفة منها العربي، ومنها غير العربي، وقد تمكّنا من تلخيص هذه الأقاويل بمجموعة من النقاط أهمّها أن العربية «لغة بداوة تفتقر إلى التجريد... لا عهد لها بالمخترعات الحديثة... وتفتقر إلى دقّة المصطلحات العلمية... كما إنَّ ما فيها من مصطلحات قليل يكاد يكون معدوم الجدوى... وهي بالضرورة ليست لغة عالمية... كما إنَّها من حيث دقائقها تفتقر إلى نظام تفصيلي للزمن في الفعل كما نجده في اللغات الأوروبية... وهي لا تصلح أن تكون أداة لإقامة التفكير المنطقي» [1]، وقد روّج لهذه الأقاويل مجموعة من الدارسين غير العرب، وتابعهم فيها باحثون عرب على تفاوت في مواقفهم مثل سلامة موسى، وأنيس فريحة، ومحمد عابد الجابري، وغيرهم، ولسنا هنا في معرض الردّ على تلك الأقاويل ، فقد تكفّل بهذا غيرنا ، بَيْد أنّنا نسارع لنقرّر أمرين نراهما هامّين، أولهما: إنّ جمهرة كبيرة من الباحثين غير العرب قد درسوا العربية دراسة علمية منهجية فدرسوا تاريخها، وأصواتها، ونظامها، ونحوها، وصرفها، وتحرير معاجمها إلى غير ذلك من الدراسات، وانتهوا إلى جملة من النتائج هي في صالح العربية من حيث غناها، وخصوبتها، ودقّة نظامها، وقدرتها على مواكبة الجديد [2] ممّا يجعل الشكّ يتسرّب إلى النتائج التي توصّل إليها الفريق الأول، والمنهجية التي اعتمدوها، والمصادر التي فاءوا إليها، ولن ننسى هنا جهود العلماء العرب الأفذاذ الذين قدّموا دراسات هي الغاية في النفاسة من حيث مادتها، ومنهجها سواء أولئك الذين كشفوا خصائص العربية من جهة، أم أولئك الذين تصدّوا للردّ على تلك الأقاويل من جهة أخرى. وثاني الأمرين: يتعلّق بنوعية الدارسين من الفريق الأول، فهم إمّا أن يكونوا جزءاً جوهرياً، وعنصراً فاعلاً في

---

(١) ينظر تفصيل هذه الأقاويل في كتاب د. أحمد محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، ص١٠٨، وما بعدها، ودراسة د. عبدالله حامد محمد: (فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية) المنشورة بمجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث، سنة ٢٠٠٠.

(٢) ينظر على سبيل المثال: اللغة العربية في مرآة الآخر، د. نهاد الموسى الذي يخصّص الكتاب كله لهذا الموضوع، وينظر كذلك دراسة د. حمزة بن قبلان المزيني (مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة) المنشورة بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الثالث والخمسون، سنة ١٩٩٧، وهي دراسة مطوّلة قيمة تبين جوانب هذا الموضوع بتفصيل محمود.

الانتشار الاستعماري بمفهوميه القديم والجديد، كما يعرض ذلك بتفصيل كتاب (تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) [١] للدكتورة نفوسة زكريا سعيد، وإمّا أن يسخّروا علمهم بالعربية لغايات بعيدة عن المنهجية ، والعلم الحق، وهو الذي يسمّيه د. المسدي بـ (المغازلة اللغوية) بين أولئك الباحثين، وتوجّهات بلدانهم في التسلّط، والاحتلال، وإذا بهذا الفريق الذي يحمل أفكاراً واحدة يصبح فريقين، أحدهما : وهو المقصود بالأول ، يأتي مع طلائع الاستعمار فيقيم في البلاد العربية، ويتعلّم لغة أهلها، ويشارك في إرساء دعائم الحركة الاستعمارية أولاً، ويقدّم (الفتاوى) بشأن العربية وعلومها ثانياً ، ومنهم على سبيل المثال: سبيتا، وكارل فولرس، وسلدن ولمور، وأ. باول، ووليم ولكوكس، وغيرهم، أمّا المراد بالثاني: فهم بعض المستشرقين، وليس كلّهم ، أولئك الذين درسوا العربية في بلدانهم، وراحوا يكيلون النصائح، ويقيمون الدعاوى، تلك التي رأينا أطرافاً منها فيما سبق على العربية، وهم في نهاية المطاف كالفريق الأول «انطلقوا في حياتهم من مراكز العمل التي كانوا فيها خادمين للسلطة الاستعمارية، بل مخبرين لها بلا تستّر» [٢]، ولم نقل ما قلناه إلا لنتحصّل على ذلك الربط بين العولمة بمفهوميها القديم والجديد واللغة العربية؛ لنخرج إلى الواقع الحالي للعربية، وهي تواجه هذه العولمة بإمكاناتها الكبيرة، ومحاولاتها المستميتة ؛ لإقصاء العربية، وإحلال العامية، أو اللغة الأجنبية مكانها، ويقع هذا كلّه في ظلّ القانون العام الذي وقفنا عنده فيما سبق وهو الارتباط الوثيق بين العربية وإقبال أهلها أو إدبارهم، ولعلّ الواقع الحالي يشير إلى الاقتراب من الإدبار، فما العمل؟ هذا ما سيتكفل به المبحث القادم من حيث الرصد، ومحاولة التجاوز.

يلحظ المتتبّع أنَّ هناك ثلاثة اتجاهات تعمل متظافرة فيما بينها، متساندة إلى بعضها تمهّد لنفسها الدخول إلى مواقع العربية، وخصوصاً الفصيحة منها، في محاولة جادّة لإبعادها لا عن الكتابة وحدها، بل عن ألسن المتحدّثين بها باعتبارها لغتهم الأم، فكأنَّ هذه الاتجاهات أشبه ما تكون بالنتائج لتلك المقدمة ، بل المقدمات التي عرضنا لها سابقاً، فما دامت العربية على تلك الصورة التي رسمها ذلك الفريق من حيث ضعفها، وعجزها عن المواكبة، وفقرها المصطلحي، فمن الأَوْلى، بل من الواجب أن تنزاح ليأتي بديل غيرها هو ما أستطيع تسميته باطمئنان بالخطاب العولمي الذي ينتجه مناخ العولمة،

(١) نشر هذا الكتاب بدار نشر الثقافة بالإسكندرية، سنة ١٩٦٤، وما يزال هذا الكتاب رغم مرور أربعين سنة ويزيد على صدوره غضّاً طرياً يقدم من الفوائد ما عجزت عنه الكثرة من الكتب التي صدرت بعده.

(٢) العولمة والعولمة المضادة، د. عبدالسلام المسدي، ص٤٠٥.

ويحرّض عليه، ويقدّم له من الأسباب ما يكفل له الدخول، والاختراق، وهذه الاتجاهات هي: ثنائية ازدواجية الفصحى مع العاميات، وثنائية الفصحى مع اللغات الأجنبية ، وثقافة الصورة.

وخبر (الازدواجية) خبر طويل، يضرب بجذوره عميقاً في تاريخ العربية، ويراد بها «الدلالة على اللغة فيها مستويان: مستوى الكتابة، ومستوى الخطاب الشفوي في الشؤون اليومية... وهو الوضع اللغوي الماثل في العربية» [١]، أو إنّها «اصطلاح يدلّ على أنَّ القوم يستعملون لغة عادية، ودارجة، ومحكية في ظروفهم المعاشية، وأغراضهم اليومية، كما إنّهم يستعملون لغة مصطنعة، ومنمّقة، ورفيعة، أو علمية، أو سامية في المناسبات الرسمية، وفي التعبير عن الأغراض الفكرية، والثقافية، والأدبية، والتقنية» [٢]، ونجد لهذه الازدواجية تراثاً في اللهجات العربية ، واصطناع الناس لغة خاصة بهم فيما بعد، وقد أطال الحديث عنها د. إبراهيم السامرائي في كتابه (درس تاريخي في العربية المحكية)، وساق لها شواهد كثيرة استقاها من الشعر العربي، والجاحظ، وابن بطوطة في رحلته بالإضافة إلى استقرائه الخاص، وليس غريباً استقرار مستويين لغويين في لغة واحدة فهذه «ظاهرة ألسنية عالمية تنطبق على عدد كبير من اللغات» [٣] كما إنّها واقع معيشي لا يمكن إنكاره، أو تجاهله، وقد تطوّر هذا الأمر فأصبح للهجة المحكية وجدانها الخاص، وأدبها المعبّر، وأغانيها التي تروق لطوائف كثيرة من الناس [٤]، أقول: ليس هنا موضع المشكلة، بل مكمنها الحقّ ذلك الذي يتمثّل في الدعوة الصريحة القوية إلى اتخاذ هذه المحكيّات لغة وحيدة سواء في الكتابة ، أو في الكلام مع نبذ الفصحى تماماً، وإقصائها حتى مع الذاكرة، ولا نراها صدفة أن يتبنى هذه الدعوة دارسون غير عرب [٥] عملنا على تصنيفهم فيما سبق،

---

(١) قضية التحول إلى الفصحى، د. نهاد الموسى، ص٢٩، وينظر كذلك المشكلة اللغوية، سمر روحي الفيصل، ص٩، وما بعدها، وملكة اللغة العربية ونموها في وضع الازدواج والتعدد، عبدالقادر الفاسي الفهري، ندوة قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، ص٧١، وما بعدها، والفجوة الرقمية، د. نبيل علي، ونادية حجازي، ص٣٦٣، وما بعدها.

(٢) اللغة العربية وتحديات العصر، ريمون طحان، ودنيز بيطار طحان، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٩.

(٤) جاء في كتاب الفجوة الرقمية، ص٣٦٧، ما يأتي: «إنَّ العامية على رغم كونها مبدعة وفعالة تظلّ لغة بسيطة لا تستطيع التعبير عن المفاهيم المركبة ، ومَنْ يطالب بتغليب العامية على أساس من واقعية استخدامها في الحياة اليومية يقصرون هذا الاستخدام غالباً في التعاملات البسيطة المباشرة ، وغير المركبة».

(٥) جاء في كتاب الفجوة الرقمية، ص٣٧٣ ما يأتي: "... أمّا عن تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها فهناك محاولات قليلة... أمّا الجامعة الأمريكية في مصر فقد تبنت تعليم اللغة العربية العامية لأغراض عملية من ضمن ما يحتاجه الأجنبي في معاملاته اليومية"، ومعنى ذلك أنّ هذا الأجنبي لن يعرف من العربية سوى مستوى متواضع جداً فقد حُجب عنه تاريخ بأكمله، وفي هذا من النتائج مالا يخفى على المدقق.

ويتابعهم في هذا بعض الدارسين العرب، في حين نرى كثيراً من الجهود تعمل بجدّ في محاولة مخلصة منها للتحوّل إلى الفصحى شيئاً فشيئاً على اعتبار أنّ هذه المحكيّات هنّ بنات الفصحى [١]، وفيها الكثير من الفصيح المهجور [٢]، ومع شيء من التنظيم الذي يبدأ من المدرسة، وتسنده وسائل الاتصال يمكن للتحول المأمول أن يصبح حقيقة واقعة، والعبرة بعد هذا كلّه تكمن في إيجاد مناخ لغوي مناسب تسبح فيه الفصحى؛ لتصبح بمرور الوقت هي السائدة مع ما فيها من إمكانات تعبيرية، وطاقات بيانية تعجز العاميات عنها، غير أنّ الطرف الآخر يكتفي برصد الظاهرة، عاملاً على تكريسها، وتقديمها على أنّها حتمية لا يمكن الفكاك منها، وعند ذاك يصبح الأخذ بالعامية أمراً لا مفرّ منه، وهو ما سنراه ماثلاً أيضاً في الاتجاه الثاني أيضاً.

ويأتي هذا الاتجاه، وهو ثنائية الفصحى مع اللغات الأجنبية ؛ ليكون أشبه بالحل للاتجاه الأول، وهذا ما نجده جليّاً عند سلدن ولمور مثلاً الذي دعا إلى نبذ الفصحى، واتخاذ العامية بديلاً عنها، وإن لم يقع هذا فستنقرض العربية برمّتها لتحلّ محلها اللغة الأجنبية وهي الإنكليزية بالطبع [٣]، وكان وليم ولكوكس أكثر صراحة منه، ووضوحاً حين ردَّ عجز المصريين عن الاختراع إلى لغتهم، وقارن بينها وبين الإنكليزية، داعياً إيّاهم إلى استخدامها فهي كفيلة بتقدّمهم، ولحاقهم بالركب الحضاري [٤]، وتستمر هذه الدعوة حتى الآن، وهي تقوى باستمرار بحسبان أنَّ «إضعاف اللغات القومية، وإحلال اللغات الأجنبية يعدّ شكلاً من أشكال الاحتواء في عصر العولمة» [٥]، وقد مرّت الشارة سابقاً إلى توماس فريدمان الذي باتت قضية سيادة الإنكليزية على بقية اللغات محسومة لديه في ظلّ العولمة التي يتبنّاها، والمسألة في نظري ذات شقّين لا يقلّ أحدهما أهمية عن الآخر، يتمثّل الشقّ الأول في حرص أصحاب كلّ لغة على انتشار لغتهم، وهم يعلمون، ونحن نعلم أيضاً أنَّ انتشار لغة لا ينحصر أثره في اللسان وحده ، بل يسري بهدوء، ورَيْث إلى العادات، والسلوك، وطرائق التفكير؛ ليصل إلى تغيير الولاءات نفسها، على اعتبار أنَّ اللغة «في جوهرها خلاصة التجارب، والتقاليد، والمُثل التي تسود المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد» [٦].

(١) ينظر كتاب د. نهاد الموسى (قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي) فهو بحث رصين عن هذه القضية.

(٢) ينظر: درس تاريخي في العربية المحكية، د. إبراهيم السامرائي، ص٢٢٥، وما بعدها.

(٣) ينظر: تاريخ الدعوة إلى العامية، ص٢٧.

(٤) المرجع السابق، ص٣٦.

(٥) اللغة العربية في عصر العولمة، د. أحمد الضبيب، ص٣٥.

(٦) خاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة، د. كمال بشر، ص٦١.

فإذا كان أصحاب هذه اللغة ذوي إمكانات هائلة عظيمة ، أدركنا ببساطة النتائج المترتبة على هذا الأمر، ولهم العذر الكافي في حرصهم على انتشار لغتهم، مع هذه الإمكانات، ورغبتهم في سيادتها، وهيمنتها، بَيْد أنَّ للمسألة وجهاً آخر، وهو الشقّ الثاني الذي يكمن في مدى استجابة الطرف الآخر لانتشار اللغة الأجنبية، وهل تنطوي تلك الاستجابة على استسلام، وانتظار، أم تحفّز أهل اللسان المستهدَف للأخذ بالأسباب لحماية لغتهم، والمحافظة عليها، والتهيؤ لهذا الاكتساح بوسائل علمية ، عقلانية تتيح لهم الإفادة من اللسان الوافد مع الاحتفاظ بلسانهم الذي هو مجمع ذاكرتهم، وشخصيتهم؟ إنَّ الواقع الحالي يؤشّر إلى القسم الثاني من المسألة مع ما فيه من مواجهة صريحة ، وتأتي بعد هذا كلّه (ثقافة الصورة) لتشيع نمطاً جديداً في التعامل مع اللغة لا عهد لها به ليزداد الوضع تعقيداً، وتشابكاً.

وحين نقف عند (ثقافة الصورة) باعتبارها اتجاهاً ثالثاً في مناخ العولمة، فإنّما نريد أن نصل إلى شيء أشبه بنهاية المطاف في إشكالية اللغة ، وذلك لاعتبارين اثنين، أولهما: إنَّ الصورة، وما تبثّه من ثقافة، سواء كانت معلنة ظاهرة، أم مستترة ثاوية قد احتلت مكانة أهمّ بكثير من الكلمة نفسها [1]، وذلك من حيث سهولة انتشارها، وسلاسة التعامل معها بحيث أصبحت توجّه لجمهور كبير يتفاعل معها بعيداً عن (النخبة) وقوانينها، ورغباتها، فإذا علمنا – وهو الاعتبار الثاني – أنَّ «ثقافة العولمة من حيث هي ثقافة صورة في المقام الأول تقوم على إحضار الجسد ، ولا تتردّد في كشفه، وتعريته، ولاسيما منه الجسد الأنثوي... في حين أنَّ الثقافة العربية ثقافة خجل من الجسد، وستر للجسد» [2]، أقول: إذا علمنا هذا سندرك مقدار الأثر الجسيم الذي ستنوء العربية تحت ثقله بسبب الإزاحة المستمرة لها من الصورة من جهة، وخلخلة قيمها ومواضعاتها بما تبثّه تلك الصورة من قيم مختلفة، وتقاليد متباينة من جهة أخرى.

وتمثّل (ثقافة الصورة) مرحلة من المراحل التي مرّت بها الصيغ التعبيرية، فمن الشفاهية إلى التدوين، إلى الكتابية ؛ لتصل إلى هذه المرحلة التي نعيشها وهي (ثقافة الصورة) [3]، مع التأكيد على أن هذه المراحل تقوم على منطق التجاور لا الإلغاء، فما

---

(١) ينظر تحديات الهوية العربية، د. أحمد درويش، ص٢٢، بحث منشور في كتاب الندوة التي أقامتها جامعة السلطان قابوس، سنة ١٩٩٩ بعنوان (العولمة والخصوصية الثقافية).

(٢) من النهضة إلى الردة، جورج طرابيشي، ص١٩٠.

(٣) ينظر عن هذه المراحل: الثقافة التلفزيونية، د. عبدالله الغذامي، ص٨، وما بعدها.

تزال الكتابة حتى الآن، والورقية أيضاً موجودة في ظلّ الشبكة العنكبوتية، ويستخدمها جمهور كبير من المتعاملين مع الكتابة، ويلخّص د. عبدالله الغذامي الحال الحاضرة في ظلّ ثقافة الصورة بقوله: «... صرنا نشهد في مواجهة مباشرة حال هذا التغير الجذري في الثقافة البشرية من ثقافة المنطق إلى ثقافة الصورة ، ومن ثقافة القياس الذهني إلى الثقافة البصرية، ومن ثقافة العقل والأذن إلى ثقافة العين والصورة، كان العالم يستمع بأذنيه، ويفسّر بعقله، ويستعمل الكلمات لشرح ما يرى، ولتفهّم ما يحدث... غير أنّ ما صار الآن هو انقلاب كوني ثقافي حيث الصورة بلا كلمات، وليس لها سياق تاريخي وذهني» [١]، وقد أطلنا في اقتباس النصّ لكونه يؤشر بوضوح إلى ما أشرنا إليه سابقاً من تراجع دور اللغة عموماً مع سيادة هذه الثقافة الجديدة، فإذا جمعنا ما نثرناه سابقاً، وحاولنا استنباته في أرض واحدة فما شكل الثمر المنتَج، ونوعه بعد هذا؟ هذه مهمة القسم الأخير من هذه الدراسة.

تطلّ في بعض أدبيات العولمة دعوات ما تزال خافتة الصوت تتحدّث عن (العولمة المؤنسنة)، ويراد بها باختصار «التركيز على البعد الإنساني، والاجتماعي للعولمة... بحيث تصبح ذات مضمون إنساني اجتماعي يستند إلى القيم العالمية التي يشترك فيها البشر جميعاً، وتخدم أفراد الأسرة البشرية بلا تمييز» [٢]، وهي - بلاشك - دعوات نبيلة، غايتها التخفيف من حدّة شهوة الهيمنة، ونزعات التسلّط ، ولكنّ السبيل لتحقيقها لا يقع بالحديث إلى الطرف المصدِّر للعولمة، أو تنبيهه فقط، فليس بمكنة هذا الحديث تغيير مسار العولمة، وخططها في قطع الشوط إلى نهايته بلا اعتبار للوسائل، ونوعيتها.

إنّ تحقيق هذه الدعوات النبيلة بحيث نراها شاخصة على أرض الواقع إنّما يتمّ بما أستطيع تسميته بـ (الاستعداد للعولمة)، والتحضير لاستقبالها، وأخذ الأهبة لتلقّي ما تطرحه من أفكار، وقيم، وهذا لا تكفيه الحماسة، والتمنّي بقدر ما يحقّقه التخطيط المدروس، والنظرة المستقبلية، فهل وقع شيء من هذا؟

من الممكن تمييز ثلاث فئات ذات منطلقات، وتوجّهات مختلفة تعاملت مع العربية وهي تواجه تلك الاتجاهات الثلاثة التي تحدّثنا عنها بتفصيل فيما مضى، أولها أولئك المسكونون بداء (النستولوجيا)، وهو «التوق غير المتوازن للماضي، أو إلى استعادة وضع

---

(١) الثقافة التلفزيونية، ص١٧.

(٢) العولمة المؤنسنة، الحسن بن طلال، ص٥، مجلة المنتدى، العدد ٢٢٣، يوليو ٢٠٠٥.

يتعذّر استرداده» [١]، ومن الممكن تفسير هذا الوضع من حيث إنّه «ناتج إلى حدّ كبير عن عدم قدرة الذات على التكيف مع المستجدّات ، والمتغيرات، خاصة إذا كانت متسارعة، وعظيمة الأثر، وعدم القدرة على الاندماج الاجتماعي» [٢]، وتؤمن هذه الفئة بالنقاء اللغوي، وبالمفهوم التقليدي لعصور الاحتجاج مع التمسك بشروط الفصاحة القديمة، وإغفالهم إغفالاً يكاد يكون تاماً مع ما أحدثته اللسانيات من انقلاب جذري في الدرس اللغوي، ورفضهم مجرّد النظر إلى العاميات بحسبان أنّها مرض يجب العمل على التخلص، والشفاء منه بلا استعمال لعلاج يوصون به، و «ما تمسّكهم بالفصحى إلا من ضمن تلك النزعة الماضوية المرضية، فهي نزعة حنين إلى ماضٍ يحلمون باسترداد مجده القديم» [٣].

إنَّ هذه الفئة أقرب إلى أن تكون وكأنَّها تحيا في جزيرة منعزلة، أو تعيش في هذا العصر المتسارع، وليس لها منه سوى الهواء الذي تتنفّسه الذي يكفل لها الحياة، أمّا ماعدا ذلك فهو للماضي بقيمه، وقوانينه اللغوية، وسلطته المعرفية، ومن المؤكد أنَّ هذا العصر بإيقاعه المتبدّل كفيل بجعل هذه الفئة تتآكل شيئاً فشيئاً، أو تفقد أيّ دور فاعل لها في الحياة الفكرية ، وذلك بسبب الفجوة الكبيرة بينها وبين هذا العصر، وعدم قدرتها على الاستمرار وهي تحمل تلك القوانين، والتصورات، وعلى النقيض منها تماماً، وهي الفئة الثانية، تلك التي ألقت بزمام أمرها، وأوكلت قيادها إلى هذه العولمة بخيرها وشرّها بلا نقاش يذكر، أو حساب معها، أو مع الذات في الأقلّ، إذ ترى فيها خيراً عميماً، ونفعاً عظيماً، أليس ما نراه بأعيننا، ونلمسه بأيدينا هو من منجزات هذه العولمة؟ ،فلنأخذها كما هي بلا تغيير، أمّا اللغة فمحسوم أمرها كما حسم فريدمان أمره معها من قبل، فهو لصالح الإنكليزية ، ومَنْ سواها قادر على نقل ثمرات العولمة وبركاتها؟ فقد «أصبحت رمزاً للتميّز الاجتماعي، وزيادة التأهل لسوق العمل المحلي والعولمي» [٤]، بالإضافة إلى قدرة سريعة متلاحقة على التواصل مع أحدث ما تنتجه (التكنولوجيا) الحديثة، بل نستطيع القول إنَّ هذه الفئة تعمل على سدّ المنافذ على العربية ؛ لكي تأخذ مكانها الطبيعي في مواقع مختلفة، بينما تمهّد السبل، وتتخذّ الوسائل أمام اللغة الأجنبية ؛ لتصبح هي اللغة الوحيدة في وسائل الاتصال، والتعليم، وكسب الرزق يسندها في هذا تخطيط منظّم، ورأسمال كبير، الأهمّ من هذين ما نلمسه من بثّ روح اليأس ، والإحباط في نفوس أهل العربية من فائدة

---

(١) تركي الحمد، ص٣٨.

(٢) الثقافة العربية في عصر العولمة .

(٣) الفجوة الرقمية، د. نبيل علي ود. نادية حجازي، ص٣٦٤.

(٤) المرجع السابق، ص٣٧٥.

العربية، وإمكانية تطوّرها، أو اتخاذها لغة أصيلة في هذا الذي تأخذ به، وتدعو إليه، ولا يمكن بعد هذا أن ننتظر من هذه الفئة تقديم حلول لمشكلة العربية، فهذا ممّا لم يدخل في حسبانها، وإن دخل فهو العمل على الضدّ منه تماماً كما أشرنا، ولعلّي أستطيع القول: إنَّ هاتين الفئتين تعيشان في ظلّ وهم واحد ، هو الانسياق المحكوم بوعي زائف لا يمكنه التمييز بين ظواهر الأمور، وما تبطنه في داخلها من خفايا، ومفاجآت ، ويؤدي هذا الانسياق إلى أمرين هو في حقيقته أمر واحد وهو انسحاق الفئة الأولى، وذوبان الفئة الثانية، هو أمر واحد كما أسلفت وإن اختلفت الأشكال والصور.

وتبقى هذه الفئة الثالثة التي تنظر إلى الأمور بعقلانية صارمة ، ومنهجية مستمدّة من فهم واقعي لما يجري يهديها إلى اصطناع الوسائل الممكنة للاستعداد للعولمة، وذلك من خلال العمل في محيطين يكادان يكونان متّصلين أولهما الاعتزاز بالعربية ، وكشف إمكاناتها الهائلة، وإثبات قدرتها على البقاء، واحتواء هذا الجديد، أمّا الثاني فمحاولة جادّة لتضييق الفجوة إن لم يكن ردمها بين العربية، وهذا العصر المتسارع من حيث تحديث نظم التعليم ما قبل الجامعي، والجامعي، والنظر بجدّ إلى مناهج التعليم فيهما، واعتماد الخطط في اكتساب اللغة [1]، وتوجيه الاهتمام إلى تلك (الفضائيات) التي تلقي في كلّ دقيقة بسيل من الأفكار، والقيم تحملها اللغة الأخرى لتعمل عملها في الانسلاخ من المناخ اللغوي العربي من خلال إدراك واعٍ لأثر تلك الفضائيات على العقل، واللسان معاً، وذلك بإيجاد البديل المناسب لها على اعتبار «أنَّ الصورة لا تقاومها إلا صورة تملك الدرجة نفسها من القوة ، والتعبير، والمصداقية، فالصورة اليوم هي ثقافة ، وفكر، وإنتاج اقتصادي، وتكنولوجي، وليست مجرّد متعة، أو محاكاة فنية» [2]، غير أنَّ ما أصابته هذه الفئة من نجاح يعدّ قليلاً جداً بالقياس إلى ما أحرزته الفئتان السابقتان من انتصارات، وما احتلّتاه من مواقع، فركيزة الأولى، وعمادها الأول هو التراث، أو لنقل فهمها الخاص للتراث النابع من قناعتها، وهي تتخذه درعاً واقياً وحصناً حصيناً تحتمي خلفه لبثّ مقولاتها من جهة ، والهجوم على مواقع الآخرين من جهة أخرى، فإذا رأت اقتراباً ممّا

---

(١) ينظر الفجوة الرقمية، ص٣٧٢.

(٢) الثقافة التلفزيونية، د. عبدالله الغذامي، ص٢١٦.

تعدّه من حماها عمدت إلى تلك التهم الجاهزة فصبّتها على مَنْ اقترب، وتنثال عبارات «الخيانة، والتآمر، والتنازل عن الهوية، والتسول الثقافي، واجترار المقولات الاستشراقية، والتخاذل العقلي أمام الفكر الغربي» [1]، على رؤوس أولئك القائلين باستخدام العامية مثلاً، أو الداعين إلى حلول وسطى معينة لحلِّ هذه الإشكالية ، ولا تختلف الفئة الثانية عنها كثيراً، فعدّتها من التهم وفيرة هي الأخرى، فعبارات الانكفاء، والتخلف، والقصور الذهني، والانشقاق عن العصر جاهزة هي الأخرى لتنزل على أولئك المخالفين لهم حتى وإن كانوا من الفئة الثالثة، وهي حال غريبة سببها الفوضى الفكرية التي تضرب أطنابها في مجتمعاتنا، وغياب التخطيط القائم على الإحصاء الذي يؤدي إلى التنظيم فالنجاح.

ويكفي أن نقدّم نموذجين على الفوضى التي تعمّ التعامل مع هذه الاتجاهات الثلاثة التي وقفنا عندها فيما سبق، فالمدرسة التي من المفترض أن تكون الأساس الأول في تعليم اللغة تعليماً قائماً على المنهجيات الحديثة أصبحت «أشبه بسيرك غاب صاحبه، أو عجز عن ترويض عصبته: مدرسون غير منتظمين في الدوام، أو عاجزون عن تقديم المعرفة، وتلاميذ يتصايحون، ويتشاجرون، ويعبثون، وأجهزة ناقصة، أو متخلّفة» [2]، هذا عن المدرسة التي ترعاها الدولة، والعربية فيها هي اللغة الأولى، أمّا المدارس الخاصة التي تجعل من اللغة الأجنبية لغتها الأولى فعلى النقيض من هذا الوضع تماماً: دوام منتظم، ومدرسون أكفاء، وخطة مرسومة لتعليم اللغة ، فإذا وازن المنصف بين الكفتين رجحت الثانية، وهي في النهاية لصالح اللغة الأجنبية مع أنَّ العربية قد سيقت إلى هذا المصير على يد أهلها، وهي منه براء ، ويتحدّث د. نبيل علي عمّا يسميه بـ (الردّة اللغوية) ، ويضرب له مثلاً بالجزائر التي فُرضت عليها الفرنسية بسبب الاستعمار كما هو معلوم، أمّا بعد الاستقلال فقد عمد (حزب فرنسا) على إثبات الفرنسية، وإقصاء العربية مرة أخرى، بَيْدَ أنَّ (حزب فرنسا) هذا «يكاد يقيم له فروعاً مشابهة في كثير من البلدان العربية منها مصر، ولبنان، والأردن، ودبي، وقطر... فها هي الثنائية اللغوية تتسلّل إلى مجتمعاتها من خلال استخدام اللغات الأجنبية في مراسلات قطاع الأعمال، بل في بعض المؤسسات

(١) الفجوة الرقمية، ص٣٦٤.

(٢) خاطرات مؤتلفات، د. كمال بشر، ص٢٤٧.

الرسمية، ومؤسسات التعليم الجامعي، وما قبل الجامعي»[١]، وواضح أنّ المقصود بـ(حزب فرنسا) هو دلالته المجازية التي تشمل أيّ اتجاه يدعو إلى تغليب الأجنبية، أيّ أجنبية على العربية ، ويعمل على انتشارها ، ويجد مَنْ يسانده من الداخل، ولذلك نقف موقف المستغرب من موضع آخر في الكتاب نفسه حين يتبنّى قولة مَنْ قال: «إنّ الإصلاح اللغوي يتمّ على يد الجماعة الناطقة بها، أي من أسفل إلى أعلى، لا من خلال قرارات فوقية تفرض على اللغة قسراً»[٢]، ويتخذ من العبرية عبرة تلك التي « أحياها أهلها بعد موت طال قروناً، وحافظوا على حيويتها برفض قاطع لخطاب ديني يرفع شعار النقاوة، والطهارة»[٣]، وكأنَّ العبرية قد مسّتها رعشة الحياة هكذا بلا قرار سياسي، أو تمويل مالي ضخم، أو تنسيق بين السياسي من جهة، وعلماء اللغة من جهة أخرى ، وهذا ممّا تفتقر إليه العربية في حالها الحاضر حتماً.

إنَّ هذه الفوضى راجعة بالتأكيد إلى غياب التخطيط ، ومحاولة الفكر العربي اللحاق بالجديد بلا وعي لمزالق هذا اللحاق، والثمن الواجب دفعه، وفي مؤتمر عقد في رحاب جامعة السلطان قابوس سنة ٢٠٠٤ هو (مؤتمر اللغة العربية في التعليم: الهوية والإبداع) اتفق المجتمعون على ضرورة ائتلاف مجموعة من الأمور لانتشال العربية ممّا هي فيه، يأتي في مقدمتها القرار السياسي الذي يوجّه دفّة الأمور، وينظّمها، ويأتي بعد هذا التنسيق بين أصحاب القرار، والمهتمين بأمر العربية كلٌّ في مجاله: التربوي، والإعلامي، واللغوي... الخ، بحيث تنتظم الجميع سياسة لغوية واحدة، وأضيف هنا أنَّ ما يحكم تلك السياسة هو ضرورة الالتفات إلى ما كان قد بيّنه المفكر البريطاني أزايا برلين للتمييز بين ثقافتين متّخذاً من القنفذ ، والثعلب رمزين لهما ، «فضربٌ منهما ينطوي على نفسه فيكون كالقنفذ في طبيعته، والضرب الآخر متطلّع يجول في فجاج الأرض يلتمس المعرفة حيثما وجدها فيكون أشبه بالثعلب في جولاته»[٤].

---

(١) الفجوة الرقمية، ص٣٧٠.

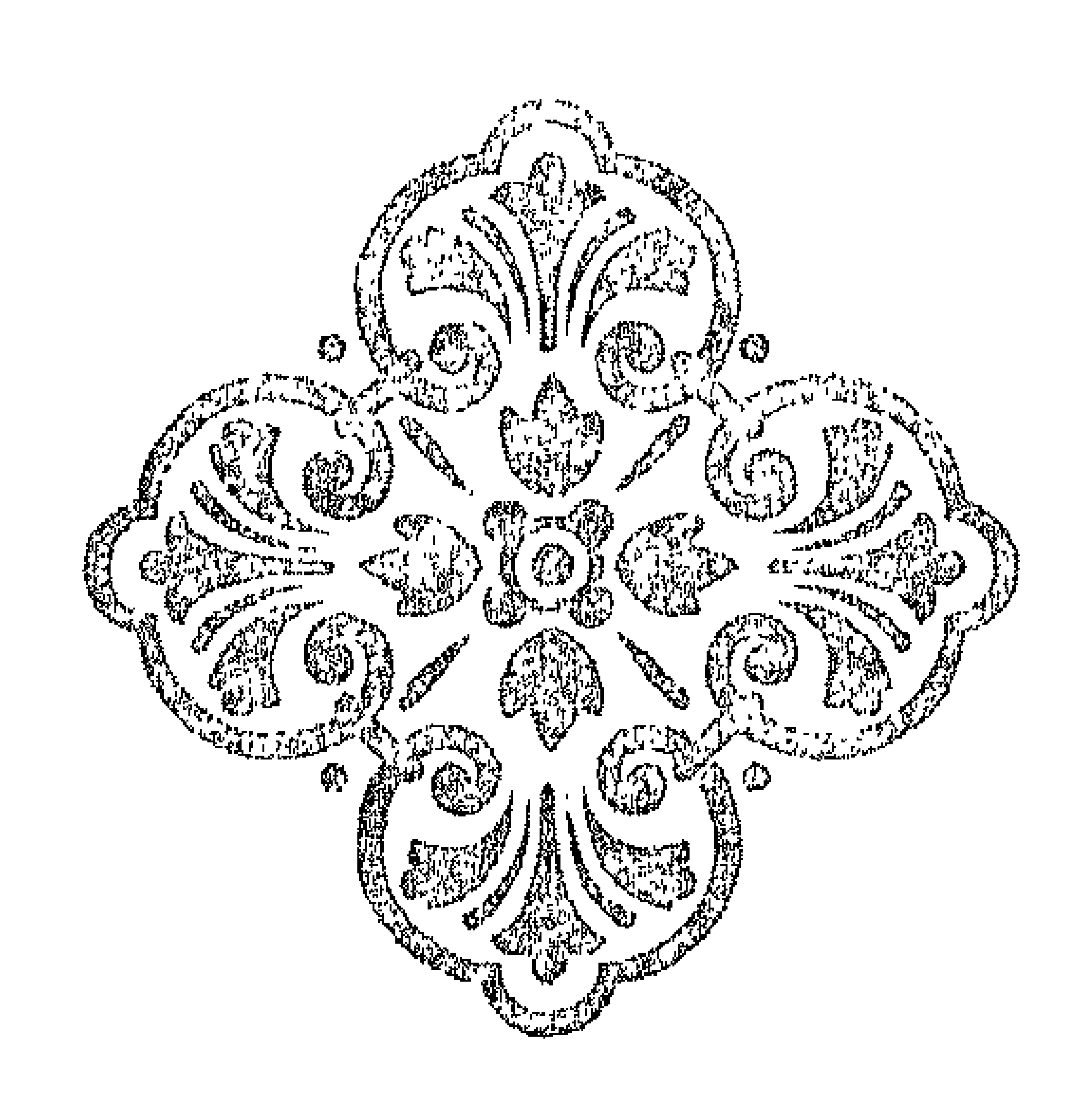
(٢) المرجع السابق، ص٣٧٠.

(٣) السابق، ص٣٦٩.

(٤) هذا العصر وثقافته، د. زكي نجيب محمود، ص١١٥.

نعم، نحن بحاجة إلى ثقافة الثعلب لكي نفهم العالم من حولنا، ونكفّ عن الشكوى، والتذمر، وإلقاء اللوم على الآخرين، ولن يتحقّق هذا بغير الاستعداد، والتهيؤ، والإفادة من إمكانات العولمة، ولغتها بحيث نبقى واقفين لا تداخلنا تلك الهزيمة الداخلية التي هي شرّ من الخارجية ، وعند ذاك نتمكن من التفكير العقلاني، واتخاذ القرار المناسب، ونحفظ للعربية قدرها، ومكانتها التي هي ـ عند النظر الحقّ أقدارنا، ومكانتنا ـ بعد أن تفرّقت بها السبل، ولعلّي أختم كلامي بما قاله شيخ المعرة، وحكيمها، أبو العلاء من بعيد:

الغيب مجهول يحار دليله | واللّبُّ يأمر أهله أن يتّقوا
لا تظلموا الموتى وإن طال المدى | إنّي أخاف عليكمُ أن تلتقوا
إن مسّكم ظمأ فقولُ نذيركم | لا ذنب لي قد قلتُ للقوم استقوا



المصادر والمراجع

١- أدب الكاتب، ابن قتيبة الدينوري، حقّقه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٢.

٢- تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر، سنة ١٣٠٦هـ، بيروت، دار مكتبة الحياة.

٣- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، د. نفوسة زكريا سعيد، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٤.

٤- تحديات الهوية العربية، د. أحمد درويش، دراسة منشورة ضمن كتاب ندوة (العولمة والخصوصية الثقافية). جامعة السلطان قابوس. سنة ١٩٩٩.

٥- الثقافة التلفزيونية، د. عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى. سنة ٢٠٠٤.

٦- الثقافة العربية في عصر العولمة، تركي الحمد، دار الساقي، بلا تاريخ.

٧- جذور العولمة، محمد حسين مرتضى عرفة، دار الطارق للدراسات والثقافة والنشر. دمشق. الطبعة الأولى. سنة ٢٠٠٣.

٨- حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، د. محمد ضاري حمادي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية. سنة ١٩٨٠.

٩- خاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة، د. كمال بشر. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٩٥.

١٠- درس تاريخي في العربية المحكية، د. إبراهيم السامرائي، عالم الكتب، القاهرة، سنة ٢٠٠٠.

١١- السامي في الأسامي، الميداني، نشره ورتبه: د. محمد موسى هنداوي، دار ومطابع الشعب، القاهرة، سنة ١٩٦٧.

١٢- السيارة ليكزس وشجرة الزيتون، توماس فريدمان، ترجمة: ليلى زيدان، مراجعة: فايزة حكيم، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٠.

١٣- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، دار الكتب، القاهرة، سنة ١٩١٣.

١٤- صراع اللغات في القرن الحادي والعشرين، مجدي شرشر، مجلة الهلال، أبريل سنة ٢٠٠٠.

١٥- العولمة المؤنسنة، الحسن بن طلال، مجلة المنتدى، مجلة فكرية ثقافية يصدرها منتدى الفكر العربي، الأردن، العدد (٢٢٣) سنة ٢٠٠٥.

١٦- العولمة والعولمة المضادة، د. عبدالسلام المسدي، كتاب سطور، بلا تاريخ.

١٧- الفجوة الرقمية، د. نبيل علي. د. نادية حجازي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس، سنة ٢٠٠٥.

١٨- فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية، د. عبدالله حامد محمد، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، يناير، مارس. سنة ٢٠٠٠.

١٩- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٢.

٢٠- في مفهوم العولمة، السيد يسين، بحث منشور في كتاب ندوة (العرب والعولمة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٠.

٢١- قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، د. نهاد موسى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٧.

٢٢- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

٢٣- لغات آيلة للانقراض، محمد القدوسي، مجلة دبي الثقافية، العدد التاسع، فبراير، سنة ٢٠٠٦.

٢٤- اللغة العربية كائن حي، جورجي زيدان، مطابع دار الهلال، القاهرة، بلا تاريخ.

٢٥- اللغة العربية في عصر العولمة، د. أحمد الضبيب، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١.

٢٦- اللغة العربية في مرآة الآخر، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمّان، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٥.

٢٧- اللغة العربية وتحديات العصر، ريمون طحان، دنيز بيطار طحان، منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٤.

٢٨- المشكلة اللغوية العربية، سمر روحي الفيصل، جروس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٢.

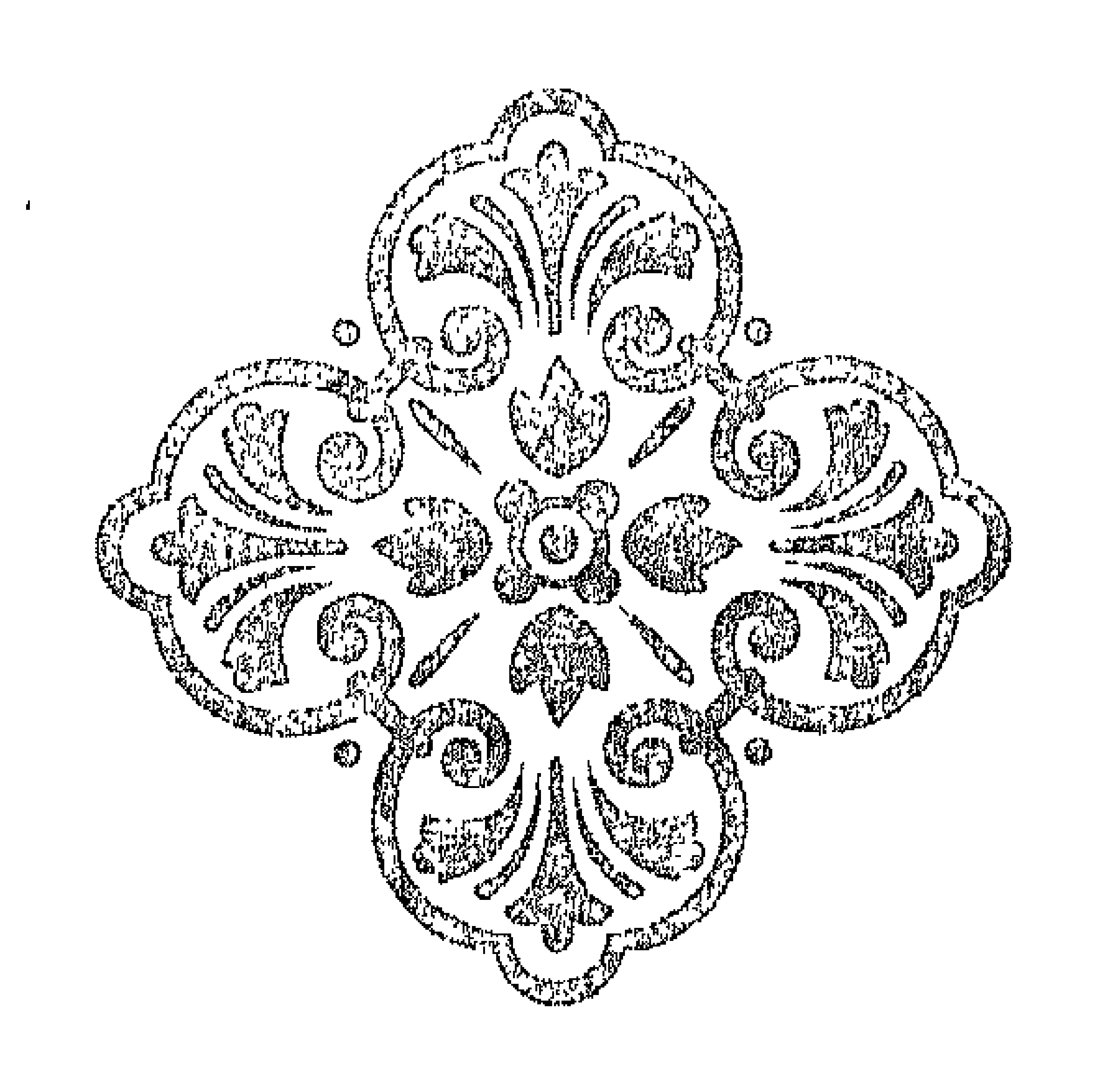
٢٩- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

٣٠- مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة، د. حمزة بن قبلان المزيني، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الثالث والخمسون، تموز، كانون الأول، سنة ١٩٩٧.

٣١- ملكة اللغة العربية ونموها في وضع الازدواج والتعدد، عبدالقادر الفاسي الفهري، بحث منشور في كتاب ندوة قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سنة ١٩٩٣.

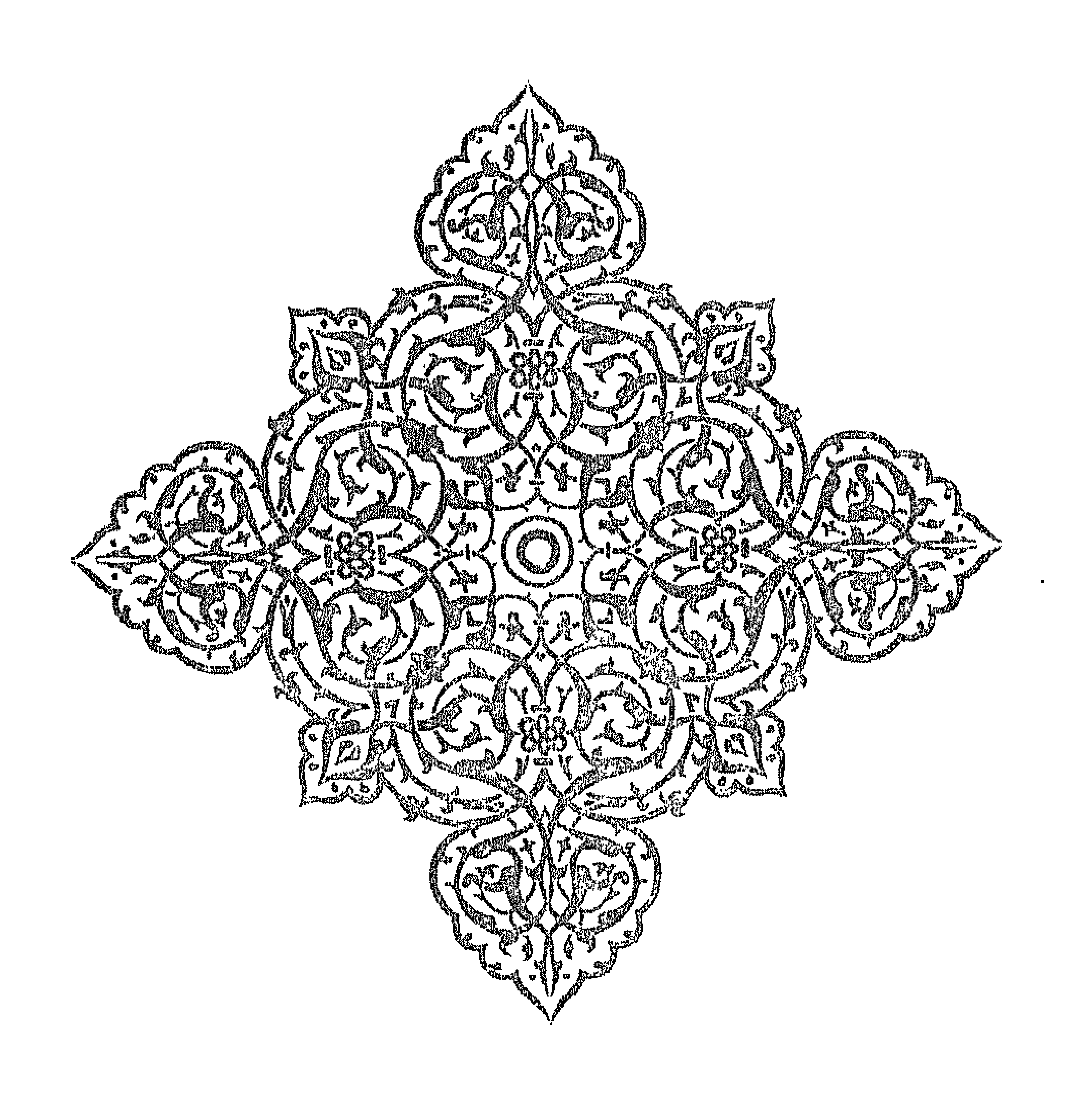
٣٢- من النهضة إلى الردة، جورج طرابيشي، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٠.

٣٣- هذا العصر وثقافته، د. زكي نجيب محمود، دار الشروق، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٠.





(*) يشغل حاليا الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) في فاس بالمملكة المغربية، ورئيس معهد الدراسات المصطلحية بجامعة سيدي محمد بن عبدا لله بالمملكة المغربية، ومستشار في العديد من الدوريات المتخصصة منها: مجلة الأدب الإسلامي، وعضو في العديد من المنظمات والهيئات العلمية كالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، ورابطة علماء المغرب.



بسم الله الرحمن الرحيم

-١-

الهُويّة مصطلحا ومفهوما:

الهُوية بضم الهاء، لا بفتحها، خلافا للخطأ المشهور، وكسر الواو غير المشددة وتشديد الياء: مصدر صناعي؛ من الضمير «هو» زيدت عليه الياء المشددة والتاء لصياغة المصدر كما تقتضيه الصناعة، وذلك للدلالة على الخصائص التي يشير إليها الضمير «هو» ويلحظ في تعريفها قديما اتجاهان كبيران:

١-٢-١- **اتجاه فلسفي:** ولعله الأسبق، وهو الذي يلح على التفرد والتميز والخصوصية. قال الفارابي: « قولنا إنه هو إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك»[1] وجاء في كليات الكفوي أن: « الأمر المتعقل من حيث إنه معقول في جواب ما هو يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه على الأغيار يسمى هوية، ومن حيث حمل اللوازم عليه يسمى ذاتا »[2].

١-١-٢- **اتجاه صوفي:** وهو الذي يلح على الغيبية، وتركز الحقيقة قال صاحب التعريفات عن الهو: إنه: « الغيب الذي لا يصح شهوده للغير، كغيب الهُوية المعبر عنه كنها باللاتعيّن، وهو أبطن البواطن »، وقال أيضا عن الهوية: إنها «الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق»، وبذلك تظهر سمتان بارزتان من سمات مفهوم الهوية هما: التميز، وتضمن المقومات.

إذ مدار الأمر على مجموعة المقومات الأساسية المكونة للخصوصية المميزة لكيان ما على آخر، فحيثما وجدت المقومات المميزة لكيان ما، وجدت الهوية، سواء كانت هوية وطنية، أم هوية ثقافية، أم هوية سياسية، أم غير ذلك من الهويات في مختلف الاستعمالات.

والإضافة الجوهرية البارزة في الاستعمال المعاصر للهوية، هي في تفصيل موضوع المقومات: أي المكونات الأساسية التي يمثل التميز فيها مناط الخصوصية للهوية. وأبرزها ستة: الدين، واللغة، والثقافة، والجنس، والأرض، والتاريخ، وفيها الأصل وفيها الفرع،

---

(١) المعجم الفلسفي لجميل صليبا، ج٢ ص: ٥٣٠، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١/ ١٩٧٣م، (عن التعليقات ص:٢١).

(٢) المعجم الفلسفي لجميل صليبا، ج٢ ص: ٥٣٠ (عن الكليات للكفوي) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية للشاهد البوشيخي، ص:٢٧، فاس: ٢٠٠٢.

وفيها الأهم وفيها المهم (حسب الهويات الدينية ، أو الطينية ، أو المركبة منهما)، فهل الهُوية الإسلامية تقوم على كل ذلك؟ وما المقصود بالهُوية الإسلامية قبل ذلك؟

- **مفهوم «الهُوية الإسلامية»:**

لا جرم أن «الهُوية الإسلامية» اصطلاح مركب من عنصرين: عنصر «الهوية» الموضوع، وعنصر «الإسلامية» الوصف القيد، وبما أن «الهوية» - كما تقدم - هي «مجموعة المقومات الأساسية المكونة للخصوصية المميزة للكيان »، وأن «الإسلامية» وصف يقيد تلك الهوية، ويحصرها في إطار الإسلام فقط دون سواه ، فإن «الهُوية الإسلامية» ستكون لا محالة : هي مجموعة المقومات الأساسية المكونة للخصوصية المميزة للكيان الإسلامي فردا كان أم أمة.

وتلكم لا شك هي:

أولا : الإسلام دين الله ﷻ الذي لم تعرف البشرية دينا لله سواه ، ولا يقبل الله تعالى من خلقه دينا سواه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2] هو الذي على أساسه وحيا ربانيا : قرآنا ، وسنة، تشكل الفرد المسلم في أول مرة فكان هو ما هو، وكذلك يكون يوم يتشكل على أساسه في أي مرة ، والذي على أساسه تشكلت الأمة المسلمة في أول مرة، فكانت هي ما هي ، وكذلك تكون يوم تتشكل على أساسه في أي مرة ، إنه الأساس الأعظم والأصل الأكبر للهوية الإسلامية ، إليه يرجع كل ما سواه ، وعليه بُني ويبنى كل ما سواه.

ثانيا: اللغة العربية، وقد اختارها الله ﷻ لكتابه، ورفع ذكرها بذكره، ونشرها بانتشاره، وخلدها إلى الأبد بخلوده؛ إذ لولا القرآن العظيم الذي تكفل الله ﷻ بحفظه، لكانت اللغة العربية اليوم في خبر كان، ولكانت ضمن اللغات البائدة التي عفى عليها الزمان. فهي فرع على أصل، ولكنها مقوم ضروري من مقومات الهُوية الإسلامية؛ إذ كيف يفقه مسلم دينه دون العربية؟ وكيف يتصور توحد الأمة المسلمة على لسان غير العربية؟

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .

ألا ليت المسلمين في أدنى الأرض وأقصاها يعلمون أن العربية من الدين، فيسارعون أفرادا إلى تعلمها حبا في الدين، ويسارعون دولا إلى تعليمها، فتقريرها لسانا رسميا للدولة، تسريعا لوحدة المسلمين.

ثالثا: التراث المستنبط من الوحي أو الخادم له؛ إذ هو خلاصة تفاعل الأمة المسلمة مع التاريخ وفي التاريخ، وهو ممثل كسبها وإسهامها الحضاري في مختلف المجالات. إنه مَجْلَى الذات وخزان الممتلكات، ولا يمكن أن نعرف الذات إذا لم نفقه التراث. وهذه الثلاث هي الشق المعنوي من المكونات. ومن بعدها يأتي: التاريخ الذي هو الظرف الزماني المشترك للمسلمين، ثم الأرض: التي هي الظرف المكاني المشترك للمسلمين. وهما معا الممثلان للشق المادي من المكونات؛ وبدونهما لا تمثل للذات في الواقع، ولا تشخص للشق المعنوي من المكونات في فرد أو أمة داخل الزمان والمكان.

-٢-

الأمة الإسلامية اليوم بين ضغط الواقع المشهود وجذب الموقع المنشود

٢-١- موقع الأمة المنشود:

لا جرم أن هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[1]. وقال جل من قائل ﴿ ۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[2] «فموقع الأمة هو الشهادة على الناس، وهو جعل من الله رب الناس، ملك الناس، إله الناس، كما جعل آدم في الأرض خليفة، وكما جعل إبراهيم إماما للناس، وكما جعل البيت مثابة للناس، وكما جعل وجعل...»[3].

ومقتضى هذا أن تكون هذه الأمة إماما للناس، وأن تكون لها الريادة، والقيادة والسيادة على الناس، وأن تكون السباقة إلى كل ما به يكون التمكن في الأرض، مما ينفع الناس ويمكث

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٢.

(٣) نفسه، ص: ٢٧-٢٨.

في الأرض ؛ لتقيم القسط بين الناس، وتمنع العلو والفساد في الأرض ، لكن هل يمكن أن تكون كذلك، قبل أن تستجمع الشروط اللازمة لذلك؟ هل يمكن أن تكون كذلك قبل أن تكون:

أولا: أمة، تؤم جميعها، أفرادا وشعوبا، ما أمرها الله ﷻ أن تؤم ، وتأتم جميعها بها وبمن أمرها الله ﷻ أن تأتم، ويؤمها إمام واحد لا غير، هو الأحق في ميزان شرع الله جل جلاله أن يؤم.

ثانيا: وسطا؛ أي «خيارا عدولا»؛ إذ كيف يتوسط غير الخيار؟ وكيف يشهد غير العدول؟ إلا إذا انقلبت الموازين، وبُدِّلت فطرة الله التي فطر الناس عليها، وغُيِّر خلق الله إبرارًا لقسم الشيطان : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾[1] فـ «لا وسطية بغير خيرَة، كما نصت الآية الأخرى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[2]. ولا خيرة بغير قوة وأمانة: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾[3]. وإنما توسد الأمانة للأقوياء لا للضعفاء. قال رسول الله ﷺ: « يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة »[4] .

ومع ذلك، كل ذلك لا يكفي لأداء الشهادة ، إذ لابد من الشهود أي الحضور لأداء الشهادة، وحين تكون الشهادة بالخيرة؛ أي بالحال أساسا قبل المقال ، ومن أمة لا من أفراد، وعلى الناس جميعا لا على بعضهم، فإن الشهود والحضور لابد أن يكون حضاريا ، أي حضورا بالإمامة في كل المجالات، وعلى جميع المستويات، وفي كل الأوقات[5].

ذلكم هو موقع هذه الأمة العلي، فهل واقعها المشهود كذلك؟ كلاّ ثم كلاّ.

---

(١) سورة النساء : الآية : ١١٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ١١٠ .

(٣) سورة القصص : الآية : ٢٦ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها .

(٥) نفسه ، ص : ٢٩ .

٢-٢- واقع الأمة المشهود:

إن الأمة للأسف اليوم في مؤخرة الناس، بدل أن تكون في مقدمة الناس، بل إنها حسب واقعها يصعب أن يصدق عليها لفظ الأمة، إنها أشبه ما تكون ببقايا أمة، إنها أشلاء أمة وقطع غيار أمة متناثرة على وجه الكرة الأرضية، يعتورها الضعف من كل جانب: ضعف القوة بجميع أنواعها: العلمية، والإعلامية، والاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وغيرها، وضعف الأمانة بمستوييها الكبيرين اللذين أمرها الله ﷻ بهما في كل شيء: العدل والإحسان، وإن كان لها من قوة فهي قوة القابلية للتبعية، قوة «القابلية للاستعمار» بتعبير مالك بن نبي - رحمه الله تعالى -، قوة المسارعة في الخضوع والدوران في فلك الآخر القوي رغبا أو رهبا على حساب الدين؛ كأنها المعنية بقول الله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]. وكأنها غير المخاطبة بقول الله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2].

أمة هذه حالها لا بد أن تتداعى إليها الأكلة من كل حدب وصوب، لابد أن تكثر عليها الضغوط، وتتزاحم عليها الأطماع، لا سيما وأن قصعتها من أوسع القصاع وأغنى القصاع وأشهى القصاع، ومن شأن الضغط أن يولد الانفجار كما يقال، ومن شأن الفعل أن يولد رد الفعل. ولذلك كان لابد من تدافع بين من يستجيب لضغط الواقع، ومن يستجيب لجذب الموقع.

٢-٣- تدافع ضغط الواقع وجذب الموقع:

في الخارج عولمة تفغر فاها لتبلع، وفي الداخل رؤوس تخشى بأسها فتخضع وتركع، وبالقواعد خلايا حية، يستفزها الواقع ويجذبها الموقع فتتكاثر وتدفع، وبين كل ذلك التدافع على أشده، تدافعا ينذر أقواما بشر، ويبشر آخرين بخير، ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا

(١) سورة المائدة: الآية: ٥٢.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٢٠.

دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [1]. فما هو واقع هوية الأمة في ظل هذا التدافع بين العولمة والتعولم من جهة، ومن يواجه العولمة والتعولم من جهة ثانية؟

- ٣ -

واقع الهُوية الإسلامية للأمة في ظل منظومة العولمة

٣-١- طبيعة الإسلام وطبيعة العولمة:

« العولمة أضخم غول، وأشرس غول، أمكن لعبدة العجل إنتاجه : رأسه رأس عجل جسد له خوار، وجذعه الذي يحمل رأسه ويغذيه، التكتلات والشركات المتعددة الجنسيات العالمية الضخمة ، وأذرعه التي يبطش بها البنوك والمنظمات الدولية؛ كالبنك الدولي ، وصندوق النقد الدولي، ومجلس الأمن وغيرها ، وأسلحته ذات الرؤوس النووية المدمرة للحضارات والثقافات ، والديانات هي المصطلحات من أجل المصطلحات؛ بها يهيئ الأجواء، في الأرض وفي السماء، و بها يخيف الضعفاء والأقوياء على السواء، وعلى أساسها يقرّب البعداء ويبعد الأقرباء، وحماية لها — بزعمه — يضرب ما يشاء، بما يشاء، كما يشاء، في الزمن الذي يشاء، والمكان الذي يشاء ،وكأن حاله يقول: أنا ربكم الأعلى، وأليس لي ملك الأرض، وهذه الشعوب تبكي من تحتي؟ ومن أبرز تلك المصطلحات التي أعدها ويعدها لسحق ومحق الديانات ، والثقافات والحضارات، تمكينا لدين العجل، وثقافة العجل، وحضارة العجل : مصطلح حقوق الإنسان، ومصطلح الشرعية الدولية، ومصطلح الديمقراطية ، ومصطلح النظام العالمي الجديد الذي تطور حسب المرحلة إلى العولمة، ويلحق بها ، مما هو دونها، كثير..». أما الإسلام فهو رحمة الله تعالى المهداة إلى عباده، أنزله قرآنا فكان شفاء ورحمة للمؤمنين، وأرسله رسولا فكان رحمة للعالمين ، وجسّده أمةً وسطًا فكانت خير أمة أُخرجت للناس: « أَخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وأخرجت الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وأخرجت الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ».

تسارعت إليه شعوب الأرض، وعضت عليه بالنواجذ مذ عرفته ، وتسابق إليه الخيار من كل الأقطار ولا يزالون، يحملونه أحيانا أقوى وأشد مما حمله إليهم الحاملون ، وما خبر

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٥١ .

علماء الأمصار غير العربية في مختلف العلوم كالبخاري ومسلم بخفي ، ولا خبر فاتحي الأندلس والقسطنطينية بسر.

وما ذلك إلا لأنه: قال ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾[١]، وإلا لأن الناس فيه سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربيهم على عجميهم ، ولا لعجميهم على عربيهم إلا بالتقوى ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) ﴾[٢].

وبمقارنة سريعة بين الطبيعتين يمكن أن نلحظ فروقا كثيرة منها:

١- من حيث المصدر: الإسلام رباني فهو مَجْلًى لكمال الله ﷻ جمالا وجلالا، والعولمة بشرية فهي مَجْلًى للنقص البشري حالا ومآلا.

٢- من حيث المرجعية : مرجعية الإسلام شرع الله تعالى ، ومرجعية العولمة الشرعية الدولية أو شرع الأقوى.

٣- من حيث المنطلق: الإسلام عالمي، بدأ تطبيقه محليا ، والعولمة محلية بدأ تعميمها عالميا.

٤- من حيث الهدف : هدف الإسلام إقامة القسط بين الناس، وهدف العولمة السيطرة على المال الذي عند الناس.

٥- من حيث الوسائل : في الإسلام لابد من شرعية الغاية والوسيلة معا ، وفي العولمة الغاية تبرر الوسيلة.

٣-٢- واقع المكونات المادية للهوية :

إن الأرض، وهي التي تسمى، في جغرافية العصر، بالعالم الإسلامي ، فهي ممزقة شر ممزق؛ فيها الرقع الكبيرة، والمتوسطة، وفيها الصغيرة التي لا تكاد ترى على الخريطة إلا بالمجهر ، وكلها نَصَبَ لها صانعها الغرب الرايات ، وحد لها الحدود التي لا تتجاوز في الغالب إلا بتأشيرات، وخصص لسكانها البطاقات الوطنية والجوازات ، وأقام فيها أشكالا من الأنظمة والحكومات، وكأنها أمم شتى لا أمة واحدة ، ولها أديان شتى لا دين واحد، وتصلي لقبلات شتى لا لقبلة واحدة ... فإلى الله المشتكى من افتراق ما أصله الاتفاق،

(١) سورة الروم : الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الفتح : الآية :١٣ .

واتفاق ما أصله الافتراق. وأما التاريخ وليس بأحسن حالا من الجغرافية، فقد صار تبعا للجغرافيا تواريخ ، لكل رقعة تاريخها، بل تواريخها أحيانا حسب درجات التمزق، وما زال الغرب يطمع في «تحسين الحال»! لينال أكثر مما نال، وما زال يطمع ويسعى بأقصى الجهد «لتفتيت المفتت» كما يقال ، وفي كل رقعة للأسف سماعون له.

لقد «جذّر» الجذور، ونبش القبور، وحفر الحفريات، و«سلّل» السلالات ؛ ليضع لكل رقعة تاريخا خاصا بها، قبل الإسلام، وهوّل الاختلاف وهوّن الائتلاف، وغلّظ الجزئيات ورقّق الكليات، وفتّش في أضابير العصور عما يبعثر ما في القبور ويفسد ما في الصدور ؛ ليقوم له في كل رقعة كيان ما بعد الإسلام ، ولقد كان للغرب، بما كسبت أيدينا ما أراد، فنودي على الأعراق المنتنة، وظهرت النعرات القومية والوطنية والقبلية، واستغلظ أمر اللهجات، واستعلن واستعلى شأن المفهوم الضيق والسيئ للتراث ، هذا واقع المكونات المادية للهوية في الأمة اليوم فما هو واقع المكونات المعنوية؟

٣-٣- واقع المكونات المعنوية للهوية، وهي كما تقدم ثلاثة :

١ - **الإسلام** دين الله تعالى الذي رضيه لعباده جميعا وواقعه في الأمة يعرف بحال الأمة؛ ذلك بأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وقد جعل العزة للمؤمنين ، والنصر للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأخبرهم أنهم الأعلون إن كانوا مؤمنين ، ومن أصدق من الله حديثا لكن بقايا الأمة اليوم في غاية الذلة، ومنصور عليهم من ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ولا يكون ذلك إلا بحبل من الله ، وإذن فهو تسليط عدوهم عليهم، وإذن فهو عقوبة من ربهم حتى يراجعوا دينهم ، وإذن فهو الغضب والمقت والخزي ، ولا يكون ذلك إلا بتفريط غليظ في جنب الله ودين الله، فهل يتوب المسلمون جميعا إلى الله توبة نصوحا.

لقد أُبعِد أصل الدين الذي هو الوحي كتابا وسنة عن المرجعية في أغلب الأمة، وأبعدت العلوم المستنبطة منه تدبيرا للشأن العام والخاص عن الحكم في أغلب الأمة ، واعتديت الحدود، وعطلت الحدود، وصار الناس أغلب الناس في الأمة يقولون مالا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٢ - **العربية** لسان القرآن الكريم وواقعها في الأمة يعرف بواقعها في التعليم، والإعلام، والإدارة، في جميع أقطار العالم الإسلامي، ولم يصح أنها صارت لغة لكل التعليم

الرسمي بجميع مراحله، ولغة للإعلام والإدارة ، إلا في قطر واحد من تلك الأقطار! هو سوريا نسأل الله لها الثبات.

فمتى يتعرَّب لسان كل الدول العربية التي جعلت لغتها الرسمية هي العربية؟ متى يتعرب تعليمها كله، وإعلامها كله، وإد ارتها كلها؟ ، ومتى تتخذ بقية الأقطار الإسلامية اللغة العربية لغتها الرسمية؟ ومتى يتعرب اللسان متوحدا في واقع جميع أقطار أمة القرآن، ألا إن العربية من الدين، ألا إن العربية من الدين، ألا إن العربية من الدين.

٣- **التراث** الممثل في العلوم الشرعية والإنسانية والمادية التي أنتجها المسلمون ، وواقعه في الأمة يعرف بواقعه في التعليم والإعلام والقضاء ، وهو قبل ذلك فيه المعد علميا، وقليل ما هو، فهو موثق ومحقّق ومكشف. وفيه غير المعد وهو نوعان: مطبوع وهو الأقل، وأغلبه يحتاج إلى إعادة تحقيق، ومخطوط وهو الأكثر؛ وكله يحتاج إلى طبع ونشر. ومراكز وجوده في العالم لا تحصر، وما فُهرِس منها محتاج إلى مزيد تدقيق ونظر، وهذا وحده كاف للدلالة على سوء الحال. فإذا أضيف إعراض التعليم العام الرسمي عنه في أغلب الأقطار ، وقلة التفات الإعلام إليه بجميع أنواعه. وانحصاره في القضاء داخل الأحوال الشخصية، أو قضاء الأسرة، في أغلب الأقطار.

إذا أضيف ذلك ومثله، تبين لماذا يتحدث متحدثون عن خطورة «القطيعة» مع التراث، ولماذا ينشئ آخرون مراكز وجمعيات لـ «إحياء التراث»، ولماذا يلح آخرون على ضرورة الانطلاق من التراث لإعادة بنات الذات.

- ٤ -

المستقبل المتوقع للواقع بمعزل عن جاذبية الموقع

٤-١- ازدياد تدهور المكونات المادية :

وهو يتمثل جغرافيًا في مزيد من تفتُّت المتفتت، نتيجة الألغام ، التي زرعت وتزرع، والإشكالات التي اختلقت وتختلق ، واستغلالا للتناقضات المذهبية والطائفية والعرقية في الأمة؛ من شيعة وسنة، وصوفية وسلفية ، وأكراد وعرب، وغير ذلك. فضلا عن مفهوم «الوطنية» الذي فَتَّتَ قبلُ مفهومَ الأمة، ومفهوم «الجهوية» الذي يهدد بعدُ بتفتيت مفهوم الوطنية ، والبقية تأتي! هذا عن مكوِّن الأرض، أما مكون التاريخ - والجغرافيا تصنع التاريخ كما يقال - فتدهوره متمثل في مزيد من الإلحاح على التواريخ الوطنية والجهوية

الضيقة للشعوب الإسلامية كما سموها؛ إما بالاقتصار عليها فقط، أو بالتركيز عليها مع إشارة أو إشارات إلى تاريخ المسلمين، أو بعضهم في العالم ، وهذا واقع في أغلب أقطار العالم الإسلامي وسيزداد.

٤-٢- ازدياد تدهور المكونات المعنوية :

وهو يتمثل في الدين: بإزاحة أو إزالة ما ينافي العولمة من مبادئ وأفكار ونصوص ، ولو كانت وحيا، بالتدريج؛ ولاسيما في المجالات الحساسة لدى العولمة كالتعليم والإعلام ، والاقتصاد والسياسة ، وفي اللغة بالتمكين للغات الغربية ولاسيما الانلجيزية، وإضعاف اللغات الأمهات في الأقطار الإسلامية، ولاسيما العربية، وتشجيع المزاحِمات المحلية كاللهجات، وتقويتها وترقيتها إلى درجة اللغات، بعد ترميمها أو تصنيعها في المختبرات، وفي التراث العلمي بالتمكين للحديث، وتغليظه، أو الاقتصار عليه في مختلف العلوم، والترويج للحداثة ودق طبولها في كل مجال ، مما يشكل قطيعة أو ينذر بقطيعة مع التراث، والويل كل الويل حضاريا، لمن نبذ التراث أو نبذه التراث.

٤-٣- قطع طريق العودة بتغيير المفهوم أو المصطلح:

وإنما مدار عمل الشيطان وحزبه ، مذ إبليس إلى قيام الساعة ، على محاولة تغيير المفهوم وتبديل المصطلح ، أي تغيير الدين، والفطرة، والخلق، قال تعالى : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾[١] وفي الحديث القدسي: «خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم...»[٢]. وما الجهود التي بذلها المستكبرون في الأرض، المعبِّدون الناس للطاغوت، قديما وحديثا، إلا صور من تلك المحاولات ؛ لتغيير المفهوم وتبديل المصطلح.

وهذا فرعون ومؤمن آل فرعون في القديم، يتنازعون مفهوم مصطلح «سبيل الرشاد» ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾[٣]. وها هو اليوم مصطلح شريف كالجهاد، يغير مفهومه المتكبرون في الأرض، ويبدلون مصطلحه ؛

---

(١) سورة النساء : الآية : ١١٩ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٣) سورة غافر : الآية : ٣٨ .

ليصير إرهابا، بعد أن غيروا مفهوم الإرهاب ليصير فعلا بعد أن كان حالا، ومكروها بعد أن كان مطلوبا.

وكذلك الأمر في أغلب المصطلحات التي تقوم عليها الحياة؛ كالخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل، والسلام والإجرام،.. غير مفاهيمها العالون في الأرض، أصحاب الأهواء، ولووا أعناقها كما لوى فرعون عنق مفهوم الفساد، وهو يقول عن موسى ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[1]، وكأني بجميع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين في المنطق الإبليسي مفسدون، وكأني بهم في المصطلح الإبليسي المعاصر إرهابيون، ألا ما أحوج الأسماء كلها التي عُلِّمها أبونا آدم عليه الصلاة والسلام، إلى من يصونها ويحميها؛ بحراسة مفهومها، وصيانة استعمالها وتنزيلها، وما أحوج الأرض اليوم إلى من يقيم فيها مصطلح الذكر كما أنزل، لتستدير من جديد كهيأتها يوم خلق الله السماوات والأرض، ويقام الميزان والوزن بالقسط، فيقال للحق حق، وللباطل باطل.

ألا إن شأن المصطلح العام لعظيم، وتغييره أو تبديله مما يحسبه الناس هينا، وهو عند الله عظيم، ومسه بسوء مس بالنظام العام للكون والحياة والإنسان»[2].

ومن تلك المصطلحات التي تُنفَق في تغيير مفهومها الأموال، وتُسهَر من أجل تعديل لفظها الليالي لدى المعَوْلِمين: مصطلح الهوية، فقد اخترعوا ما سموه بـ «الهُوية الكونية» للقضاء على كل الهويات الخاصة ومحوها، واختلقوا ما سموه بـ «المواطنة الكونية» لإنهاء كل الوطنيات الصغرى، وهم إنما عَوْلَموا هويتهم ووطنيتهم على حساب جميع الهويات والوطنيات، كما تبتلع الشركات الضخمة العالمية بقية الشركات في مختلف الاختصاصات.

جاء في مجلة «رسالة التربية الوطنية» التي تصدرها وزارة التربية الوطنية بالمغرب[3] تحت عنوان: «المفكر الفرنسي ادغار موران – إصلاح المنظومة التربوية والثقوب السوداء» وهي محاضرة ألقاها بعد تعيينه من قبل وزارة التربية الوطنية عضوا في اللجنة الدائمة للبرامج: أحصى موران في نظام التعليم والتربية ما أسماه «سبع ثقوب سوداء» ينبغي

(١) سورة غافر: الآية: ٣٦.
(٢) العدد ٦ – أبريل ٢٠٠٦ ص ١٨.
(٣) العدد٦ – أبريل ٢٠٠٦ ص ١٨.

التفكير فيها ومعالجتها باعتبار أنه لا يمكن إصلاح المؤسسات دون إصلاح العقول، ولا يمكن إصلاح العقول دون إصلاح المؤسسات... وبخصوص الثقب الأسود السادس، أكد السيد موران على ضرورة تفسير ما يحدث في العالم ، وتأكيد أن البشر يعيشون في العالم ذاته، ويقاسون من المشاكل ذاتها ، ونشر الوعي بالانتماء لعالم واحد يعاني من مشاكل واحدة من قبيل مشاكل البيئة ، وأسلحة الدمار الشامل، ومن ثمة ضرورة خلق هوية جديدة فوق الهويات المحلية.

وأكد المفكر الفرنسي على أهمية تلقين التاريخ خاصة في إطاره الشمولي ، أو ما يصطلح عليه «بالتاريخ الكوني» والذي يمكن تقسيمه حسب موران إلى ثلاث مراحل : مرحلة الانتشار الكوني للبشر في كل القارات، تليها مرحلة اكتشاف أمريكا والدوران حول الأرض، أو ما يصطلح عليه بالحقبة الكونية بكل إيجابيتها وسلبياتها كالعبودية والاستعمار، ليخلص إلى المرحلة الحالية وهي مرحلة العولمة.

وفي الختام دعا السيد موران إلى التصدي لهذه الثقوب بالحديث عن أخلاق النوع البشري، بما يعنيه ذلك من تقابلات بين الفرد والمجتمع، وما يستلزمه من تعليم الديموقراطية، والحوار الديموقراطي، و"المواطنة الكونية" اعتبارا لكون الإنسانية الكونية قدر «الكوكب الأرضي».

- ٥ -
المستقبل المتوقع للواقع متأثرا بجاذبية الموقع

لا جرم أن الفعل يقتضي رد الفعل، وأن الهجوم والظلم يستدعيان الدفاع والرد، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] وما كان لأمة، حُمِّلت أمانة الشهادة على الناس إلى يوم القيامة أن تموت، وما ينبغي لها ، وإلا فمن يشهد على الناس بعد محمد ﷺ جيلا بعد جيل، حين تشرق الأرض بنور ربها، ويوضع الكتاب، ويجاء بالنبيئين والشهداء.

لابد من خلايا حية لا تموت، تمثل استمرار الحجة والحق الذي أنزله الحي الذي لا يموت، لابد من أحياء يغْشَى أبصارَهم ما يغشى من أنوار الموقع فيسارعون إلى الرضوان غير مكترثين بآلام الواقع، ولقد بدأت الأمة منذ سنين، في إعادة صنع الغُرّ المحجَّلين،

(١) سورة الشورى : الآية : ٣٨-٣٩ .

فوجب أن يكون لأنوارهم آثار في ليل العولمة الذي يوشك أن يُطْبِقَ، وخطرها الذي إن لم يكن قد أحدق فإنه يوشك أن يُحْدِق.

ومن تلك الآثار المتوقعة:

٥-١- تعاظم التشبث بالمكونات المعنوية للهوية:

في الدين: ستتعاظم المناداة بالتمكين للوحي كتابا وسنة، في مختلف المجالات؛ في القطاع الخاص أولا، ثم في القطاع العام ثانيا؛ تبعا لتعاظم قاعدة التائبين المتوقع، أو النابتين في بيئتها الجديدة.

وفي اللغة: سيزداد الطلب على العربية ، وسيزداد الاهتمام بها في العالم الإسلامي تبعا لتزايد الاهتمام بالدين لدى عامة المسلمين؛ إذ إتقان العربية من الدين، ولا فقه ولا استنباط من أصول الدين، إلا بإتقان العربية التي هي لسان الدين.

وفي التراث العلمي: ينتظر اشتداد الإقبال على علوم التراث في مختلف المجالات، للوصل الحضاري، والاستعداد للإبداع داخل الرؤية الخاصة للأمة.

٥-٢- تعاظم الطلب للمكونات المادية للهوية:

جغرافيًا: سيتعاظم الضغط لتصحيح ما أمكن من أنواع الجغرافيا : الاقتصادية، والسياسية والثقافية وغيرها، على أساس التقارب بين أقطار الأمة ؛ لتوسيع دائرة المشترك، في أفق ظهور تجربة جديدة لوحدة الأمة الإسلامية؛ تأخذ خير ما في التجارب البشرية الحديثة، وتدع شر ما فيها ، ومن ذلك مثلا شكل الولايات المتحدة الإسلامية ، والضغط الداخلي والخارجي معا، يدفعان في هذا الاتجاه.

وتاريخيًا: ستكثر البحوث والدراسات المصحّحة لتصوُّر تاريخ الأمة الشامل، المنقّية له مما ران عليه من تشويهات، أعدّها ورسَّخها الغرب بشقيه: الليبرالي الأزرق، والاشتراكي الأحمر، وذلك استجابة للضغطين أيضا: الداخلي الناهض من القواعد، والخارجي المصبوب من السماء عولمةً نارًا تسعى للإتيان على الأخضر واليابس من الخصوصيات والهويات.

٥-٣- خروج الهُوية الإسلامية سالمة غانمة من نار العولمة :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

العولمة فيما يظهر هي المخصب الأكبر لليورانيوم الخام للأمة الذي ينشّطه ، ويجعله منتجا للطاقة الهائلة اللازمة لعودة الأمة «أمة وسطا» و«خير أمة أخرجت للناس» من جديد، وما أحوج حكماء الأمة أولي الأيدي والأبصار، إلى أن يتفكروا ثم يتفكروا في أسرار الأقدار؛ ليستيقنوا أن في طيات النقم النعم، وأن كيد الله ومكر الله أعظم، وأن الاستضعاف مؤذن بالاستخلاف ، وأن الأمر فقط يحتاج إلى يقين وصبر ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[3] . إن الأمة ستخرج بفضل الله تعالى سالمة غانمة من نار العولمة كما خرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام سالما غانما؛ أموات الأمة سيرحلون، وأحياؤها سيكثرون ، وكلما اشتدت الأزمة اقترب الفرج. وليس بعد الصبر على البلاء إلا التمكين.

- ٦ -

شروط الانتقال من الواقع إلى الموقع

«هذا الموقع العلي، كيف يتصور المسير ، والمصير إليه من هذا الواقع الدنيء ؟ كيف تنتقل الأمة الأشلاء من مشهودية الواقع إلى شاهدية الموقع؟ كيف تنتقل من الجمود والجحود إلى الاجتهاد والشهود؟ كيف وكيف وكيف؟...»[4].

عبثا نحاول إصلاح الحال قبل إصلاح العمل، وعبثا نحاول إصلاح العمل قبل تجديد الفهم، وعبثا نحاول تجديد الفهم قبل تجديد المنهج...

---

(١) سورة القصص : الآية : ٤-٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية : ٦٨-٦٩ .

(٣) سورة السجدة : الآية : ٢٤ .

(٤) القرآن الكريم والدراسة المصطلحية، للشاهد البوشيخي، ص: ١٠-١١. فاس، ٢٠٠٢ .

وما أشقّ ذلك في الأمة اليوم!! لكثرة الموانع وقلة الأسباب ؛ فكم من ترسُّبات منهجية فاسدة، أفرزتها وراكمتها قرون الضعف والانحطاط في الأمة، لا تزال مستمرة التأثير!، وكم من مقذوفات منهجية صبَّها الغرب صبًّا على رؤوس نابتة الأمة، أو نفثها في رُوعِها، فهي فاعلة فيها فعل السحر!، وليس في الواقع -للأسف- اتجاه عام، أو شبه عام، إلى صنع كواسح الركام والألغام، ولا اتجاه جاد، أو شبه جاد، إلى تصنيع ما يخلص العباد من سحرة فرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد»[1].

إنه لا بد من تحقيق شروط الانتقال؛ ليتم الانتقال، وعلى رأس ذلك:

٦-١- عودة الروح للأمة لتعود إليها الحياة وخصائص الحياة:

وإنما روح الأمة الإسلامية القرآن الكريم؛ فهو الذي به تُسْتَدْعَى أشلاؤها لتأتي سعيا، مكونةً الكيان الأول للأمة، كما حدث لإبراهيم عليه السلام مع أجزاءِ أربعةٍ من الطير حين دعاها باسم الله تعالى. كل النداءات لا تسمعها الأمة، ولا تستجيب لها الأمة، لاسيما وهي بقايا وأشلاء، إلاَّ نداء القرآن العظيم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾[2] روحا إذا حلت في الأفراد جميعا جمعتهم في جسد إيماني واحد فرد، له كل خصائص الحياة التي تكون في الجسد الواحد الفرد.

«إن روح القرآن إذا نفخت في الأمة أثمرت فيها كل وظائف القرآن: وظيفة الحياة، ووظيفة النور، ووظيفة الهداية، ووظيفة الخروج من الظلمات إلى النور، ووظيفة الشفاء، ووظيفة الرحمة».

هذا الشرط الموجَب الذي يقتضي وجود السبب، وهناك الشرط السالب الذي يقتضي انتفاء المانع، وهو:

---

(١) القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، للشاهد البوشيخي، ص:٤٧. فاس، ٢٠٠١ .

(٢) سورة الشورى : الآية : ٥٢ .

٦-٢- التخلص من مانع الجسدية، أو داء استقلال الأجزاء:

الذي يحرص كل الحرص على الحدود، والجوازات، والتأشيرات، والرايات، إلى غير ذلك من القيود المانعة من حصول المقصود ، كيف والرب واحد ، والرسول واحد ، والكتاب واحد! والقبلة واحدة، والشعائر واحدة، والأراضي لولا الحدود واحدة؟!!!

إن روح القرآن العظيم إذا تمكنت من أبناء الأمة كافية للشفاء من هذا الداء العياء ؛ فليجتهد الأحياء في كل مكان، في التمكين للقرآن في قلب الإنسان.

٦-٣- اليقين والصبر بنوعيهما:

يقين القدرة الذي جعل موسى عليه السلام يمسك العصا ثم يلقي العصا، ويقين النصرة الذي جعله يقول، والبحر أمامه، وفرعون بخيله ورَجْله وراءه، وأصحابه مستيقنون أنهم مُدْرَكون: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾[١].

وكلا اليقينَيْن كان وراء قول الحبيب محمد ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وقد رأى أقْدام الكفار في باب الغار: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وصبر الكفّ الذي يُمتحَن فيه المؤمن بالمنع من الرد، وإن كان قادرا؛ لعدم دخول الوقت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[٢].

وصبر الصفّ الذي يَحْرُم فيه التولّي يوم الزحف، إلا متحرّفا لقتال أو متحيزا إلى فئة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ ﴾[٣].

---

(١) سورة الشعراء : الآية : ٦٢ .

(٢) سورة النساء : الآية : ٧٦ .

(٣) سورة الصف : الآية : ٤ .

- ٧ -

مستعجلات الإنقاذ،

وهي ثلاثة؛

٧-١- **ضرورة توحيد القبلة للجميع:** أفرادا وأقطارا، وهي «الأمة المسلمة» الواحدة؛ بإقامة التوجه نحوها لإقامتها، عبر المراحل اللازمة، بالأشكال الملائمة، كشكل الولايات المتحدة الإسلامية مثلا.

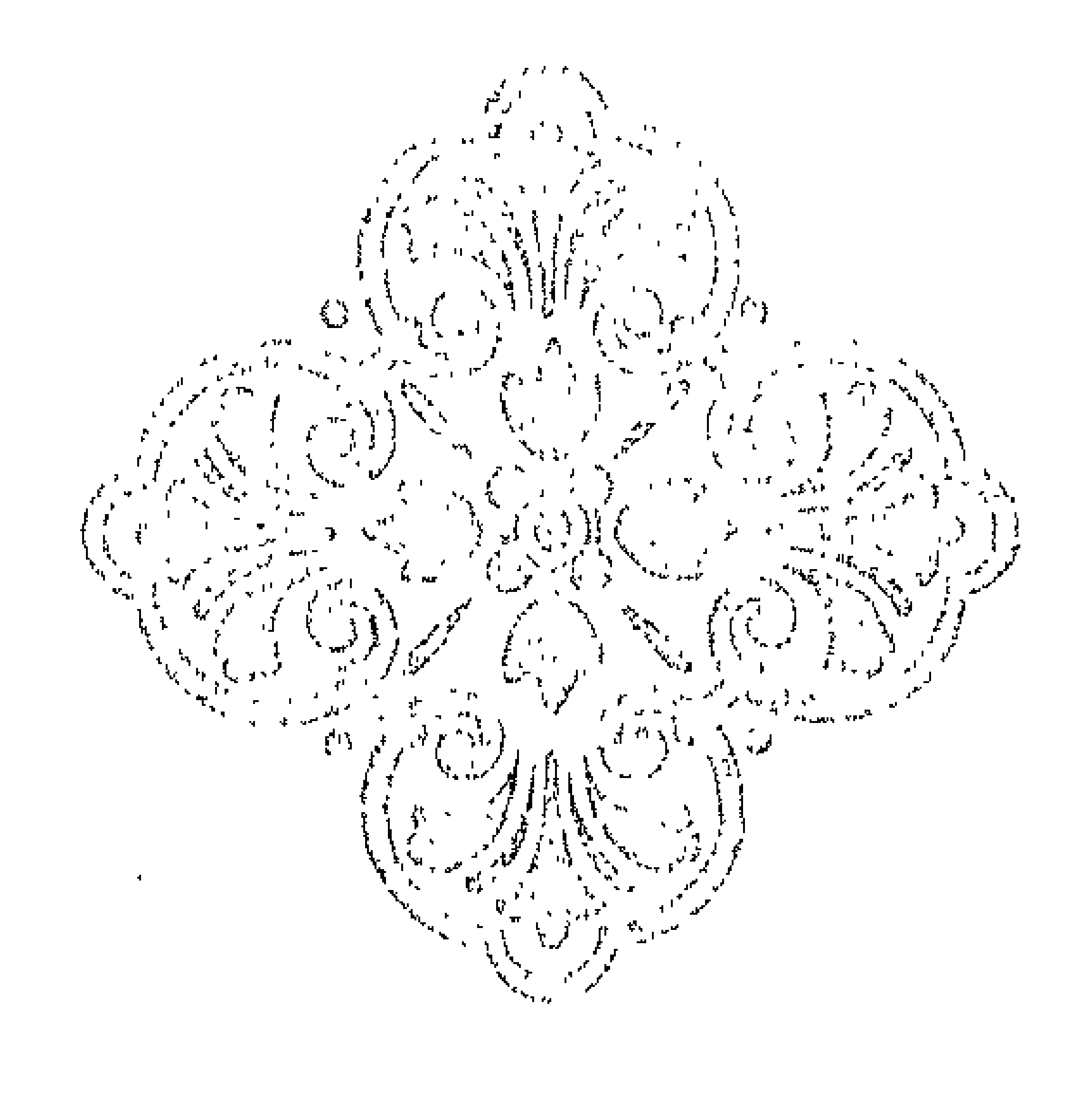
٧-٢- **ضرورة التعجيل بالحج إلى ذلك:** بالتخلص من المخيط، والمحيط المانع من الائتلاف، وترك الرفث والفسوق والجدال المشجّع على الاختلاف.

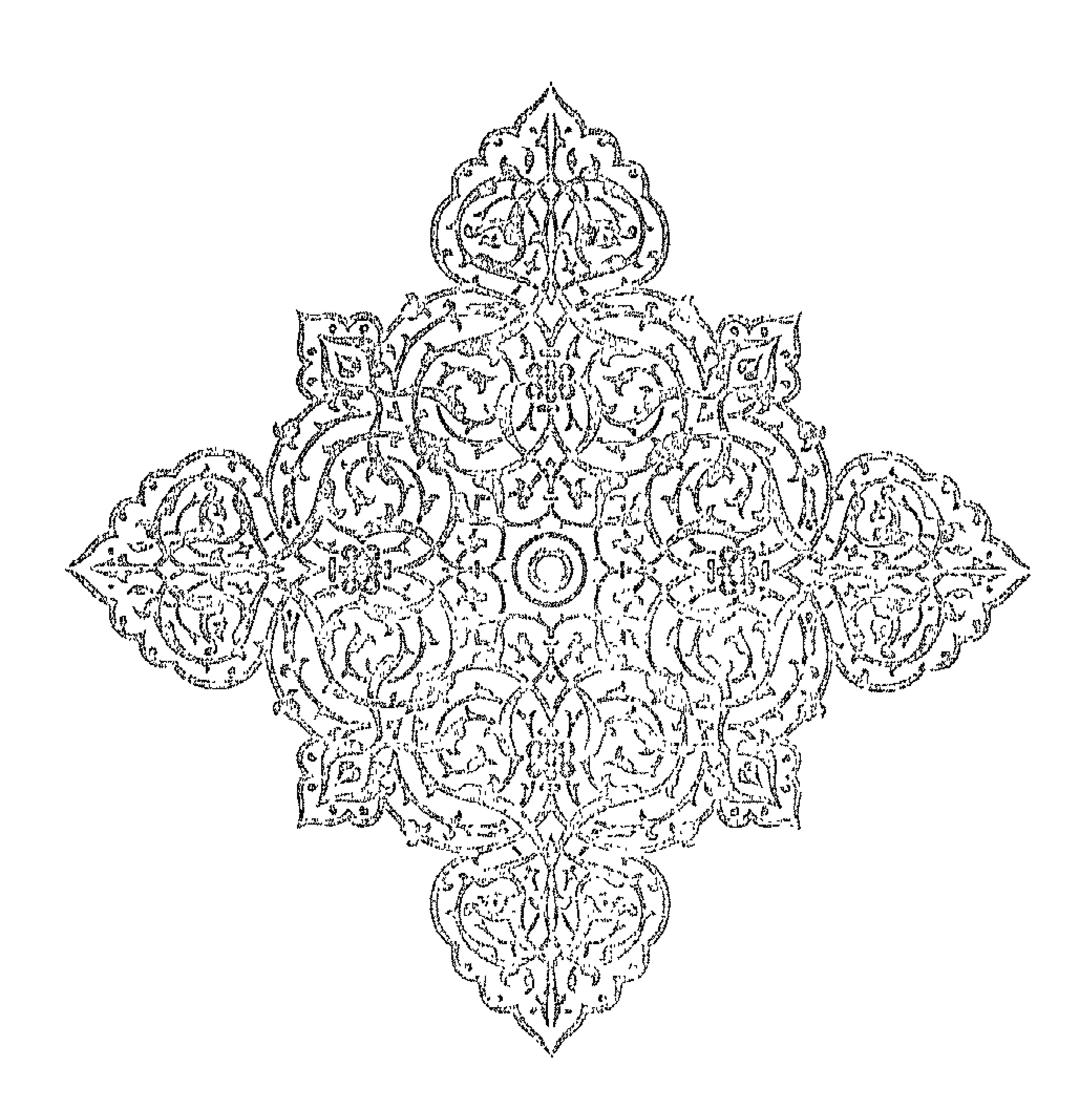
٧-٣- **ضرورة الثبات على الحق:** حتى يأتي وعد الله الحق ، ولله در الوليد الذي قال لأمه: «يا أمه اصبري فإنك على الحق».

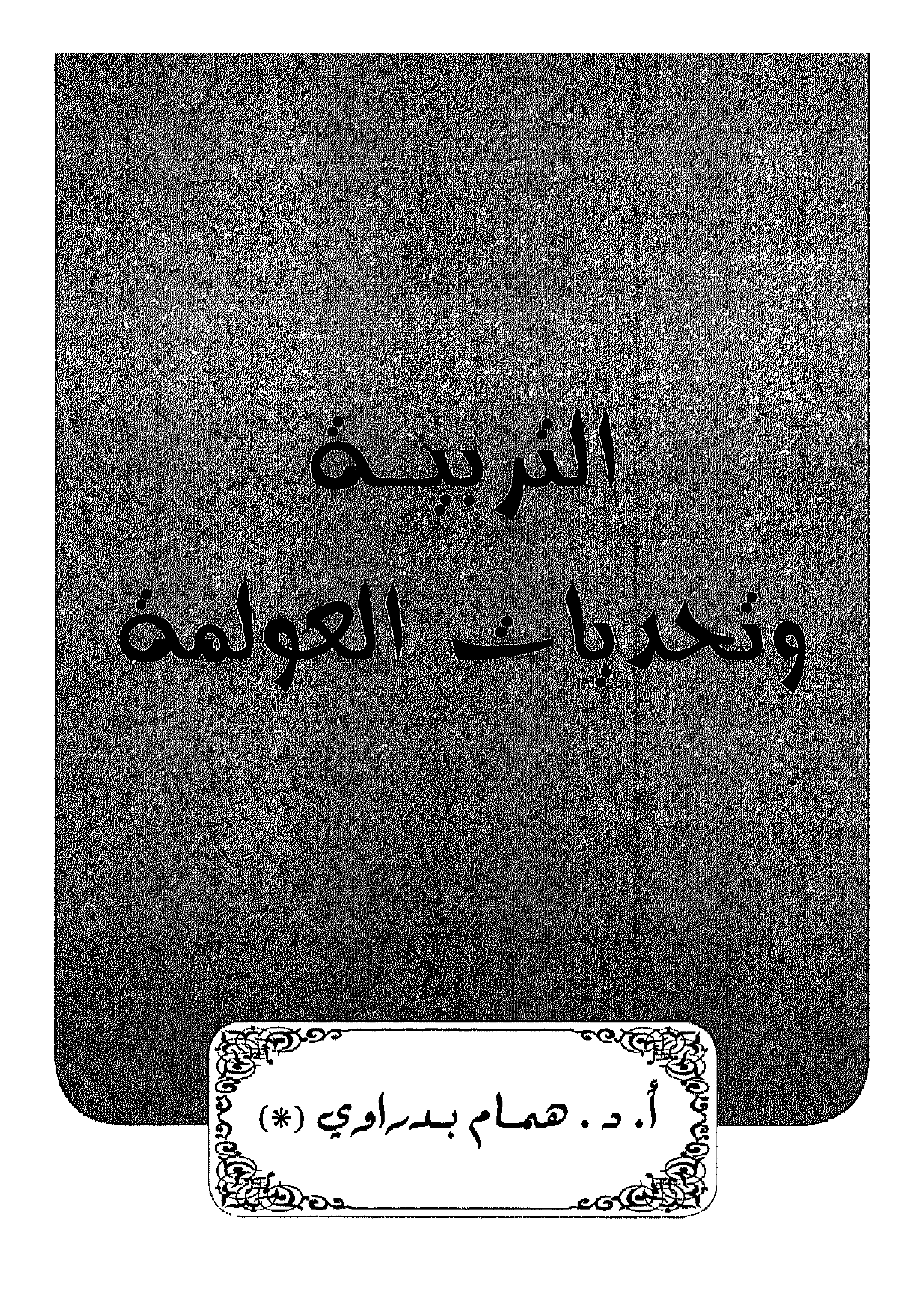
فيا أمة الإسلام اصبري فإنك على الحق.

وإن غدا لناظره قريب.

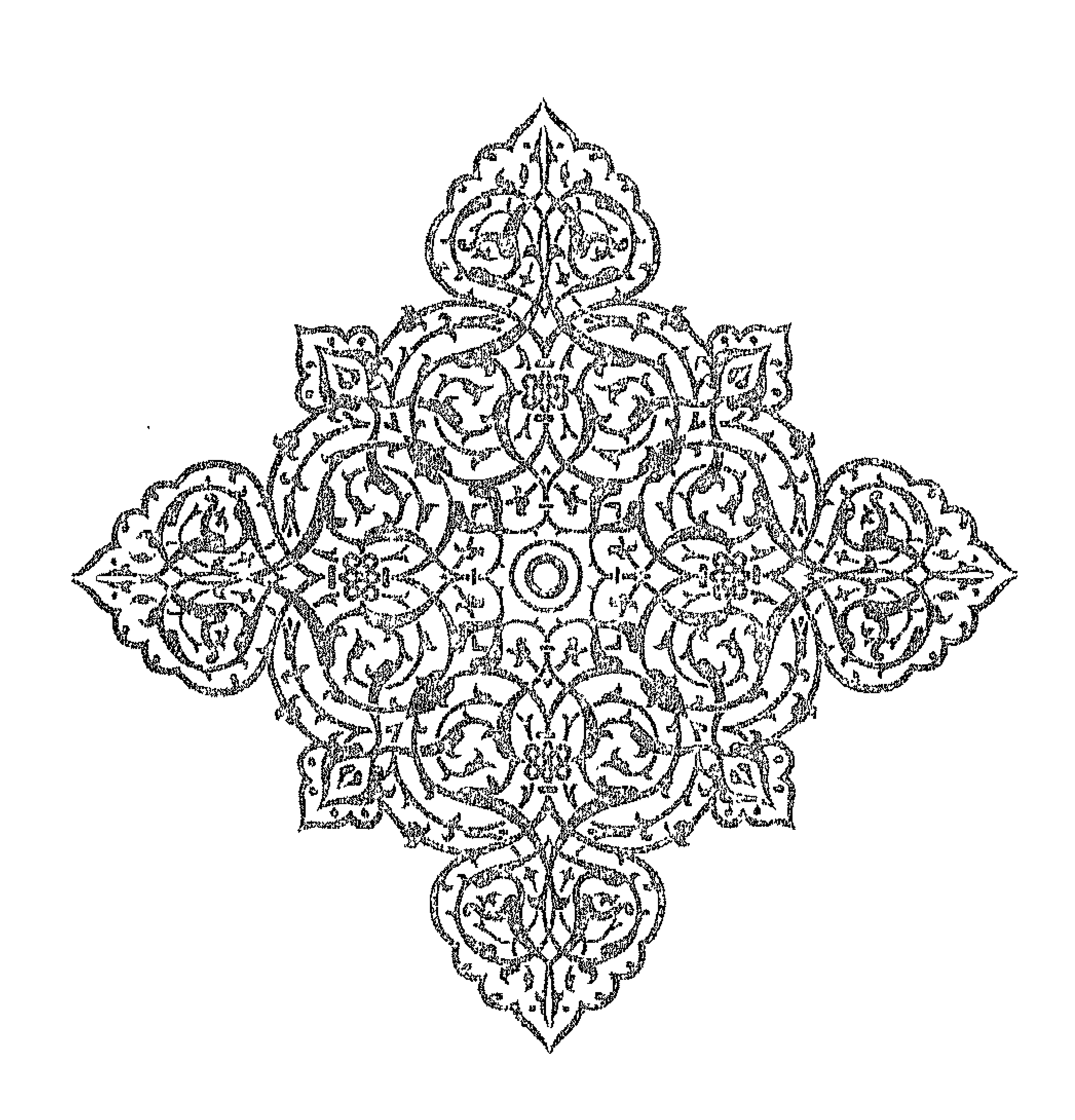
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.







*) أكاديمي مختص في التربية، عمل أستاذا بكلية التربية جامعة السلطان قابوس، ومستشارا تربويا للعديد من المؤسسات التربوية المتخصصة في جمهورية مصر العربية، وعلى المستوى العربي، والدولي، وله عدة مؤلفات في مجال التخطيط التربوي.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

على مدى قرن من الزمان تقريباً (وهو القرن العشرين) ، وبخاصة منذ بداية الأربعينيات، وهناك لاعباً يسعى لاقتناص الفرصة، بعد الفرصة، للاستئثار بالقوة، والثروة، والتأثير والحسم لصالحه وصالح مشروعه، وحتى ولو كان ذلك بأفعال غير أخلاقية، وضد الحياة (حياة النبات، والحيوان، والبشر، وحتى الحجر...). وبالرغم من أن تقسيم غنائم الحرب العالمية الثانية، قد أفضى إلى وجود قطبين (قوتين عظميين) في العالم ، إلا أنه وعلى مدى أربعة عقود تالية، واللاعب أيضاً مستمر في اقتناص الفرصة بعد الفرصة ؛ لكي لا يكون هناك لاعبا غيره، حتى ولو كان قطباً آخر، فأسهم وبشكل جاد في تقويض أركان هذا القطب الآخر (فكراً وتطبيقاً) حتى سقط.

وانتفض اللاعب الوحيد منذ نهاية الثمانينات منتشياً بسيطرته وهيمنته ، معلناً أنه يبشر بنظام عالمي جديد وفقاً لإيدلوجيته وقناعاته، ومعيداً صياغة المؤسسات الدولية ، وفارضاً أولويات لدول العالم وفقاً لتلك الأيدلوجية، والقناعات ، مستخدماً في ذلك أساليب العصا والجزرة (الترهيب، والترغيب).

ومما أسهم في ذيوع صيت ما يعرف باسم النظام العالمي الجديد ، تضافر عدد من الظروف والعوامل المساندة، والتي اعتبرت بمثابة محركات دافعة في المجالات الدولية المختلفة سواء كانت على المستوى العلمي والتكنولوجي أم السياسي أم الاقتصادي، ومن بين أهم تلك الظروف والعوامل المساندة ما يلي:-

- ثورة المعلومات والاتصال.
- تغيير الخريطة السياسية للعالم.
- اقتصاد السوق.
- التكتلات الإقليمية وعبر الإقليمية.

(*) أقصد باستخدام القنابل الذرية لضرب مدينتي هيروشيما ونجازاكي في اليابان عام (١٩٤٥).

(**) انهيار الاتحاد السوفيتي السابق عام (١٩٨٩).

وأفرز ذلك كله ما يعرف حالياً باسم ظاهرة العولمة (Globalization) ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة العولمة ليست ظاهرة فريدة الحدوث في عالمنا المعاصر، ولكنها ظروف متكررة، وإن اختلفت ظروف حدوث، وتجليات كل منها في الفترات التاريخية المختلفة ، حيث ارتبطت بصفة عامة بوجود « أنموذج » أو «حالة » تمتلك مقومات القوة، والثروة، والسلطة سواء كانت مادية، أو معنوية ، في فترات تاريخية معينة ، وترتب عليها بناء حضارات، وإمبراطوريات معينة، سعت كل منها بشكل أو آخر، معنوي أو مادي، أخلاقي أو غير أخلاقي، أو مزيج بين كل من هذا وذاك ؛ لنشر أفكارها، وما يرتبط بتلك الأفكار من قيم ، ومثل عليا، ومبادئ ، و مقومات، واتجاهات، وأنماط سلوك.

وغير ذلك (نماذج الحضارة اليونانية القديمة، الإمبراطورية الرومانية ، الحضارة الإسلامية، وما تلاها من إمبراطوريات في الشرق ، أو الغرب ، وانتهاء بالأنموذج الحضاري الغربي الرأسمالي..)[١]، وهناك من الباحثين من يقصر ظاهرة العولمة على ما حدث في أوروبا منذ بداية القرن الخامس عشر، وما ارتبط به من إرهاصات النزعة القومية ، وحتى بداية ظهور «العولمة» المعاصرة ، منذ نهاية ثمانينات القرن العشرين[٢]، وقسّم روبرتسون تلك الفترة التاريخية التي امتدت لتشمل ما يزيد على ستة قرون إلى خمس مراحل (الجنينية ، الاستعداد ، الانطلاق ، صراع الهمينة ، وأخيرا مرحلة التعقيد ، واللاأيقينية).

وفي ضوء هذا السياق، فإن «العولمة» كظاهرة تعتبر قديمة، ومتكررة، ولا تحدث بين ليلة و ضحاها، بل تتجمع خيوطها وتنسج ، كما يتم توجيه بعض الظروف، واقتناص بعض الفرص أو كلها، واستثمار بعض العوامل المساندة، بحيث توفر جميعها متضافرة، تربة مناسبة ؛ لظهور العولمة، واستمرارها معتمدة على استمرار استثمار تلك الظروف، والفرص والعوامل.. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣].

وبناءً على ما تقدم فإنه يمكن إسقاط دعاوى بعض منظري العولمة المعاصرة، وبخاصة ما ارتبط بأفكار كل من (فرانسيس فوكوياما، وتوماس فريدمان) اللذان يعتقدان من

---

(١) مايكل كاريتون، مدخل إلى الملف المفتوح، مستقبليات، ترجمة: صبحي الطويل، مجلد (٢٧)، العدد (١)، مركز مطبوعات اليونسكو، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٢) Ronald Robertson. Globalization as amain concept. In Global Culture. Saige Press. London. 1992. P. 8 – 10.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٤٠.

خلالها بأن العولمة الرأسمالية المعاصرة بكل تداعياتها كما هي عليه الآن ، تمثل نهاية التاريخ البشري، بمعنى أنه لن يقدّر لقوى أخرى، أو أنواع أخرى من العولمة أن تظهر، حيث حسمت الرأسمالية المعركة ، و الصراع لصالحها وإلى الأبد، وتوجت العالم المعاصر بأفكارها وأيديولوجيتها، وقيمها ومبادئها[١]. وبذلك فقد قطعت «الرأسمالية» قول كل خطيب..!!!

خاصة وأن من الباحثين أيضا من يوجه النقد إلى هذا التفسير الحتمي للتاريخ، ويعتبرون أن العولمة المعاصرة ما هي إلا نتيجة ترتبت على سياسات معينة تمّ صنعها وتطبيقها بوعي وإرادة حكومات وبرلمانات الدول التي وقّعت على الاتفاقات التي أسهمت في ذيوع ونشر السياسات الليبرالية الجديدة ، وصياغة القوانين التي طبقت ونفذت تلك السياسات، ففي كل هذه الأمور لم تكن هناك حتميات لا يمكن تجنبها ، بل إرادات سياسية واعية بما تفعل، وعبرت عن مصلحة القوى والمنظمات والشركات دولية النشاط[٢].

وهنا تكمن إشكاليات العولمة سواء على المستوى النظري أو التطبيقي، ويمكن التعبير عن هذه الإشكاليات والتي تمثل في الوقت ذاته إشكاليات هذا البحث في عدد من التساؤلات أهمها:-

١. ما تعريف (تعريفات) مصطلح العولمة؟
٢. ما أهم مظاهر وتأثيرات العولمة بمختلف مجالاتها؟
٣. ما العلاقات المتبادلة فيما بين العولمة والتربية؟
٤. ما متطلبات تفعيل دور التربية في ظل العولمة؟

ومع تعدد واختلاف وجهات النظر حول نشأة العولمة،(أو العولمات)، وتباين تفسيرات النشأة والحدوث، فإنه قد يكون من الصعب تحديد تعريف دقيق وشامل، ونهائي للعولمة، ولقد عبر عن ذلك بالفعل أحد الباحثين حيث قال: «إنَّ صياغة تعريف دقيق للعولمة يبدو مسألة شاقة، نظراً لتعدد تعريفاتها، والتي تتأثر أساساً بانحيازات الباحثين الإيديولوجية، واتجاهاتهم إزاء العولمة رفضا أو قبولا »[٣].

---

(١) هانس بيتر مارتن، هارالد شومان، فخ العولمة ، الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية، ترجمة: عدنان عباس علي، مراجعة: رمزي زكي، عالم المعرفة، العدد (٢٣٨) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨، ص (١٠).
(٢) السيد يسن، الزمن العربي والمستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص (٥٣).
(٣) Noam Chmsky. World Orders. Old and New. Columbia University Press. 1994. P. 48.

إلا أن ذلك كله لا يجيز لمن يتعرض لتناول ومعالجة مثل هذا الموضوع أن ينحو بعيداً عن تحديد بعض تعريفات «العولمة المعاصرة»، والتي يمكن سردها فيما يلي:

أولاً :

تعريف العولمة :

تمثل العولمة جوهر النظام العالمي الجديد الذي قال عنه أحد الباحثين في هذا المجال إنه لا شيء جديد في قواعد النظام العالمي الجديد، حيث لا زال القانون لا يطبق إلا على الضعفاء ، بينما الأقوياء يفعلون ما يريدون، حتى ولو كان ذلك متعارضاً مع القانون، كما أن ما يطلق عليه الإصلاح الاقتصادي ، والعقلانية الاقتصادية، وتهميش دور الدولة، لا تفرض إلا على الضعفاء، بينما الأغنياء يتمتعون بقوة الدولة، و السيطرة، وحق التدخل في شؤون الآخرين، دولاً كانت أم جماعات أم أفراداً[١].

والعولمة في الواقع «مفهوم تجريدي مركب ذو أبعاد اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية، وثقافية، وفي إطاره أصبح البعد الجغرافي أقل تأثيرا في إقامة واستمرار العلاقات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، عبر الحدود والمسافات»[٢].

أو أنها «التضاؤل السريع في المسافات الفاصلة بين المجتمعات الإنسانية ، وخاصة ما يتعلق بانتقال الأفكار ، والقيم، والسلع، والأشخاص ، ورؤوس الأموال المادية، والبشرية، والمعرفية»[٣].

ومعنى ذلك أنه وبحكم منجزات ثورة المعلومات الاتصال، أصبحت المسافات فيما بين المجتمعات أكثر انكماشا ؛ لأنها أصبحت أقل استهلاكا للوقت، وبسبب ذلك أصبح العالم وكأنه قرية صغيرة يراد لها، ولسكانها _ وبخاصة الفقراء منهم _ أن يكونوا نسخا متكررة (متقولبة) سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، واجتماعياً.

---

(١) حسين كامل بهاء الدين، الوطنية في عالم بلا هوية، تحديات العولمة، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص (٥٦).
(٢) جلال أمين، العولمة والتنمية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩، ص (١٧).
(٣) هانس بيتر مارتين، هارالد شومان، مرجع سابق، ص (٨ – ١٩).

ثانياً :
مظاهر و تأثيرات العولمة :

في ضوء تداعيات التساؤلات السابقة ومحاولة تجلية بعض إجاباتها، فإنه لابد من التعرض لعدد من أهم مظاهر العولمة المعاصرة، وتأثيراتها المتنوعة، وسوف يتم تناولها من خلال محورين أساسين- على الرغم من تداخلهما و تكاملهما- وهما المحور السياسي والاقتصادي، والمحور الاجتماعي والثقافي، وسوف نعرض لكل منهما فيمايلي :-

(١)
المظاهر السياسية والاقتصادية للعولمة :

ومن أهمها ما يلي[1]:

أ - إن العولمة المعاصرة ترسم صورة المستقبل ، بالعودة للماضي السحيق للرأسمالية بمشكلاته التي تتمثل في زيادة البطالة ، وانخفاض الأجور، وتدهور مستويات المعيشة وتقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة، وإطلاق آليات السوق، وابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي، وتفاقم التفاوت في توزيع الدخل والثروة.

ب- يحمل القرن الحادي والعشرون ضمن بشارات العولمة شواهد تؤكد أن (٢٠٪) من السكان على مستوى العالم ، هم الذين سيمكنهم العمل، والحصول على الدخل والعيش الكريم، أما النسبة الباقية (٨٠٪) فتمثل السكان الفائضين عن الحاجة، الذين لن يمكنهم العيش ، إلا من خلال الإحسان والتبرعات.

جـ- يتحول الجزء الأعظم من العالم إلى جزر منفصلة ، وإلى عالم بؤس وفاقة، ويكتظ بالمدن القذرة والفقيرة، وينقسم العالم إلى شمال ، وجنوب، وأن الشمال الذي يمثل ٢٠٪ من دول العالم يستحوذ على ٨٥٪ من الناتج العالمي الإجمالي، وعلى ٨٤٪ من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها ٨٥٪ من مجموع المدخرات العالمية، ويتوازى مع ذلك تفاوتاً آخر على مستوى كل دولة، حيث تستأثر قلة من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني والثروة القومية.

---

(١) همام بدراوي زيدان، شاكر محمد فتحي، التربية المقارنة: المنهج، الأساليب، السياسات، مجموعة النيل العربية، القاهرة، ص (٢٤٣ – ٢٤٦).

د – تحولت المنظمات المالية الدولية إلى مؤسسات ضاغطة وبقوة ، لدفع الدول وبخاصة النامية، إلى إيديولوجية الانفتاح على السوق النقدي، والمالي العالمي، مع ما يترتب على ذلك الانفتاح المعولم من تداعيات، بعضها هيكلي ، والآخر لتقليل دعم الخدمات الاجتماعية ، وثالثها للخصخصة، ورابعها مرتبط بالشركات متعددة الجنسية.

هـ- أن الديموقراطية التي يتم الدفاع عنها الآن- في غياب العدالة الاجتماعية – إنما هي ديموقراطية الأكثر ثراء وتفوقاً اقتصادياً، بينما نجدها تضر بالعمال والطبقة الوسطى، ويلاحظ ذلك في ضوء خبرة التحولات الاقتصادية ، والاجتماعية التي تتم الآن في ضوء السياسات الليبرالية، التي تستند عليها العولمة، حيث الدعوات المستمرة لخفض الأجور، وزيادة ساعات العمل ، وخفض المساعدات والمنح الحكومية.

هذا ويمكن رصد عدد من التأثيرات المرتبطة بهذه المظاهر[1] فيما يلي:

١. الاتجاه نحو المزيد من الاعتماد الدولي المتبادل:

أدى انهيار حاجز المسافات بين الدول والقارات نتيجة لثورة المعلومات والاتصال إلى تزايد إمكانات التأثير المتبادلين ، وإلى إيجاد نوع جديد من التقسيم الدولي للعمل يتم بمقتضاه توزيع العملية الإنتاجية الصناعية بين أكثر من دولة، وإلى محاولة إيجاد نوع من الشراكة التي تسهم في إحداث نوع من التكامل بين أكثر من دولة أيضاً، سواء داخل التكتل في الإقليم الواحد ، أو بين دول تقع في أكثر من إقليم، هذا فضلاً عن ظهور مفهوم يعرف بالأمن ، والسلم العالمي، والذي تكون نواته أيضاً على مستوى التكتل الإقليمي، وبروز نشاط الشركات متعددة الجنسية (عابرة القارات) مما أسهم في تضاؤل دور الدولة، وزيادة عمليات الخصخصة تطبيقاً لآليات الاقتصاد الحر. ويفرض ذلك ضرورة مواكبة نظم التعليم، وسياساته، تحديد وإكساب الأفراد المهارات القياسية الدولية للعمل في المهن، والوظائف، حتى تتاح لهم فرص العمل، والمنافسة في سوق العمل.

٢. تراجع قيمة الموارد الطبيعية والخامات الأولية:

مع بدايات القرن الحادي والعشرين لم تعد الموارد الطبيعية، والخامات الأولية الركيزة الأساسية للقدرة الاقتصادية للدول على المنافسة في المجال الدولي ، والدليل على

(١) هانس بيتر مارتين، هارالد شومان، مرجع سابق، ص (٣٢٧).

ذلك أن معدلات النمو الاقتصادي العالية قد تحققت في دول فقيرة نسبياً في مواردها كاليابان وكوريا الجنوبية ، ودول أخرى في جنوب شرق آسيا في حين أن معدلات النمو المنخفضة قد وجدت في العديد من الدول التي تتوافر لديها موارد طبيعية كثيرة ومتنوعة ، مثل باكستان والأرجنتين، وحتى الاتحاد السوفييتي قبل انهياره، ومعنى ذلك أن العنصر الأساسي في عمليات التنمية ، والمنافسة الاقتصادية هو نوعية الإنسان، وطبيعة تكوينه وإعداده ، وأسلوب تفكيره، ونمط حياته، وامتلاكه للعديد من القيم والاتجاهات المعززة للتنمية ، ومدى قدرته على السلوك الفعلي في ضوئها، وهي أمور تمثل محاور أساسية في سياسات التعليم التي تعي ذلك.

٣. تنامي دور الإدارة الحديثة للمؤسسات:

إن الاهتمام بتحديث الإدارة في المؤسسات المختلفة في أي دولة ، إنما ينطلق من مقولة: « إن الدول لا ترث رخاءها وإنما تصنعه بأيدي أبنائها» ، وذلك من خلال التجديد والابتكار، والتطوير المستمر، تلك المقومات التي تكفلها الإدارة الحديثة بعلاقاتها وتقنياتها المختلفة ، والتي تستهدف أساساً تنمية الموارد البشرية والمادية، وحسن استخدامها واستثمارها فضلاً عن ترشيد الإنفاق ، وزيادة عمليات التمويل والاستثمار، وتعظيم الاستفادة من الإمكانات المتاحة ، والتطوير المستمر في عناصر العمل، وتحسين الأداء، وغير ذلك من عمليات إدارية، وتبني السياسات القادرة على التعامل مع الظروف ، والضغوط المحلية، والإقليمية، والدولية، والتي تولدها عمليات المنافسة وتحقيق معايير الجودة الشاملة سواء في العمليات المرتبطة بالإنتاج، أو المنتج ذاته، ومن الضروري أن تسعى مؤسسات التعليم لتحديث إدارتها.

٤. إذكاء روح وقيم الميزة التنافسية :

أدت سياسات فتح الأسواق الإقليمية والعالمية ، واتساعها وما ترتب عليها من إجراءات كاتفاقية «الجات» إلى دفع الدول؛ لدخول حلبة منافسة خطيرة ، وغير متكافئة أحياناً مما تضطر معه مؤسسات الإنتاج إلى إذكاء روح ، وقيم التنافس والاحتكار والقوة والتي قد لا يستطيع الصمود فيها سوى الأقوياء في الثروة ورأس المال، والخبرة، وعقد الصفقات، والتسويق والدعاية، ومن هنا كانت أهمية تضافر

جهود نظم التعليم وسياساتها، وخططها وبرامجها، بغرض السعي؛ لتكوين مواطنين إيجابيين يمتلكون من المهارات ما يمكنهم، ويمكن المؤسسات التي سيعملون فيها من المنافسة ، وتحقيق التميز.

(٢)
المظاهر الاجتماعية والثقافية للعولمة:

ومن بين أهمها مايلي :-

أ - سيادة الفكر المرتبط بالحضارة المعاصرة:

إن من يمتلك القوة ممثلة في عناصرها الاقتصادية والعسكرية إنما يمتلك القدرة على توجيه العلاقات والتفاعلات الدولية ، والتأثير فيها؛ ليمكن أن يؤدي إلى تغيير سلوك الآخرين، ونظراً لسيادة الحضارة الغربية خلال هذه الفترة المعاصرة من تاريخ الإنسانية ، ونظراً لأن أي حضارة لابد أن ترتكز على عدد من المقومات والمبادئ والقيم التي تحكم مسارها، وتحدد علاقات عناصرها، لذلك فإن رموز تلك الحضارة يسعون بمختلف الوسائل ؛ لنشر تلك المبادئ والقيم، سواء كانت قيماً تؤكد على المادية، والنفعية، والعلمانية ، والاحتكار والاستهلاك الوفير، والعلمانية، والأنانية، وازدواجية المعايير، والكيل بعدة مكاييل، وما يطلقون عليه «بالهدم الخلاق» أو «الفوضى البناءة» والتي تقضي على القواعد والمبادئ، وإن شئت الثوابت ؛ من أجل اللحاق «بالرأسمالية النفاثة»، والذي يصفها أحدهم بالسرعة المروعة التي تتم بها التحولات في اتجاه تطبيق السياسات الليبرالية التي غدت صدمة لغالبية سكان العالم، حتى أولئك الذين يزعمون أنهم لاعبون عالميون قادرون على تحمل كل الضغوط[1]، هذا فضلاً عن السلوكيات المستندة على قيم نسبية ، أو اللا قيم، تحت دعاوي مضللة كالحرية الفردية، وحرية التعبير، التي تتيح التعارض مع حريات الآخرين، وازدرائهم ، بل قد يصل الأمر إلى ازدراء مقدساتهم، وعدم التسامح مع الآخر، أو حتى قبوله (وخير دليل على ذلك ما يحدث الآن ومنذ سبتمبر ٢٠٠١ في كل الولايات المتحدة الأمريكية، ودول الاتحاد الأوروبي ضد الأقليات الإسلامية عامة، وذوي الأصول العربية منهم خاصة)، وطبيعي إن ممارسة كل هذه السلوكيات، وذيوعها، والمحاولات المستمرة؛

---

(١) انظر المراجع السابقة.

لإقناع الآخرين بها، إنما يترتب عليها بلبلة ، وخلل في منظومات القيم والمبادئ لدى مجتمعات أخرى لا تتفق في طبيعتها وظروفها مع طبيعة وظروف المجتمعات التي تمثل رموزاً للحضارة المعاصرة.

ب- اتساع الفجوة بين دول الشمال ودول الجنوب:

تعاني الغالبية العظمى من الدول النامية في إفريقيا ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية من اتساع الفجوة التي تفصل بينها وبين الدول المتقدمة في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية بمختلف عناصرها ، وبالرغم من الظروف التاريخية الموضوعية التي أدت إلى هذا الوضع، إلا أن الدول المتقدمة تسعى وباستمرار إلى زيادة مساحة هذه الفجوة، وليس التقليل منها، ومن بين أهم أدلة وجود تلك الفجوة ما يلي(1):

- تزايد قدرة الدول المتقدمة على التعامل مع أكثر الظواهر تعقيداً ، وفوضوية، حيث يمكن الآن حساب ملايين العمليات الحسابية في ثوان معدودة ، بما يسهم في إمكانية استشراف الاحتمالات المختلفة في عالم شديد التعقيد ، وفي أنظمة مركبة شديدة التشابك، ويصيغ السيناريوهات المعقدة التي يحمل كل منها حلاً محتملاً لمشكلة ما.

- إطلاق وتطوير الأقمار الصناعية التي تحمل أجهزة ومعدات خفيفة الوزن عالية القدرة، والإمكانية التكنولوجية ، والتي يتم من خلالها التحكم في عمليات الاتصال عبر الشبكة الدولية للمعلومات، أو عبر أجهزة الهاتف ، أو أية وسائل اتصالية أخرى.

- إنتاج أجيال جديدة ومتجددة من أجهزة الكمبيوتر فائقة القدرة والسرعة (سوبر كمبيوتر) .

- التوصل إلى علوم جديدة، وتطبيقات متجددة في مجالات الكيمياء الإحصائية، والبيولوجيا الإحصائية ، وما ارتبط بهما من إنتاج مواد جديدة، وكذلك الهندسة البشرية (الوراثية)، والهندسة الوراثية بصفة عامة، وما ترتب عليها من تطبيقات مرتبطة بالاستنساخ، أو إنتاج أعضاء بشرية، أو زيادة معدلات الإنتاج النباتي، أو الحيواني بشكل، ومعدلات غير مسبوقة.

---

(١) رشاد عبدالله الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل، عالم المعرفة، العدد (٢٢٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧، ص (٧).

- إنتاج وتوفير كميات هائلة من أنواع الطاقات (الكهربية، والمتجددة، والرياح، والفراغ).
- الانتقال من إنتاج السلع والآلات إلى إنتاج خدمات، وأفكار، أو ما يعرف باسم "المعرفة" والتي تعتمد بشكل رئيس على "العقل البشري" حيث حلت المعرفة محل رأس المال المادي، وحدث التحول من الإنتاج كثيف (العمالة) إلى الإنتاج كثيف التكنولوجيا.

جـ - قولبة النظام والمؤسسات المجتمعية:

تسعى القوى المؤثرة عالمياً في إطار "العولمة" إلى قولبة النظم والمؤسسات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية بمختلف اهتماماتها (سياسية، واقتصادية، وتربوية، وثقافية، وإعلامية ... إلخ) والتأثير في محتوى ومضمون ما تقدمه تلك المؤسسات في مختلف دول العالم، وكأنها تريد أن تعيد تكوين المجتمعات، وتربية وتنشئة الأفراد بطريقتها، تحت دعوى عولمة النظم وتكوين « المواطن العالمي »، دون الوضع في الاعتبار الموروث العقائدي، والثقافي، والتاريخي، والاجتماعي لشعوب كل أمة. ومن بين أهم أدلة محاولات قولبة النظم والمؤسسات المجتمعية في إطار العولمة ما يلي:-

- محاولات فرض « الأحادية الفكرية » المرتبطة بالليبرالية السياسية الغربية، وكأنها الحل السحري لجميع مشكلات المجتمعات، والعالم، وأقصد بهذه الأحادية الفكرية (مبدأ الديموقراطية) والتي يسعى القطب الأحادي الآن إلى فرضها بالضغط والترهيب على دول ومجتمعات العالم الثالث، وبخاصة في العالم العربي والإسلامي تحت دعاوي التحرير، والحرية، حتى ولو كانت الوسيلة إلى ذلك هو الغزو العسكري، أو التدخل السافر في الشئون الداخلية للمجتمعات، واختراق وتهديد سيادتها.
- فرض ما يتعلق بتطبيق الديموقراطية من التعددية السياسية، بما يعني ضرورة وجود أحزاب ذات اتجاهات فكرية، أو وسائل متنوعة، والغريب أنه مع كل الممارسات التي قد تصل إلى حد انتهاك سيادة الدول في سبيل فرض هذه التوجهات، فإنه حين تمارسها الشعوب، وتختار من تريد أن يمثلها ويحكمها، فإن هذه الشعوب تتعرض للعقاب والتهديد والوعيد، إذا كان اختيارها لا يتوافق مع ما كان يرغب فيه القطب الآحادي (نموذج إيران/ الجزائر/ فلسطين ...).

- العمل من خلال ضغوط المنظمات المالية الدولية ، وغيرها من ضغوط سياسية واقتصادية واجتماعية، على تهميش دور الدولة، وقدرتها على التحكم والتوجيه الاقتصادي، وتقديم الخدمات المناسبة في مختلف المجالات، وذلك من خلال إلزام الدول بإعادة هيكلة اقتصادياتها؛ لتتوافق مع آليات السوق، وتطبيق سياسات الخصخصة، وتحرير التجارة، مع هيمنة واحتكار الشركات عابرة القارات (متعدية الجنسية).
- فرض القيم والمثل والتوجهات المرتبطة بالثقافة الغربية (كحضارة معاصرة) على المؤسسات المختلفة ، وبخاصة المؤسسات التربوية (الأسرة ـ نظم التعليم ـ الإعلام ـ المؤسسات الدينية ـ وغيرها ...).

د- تهديد الذاتية الثقافية للمجتمعات :

تسعى العولمة بقصد أو بدون قصد ، إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد، وهي إن كانت تحققت فعلاً في أغلب المجالات وبخاصة المجال الاقتصادي ، فهي في سبيلها إلى التحقق في باقي الميادين السياسية ، والثقافية، وبذلك فهي تمثل بالفعل تهديداً للذاتية الثقافية، والهوية، وبخاصة تلك التي تمثل نماذج لحضارات سابقة كالحضارة العربية الإسلامية، وربما هذا ما دعا أحد منظري العولمة ، وهو «صموئيل هنجنتون» إلى التعبير عن ذلك في مؤلفه «صراع الحضارات» وذلك انطلاقاً من أن مثل تلك الثقافات هي التي ستمثل مجالاً وبؤراً؛ لمقاومة عناصر الثقافة العولمية الجديدة.

ومعروف أن الهوية تمثل الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة التي ينتمي إليها، ويتعرف عليه الآخرون باعتباره منتمياً إلى تلك الجماعة، وتتجمع عناصر (كود) تلك الشفرة من مكونات تاريخية وتراثية إبداعية، واجتماعية، وجميعها مكونات معلنة وتميز أصحابها عن أصحاب سائر الهويات الأخرى[١٢]، وتنتقل تلك المكونات والملامح الحقيقية للهوية بالوراثة داخل الجماعة، وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها بينهم من خلال ما يطلق عليه في الثقافة بالثوابت، وكذلك القيم، والمثل العيا، والمبادئ، والموروث الثقافي، خاصة إذا كان ذلك مرتبطاً بتعاليم دينية ، وروحية، وخبرات ثقافية واجتماعية متجذرة ، وعلى ذلك فإنه يمكن التمييز بين كل مما يأتي[١]:

---

(١) المرجع السابق، ص (٩ – ١٠).

- الهوية الجماعية الموضوعية (وهي السمات التي يدركها الآخرون).
- الهوية الجماعية الذاتية (وترتبط بإدراك الشخص لنفسه في نظر الآخرين).
- الهوية الذاتية (وترتبط بإدراك الشخص لذاته تبعاً لمدى ما يتوافر به من سمات).

هذا مع الإقرار بأن كل شخص مهما كانت هويته، إنما يعكس في جانب منه تشابهاً مع الآخرين أياً كانت هويتهم، كما يعكس في الوقت ذاته تفرداً، بسبب أنه:-

- ذو سمات إنسانية عالمية (فهو يشبه سائر البشر).
- ذو سمات معينة مع فئات اجتماعية معينة (فهو يشبه أشخاصاً معينين آخرين).
- له ذاتيته وشخصيته (لا يشبه أي شخص آخر).

وبالرغم من ذلك فإن العولمة المعاصرة تريد أن تتجاوز كل ذلك؛ لتجعل الإنسان (كل البشر) مقولبين في إطار ما يطلق عليه "الإنسان العالمي" أي قصره؛ ليكون ذا سمات إنسانية عالمية فقط، وساعية إلى اجتثاث السمات الأخرى (الجماعية، والفردية)، إن كان ذلك يعتبر ضرباً من المستحيل حيث إنَّ طبيعة الثقافة، وما يرتبط بها من هوية، تتفاعل باستمرار، ويمكن أن تزداد فاعليتها وقوتها في فترات زمنية معينة، كما يمكن أن تضعف في فترات أخرى، إلا أنها مع ذلك تبقى وتستمر، خاصة إذا كان في تكوينها من الثوابت، والحيوية، ما يجعلها تتعافى، وتكتسب زخماً ثقافياً متجدداً في إطار تلك الثوابت والحيوية، وسر هذا البقاء والاستمرارية يكمن في أنها تعبر عن جماعات بشرية بعينها، تتمايز بتاريخها الاجتماعي، والثقافي، والعرقي الفريد، الذي لا يمكن محوه، ولا إزالة آثاره، ولا إلغاؤه ليستبدل بنزعات عولمية جديدة[1].

ومن أهم أدلة محاولات تهديد الذاتية الثقافية للمجتمعات في إطار العولمة ما يلي:-

- شيوع أنماط مقولبة من أساليب الحياة، وبصفة خاصة بين الشباب في مختلف دول العالم، توجهها أنساق قيمية عولمية (مؤمركة أو مؤوربة)، تزاحم الأنساق القيمية في كل دولة وفقاً لخصوصيتها الثقافية.
- الممارسات المستمرة لازدراء رموز ثقافة الآخر وثوابته، والتقليل من شأنها، حتى تعطي انطباعاً ولو تدريجياً وعلى المدى البعيد، بعدم أهمية أو قلة شأن تلك الثوابت والمقدسات.

---

(١) السيد يسن، مرجع سابق، ص (٧٨).

- إذكاء نيران الفتنة ، والصراع ، التي تستند إلى أسباب إثنية ، أو لغوية، أو مذهبية طائفية، وغير ذلك من أسباب في إطار مبدأ العولمة الجديدة (الفوضى البناءة).
- التأثير في عمليات التنشئة الاجتماعية للأفراد في المجتمعات المختلفة ، من خلال فرض قيم وتوجهات تتعارض مع قيم وتوجهات تلك المجتمعات وفقاً لثقافتها، حيث نلحظ تعارضاً وليس توازناً بين (المادي والروحي)، وبين (العالمي والمحلي)، وبين (الأنا والآخر)، وبين (العمل والعائد).
- شيوع ثقافة العنف، والجريمة المنظمة، في إطار ما يعرف بظاهرة التكنويولوجي (Technopology) بمعنى سيطرة وتأثير التكنولوجيا ، ومنجزاتها على التشكيل الثقافي والحضاري ، وما نتج عنها من موجات الانحلال الخلقي، والتفكك الأسري، والعنف، والجريمة ، والإدمان، والتهرب من المسئولية، وزيادة معدلات الانتحار، ويتمثل الخطر الداهم المرتبط بهذه الظواهر في انتشارها لدى الأطفال والشباب من الجنسين، وليس فقط بين الكبار[١].

ويمكن رصد عدد من التأثيرات المرتبطة بهذه المظاهر الاجتماعية والثقافية للعولمة، ومن أهمها ما يلي[٢] :

١ - الانعكاسات الاجتماعية والأخلاقية للتقدم العلمي الهائل:

اتسمت العقود الأخيرة من القرن العشرين بالتقدم العلمي الهائل في جميع المجالات نتيجة للنمو المتزايد في حجم المعلومات ، وتنوعها وانتشارها وتعمقها، وأدى ذلك إلى المزيد من الاكتشافات ، والبحث المستمر عن غيرها ، حيث ظهرت علوم جديدة، وسوف تظهر غيرها، ويتم معالجة تلك المعلومات والاستفادة منها بشكل أفضل كثيراً عما كان موجوداً من قبل، إلى الدرجة التي أصبحت تؤدي إلى إعادة التفكير في بعض المسلمات العلمية السابقة، بل وفي بعض القيم أحياناً ، وما يمكن أن تؤثر فيه من سلوكيات، ولعل ما يحدث في مجال الهندسة الوراثية ، والتكنولوجيا الرقمية، وكذلك

(١) حسين كامل بهاء الدين، مرجع سابق، ص (٧٧).

(٢) همام بدراوي زيدان، شاكر محمد فتحي، مرجع سابق، ص (٢٤٤ – ٢٤٥).

التطبيقات المتقدمة لثورة المعلومات والاتصال (كومبيوتر ، هواتف، فضاءات مفتوحة، قنوات فضائية ، وسائل أخرى ...) خير دليل على ذلك، ومن هنا كانت ضرورة مواكبة نظم التعلم وأهدافها ، ومناهجها ، وأنشطتها لما يحدث في هذه المجالات من تغيرات، والتأكيد على الأسلوب العلمي في التفكير، وممارسة عمليات ومهارات العلم خلال عمليات التعليم والتعلم ، ومهارات التفكير الناقد في ضوء المعايير الاجتماعية والأخلاقية.

٢ - الاستفادة المثلى من الإمكانات المتاحة :

أتاحت تكنولوجيا وتطبيقات ثورة المعلومات والاتصال، رفع مستوى قدرة متخذي القرارات، وذلك عن طريق ما توفره لهم من معلومات وفيرة ودقيقة ، في شكل قواعد بيانات تساعدهم في التوصل إلى الإمكانات والبدائل المتاحة، بحيث تمكنهم في النهاية من زيادة فعالية عمليات صنع واتخاذ القرارات ، وذلك على مختلف المستويات، وفي جميع المجالات ، للاستفادة من تلك الإمكانيات مهما كانت محدودة، لبلوغ الأهداف المحددة، ومن هنا كانت أهمية التأكيد على عمليات البحث والتطوير، وتحديث الإدارة، والاهتمام بالجودة، والتميز.

٣ - توفير الوقت والجهد والمال :

حققت تطبيقات التكنولوجيا بصفة عامة، وثورة المعلومات والاتصال بصفة خاصة، طفرة كبيرة في مجال الاتصالات ؛ بحيث يتم إنجاز كثير من الأعمال دون الاضطرار للانتقال إلى أماكن إنجازها (الاتصالات من بعد)، مما كان له أثره الاجتماعي والأخلاقي أيضاً من حيث القيم المرتبطة بالوقت، واستثماره، وما يرتبط به من جهود وأموال، وكذلك إدراك أهمية الوقت بالنسبة للآخرين ، لما له من انعكاسات على تحقيق مزيد من الرفاهية للفرد، والمجتمع، فضلاً عن الاستفادة من ذلك في استحداث أساليب تعليمية جديدة (التعليم من بعد) وتطبيقها أيضاً في مجالات التدريب، وتبادل المعلومات.

٤ - التغير في طبيعة المهن والوظائف، ونوعية المشتغلين بها :

أدى كل من التقدم العلمي من جهة ، وثورة المعلومات والاتصال من جهة أخرى، إلى حدوث تغير ملموس في طبيعة كثير من المهن والوظائف، حيث ظهرت مهن ووظائف جديدة، وانقرضت أخرى، كما حدث تغير في نوعية المهام والمسئوليات

لكثير من الوظائف القائمة ، مما كان له أثر واضح على الأفراد في المجتمعات المختلفة، سواء أكان ذلك على المستوى الاقتصادي ،أم الاجتماعي أم الثقافي أم النفسي، نتيجة لهذا التغير المتسارع في سوق العمل ، وما يرتبط بها من وظائف، ومهن، ومستويات مهارية، تدفع الأفراد باستمرار إلى ضرورة تغيير وظائفهم، وإكسابهم مهارات وكفايات جديدة، ومتجددة باستمرار، ومن هنا كانت ضرورة عمليات التعلم الذاتي، والتعليم المستمر، والتعلم مدى الحياة ، والاستفادة من الإمكانات التكنولوجية في تحقيق ذلك.

٥ - الإخلال بمبدأ تكافؤ الفرص:

أدت ثورة المعلومات والاتصال إلى حدوث إعادة لتنظيم البنية الاجتماعية سواء على المستوى الفردي، أم على مستوى الجماعات ، وحتى بين المجتمعات فيما بينها ، وذلك في ضوء مدى ما يملكونه من وسائل اتصالية، والقدرة على إنتاجها، أو الاستفادة منها، والتعامل معها، أو توظيف ما بها من معلومات وبيانات، بحيث أدى ذلك إلى حدوث تفاوتات بين الأفراد ، والجماعات، والمؤسسات، والأحياء داخل المجتمع الواحد، وبين المجتمعات وبعضها البعض، مما ينعكس ذلك كله على نوعية البشر، وسلوكياتهم وأنماط حياتهم، والمهن والوظائف التي يعملون بها، ومكاناتهم الاجتماعية، ومستوى دخولهم ومعيشتهم، ومدى تأثير قوة نفوذهم، وسيطرتهم، لذلك فإن مسئولية الحفاظ على تكافؤ الفرص في بعض جوانبها تقع على نظم التعليم من خلال جهودها في تعميم الكومبيوتر، واستخداماته بالمدارس والمعاهد ، وإكساب الطلاب العديد من المهارات ذات العلاقة بالتعامل مع تطبيقات ثورة المعلومات والاتصال.

٦ - تزايد الشعور بالاغتراب:

تؤدي تطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصال (الكومبيوتر، الإنترنت، التلفزيون..) إلى مزيد من الشعور بالاغتراب لدى كثير من الأفراد ، نتيجة لما يلمسونه من سرعة عمليات التغيير المتتابعة، التي تلحق بالمجالات الاقتصادية والاجتماعية، وفقاً للتغييرات التي تحملها تلك التطبيقات، وما يترتب على ذلك من عدم، أو قلة، أو عزوف بعضهم عن المشاركة الإيجابية النشطة في شئون بيئاتهم ومجتمعاتهم وفقدان الثقة بالنفس، والقلق الناجم عن عدم القدرة على التفاعل الاجتماعي، بسبب قضاء أوقات طويلة

أمام التلفزيون، أو الكومبيوتر، والإنترنت، وما يترتب على ذلك من تكوين ميول إلى الوحدة والإنطواء، وغياب التفاعل ، والاحتكاك الأسري، وضعف القدرة على الحوار والمناقشة ، فضلاً عن التعرض لاكتساب معلومات، ومعارف، وقيم، واتجاهات قد لا تدعم منظومة القيم والاتجاهات المجتمعية الوطنية، من خلال القنوات المتعددة التي يبثها التلفزيون، أو التي تنشر عن طريق شبكات الإنترنت، مما يسهم ذلك كله في تزايد شعور الأفراد بالاغتراب عن بيئاتهم ومجتمعاتهم، والرغبة في الهجرة إلى مجتمعات أخرى من جهة، وكذلك الشعور بالإحباط، نتيجة عدم القدرة على المشاركة الفعالة، أو الإسهام في إحداث ما يريده من تغيير، أو على الأقل عدم القدرة على التكيف مع بيئته ومجتمعه من جهة أخرى، ومن هنا كانت ضرورة اهتمام نظم التعليم بالأنشطة الجماعية، وفرق العمل واللجوء إلى أساليب تعليمية جديدة، كالتعلم التعاوني، وتعليم الأقران، والتعلم النشط.

ثالثاً:

العلاقات المتبادلة فيما بين العولمة والتربية في المجتمعات العربية، والإسلامية:

انطلاقا من أن التربية بمفهومها العام هي «الحياة» بمعنى أنها جميع الخبرات التي يكتسبها الفرد في أي مجال من مجالات الحياة، وعلى مدى حياته كلها طولاً وعرضاً، وعمقاً، فإن معنى ذلك أنه لا انفصال بين السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي في قوة تأثيره على الفرد، وتشكيله لشخصيته في ضوء ما يتعرض له من مواقف، ويكتسبه من خبرات في كل من تلك المجالات، ومن هنا يتحدد مفهوم التربية الذي يؤكد على أنها «عمليات وأساليب التنشئة المجتمعية».

وفي ضوء ما سبق فإنه يمكن استخلاص أن الظروف والعوامل والمحركات التي أسهمت في توفير التربة التي هيأت مناخاً مناسباً لنشأة وتطور العولمة المعاصرة، سواء ما كان منها سياسياً، أم اقتصادياً، أم اجتماعياً، أم ثقافياً، وما ارتبط بذلك من انهيار ما كان يعرف باسم الاتحاد السوفيتي سابقاً ، وتحول العالم إلى عالم أحادي القطب، وما صاحب ذلك من ثورة علمية وتكنولوجية، وبخاصة في مجال الاتصال والمعلومات، وما ترتب على ذلك

من محاولات القطب الوحيد لإعادة صياغة العالم دولاً، ومنظمات في إطار أيديولوجيته وقناعاته، وبما يحقق مصالحه، وكل هذه الظروف والعوامل والمؤثرات كان لها أكبر الأثر في إكساب خبرات جديدة مرتبطة بكل هذه التحولات، سواء كانت خبرات فردية، أم مؤسسية، أم مجتمعية عامة، إلى الدرجة أن ممثلي العولمة المعاصرة (المؤمركة، والمؤوربة)، يقولون: إن هدفهم هو «إعادة صياغة العالم وفق منظومة العولمة المعاصرة، بما فيها إعادة تربية الأفراد ، وبخاصة في مجتمعات العالم الثالث ، وبصفة أكثر خصوصية في الدول والمجتمعات العربية والإسلامية».

ومن هنا فإن العلاقة تبدو واضحة، فيما بين كل من العولمة، والتربية إلا أن هذه العلاقة لا تكون دائماً في اتجاه واحد، ولكن خبرات التاريخ، والثقافة تؤكد أن العلاقة التي تكون التربية طرفاً فيها تكون ذات اتجاهين، فالتربية لا تكون مفعولا بها فقط ، ولكنها تمتلك من القدرة والخصائص ما يجعلها أيضاً فاعلة.

كما أن العولمة المعاصرة ليس لها وجه وحيد فقط (إيجابياً أم سلبياً)، ولكن باعتبارها ظاهرة عالمية مؤثرة في مختلف المجالات المجتمعية، فإنها تحمل في طياتها بعض المظاهر والتأثيرات الإيجابية، كما تحمل أيضاً بعض المظاهر والتأثيرات السلبية ، وعلى ذلك فإن على التربية، والمسؤولين عنها إدراك ذلك حتى يمكنهم الاستفادة مما تحمله العولمة من إيجابيات، وتقليل تأثير، أو تلافي ما تحمله من سلبيات.

وفيما يلي نتعرض لهذه الجوانب، ودور التربية حيالها، وذلك حتى يمكن استجلاء مضمون العلاقات المتبادلة بين العولمة والتربية.

١ - المظاهر والتأثيرات السلبية للعولمة على التربية :

يمكن تحديد عدد من أهم تلك المظاهر والتأثيرات على مختلف عمليات التربية ويتضح ذلك من خلال تبني الدول النامية لسياسات التضحية في مجال التعليم ، حيث اضطر واضعو السياسات التعليمية (والتربوية)، في ظل ما حملته العولمة من سياسات التكيف الهيكلي الاقتصادية، إلى تبني بدائل للسياسات تناسب حل المعادلة الصعبة التي يتمثل طرفاها في الظروف الاقتصادية المتردية من جهة، والضغوط الشعبية سياسياً واجتماعياً للتوسع في التعليم من جهة أخرى، ومن بين أهم بدائل تلك السياسات مايلي[1]:

(١) المرجع السابق، ص (٢٧٧ – ٢٧٨).

أ - التضحية بالكيف لصالح الكم:

وتستهدف إشباع الطلب الاجتماعي على التعليم (من حيث الكم)، والتضحية بعمليات التحسين النوعي للتعليم، نتيجة التخفيض غير الملائم للموارد المادية والمالية، فيمكن أن نلحظ افتتاح المزيد من المدارس، والمعاهد، والجامعات، لكن دون تهيئة وإعداد مناسبين، حيث يصاحب ذلك أعداد غير كافية، أو مناسبة من أعضاء هيئة التدريس، ومخصصات مالية غير مناسبة أو كافية للأبنية، والتجهيزات، والفصول، والكتب، والمكتبات، وتجهيزات المعامل، وبرامج التدريب، والنمو المهني، وذلك نتيجة لمحدودية الموارد ، وتأثيراتها السيئة على نوعية التعليم.

ب - التضحية بغير القادرين لصالح القادرين:

حيث نجد زيادة في أعداد المقيدين بمراحل التعليم المختلفة ، إلا أن توزيع حالات القيد المدرسي هذه تكون لصالح الفئات ذات الدخول الأعلى، حيث تزداد أعداد المقيدين في المدارس الخاصة ، والمدارس بمصروفات، كما تزداد أعداد المدارس التي تحصل على مقابل للخدمة التعليمية التي تقدمها بالرغم من أنها مدارس حكومية، وبالتالي تهدر فرص الفئات الأقل دخلاً وذات المستوى الاقتصادي ، والاجتماعي الأقل على الرغم من التزايد الظاهري لمعدلات الإنفاق الحكومي على التعليم.

جـ- التضحية بالتعليم الأساسي لصالح التعليم العالي:

حيث إنه في ظل ظروف تطبيق سياسات التصحيح الهيكلي، وفي ضوء وجود وتأثير قوي وجماعات مؤثرة في عمليات تخصيص موارد التعليم، تنتمي بطبيعتها إلى الفئات العليا، والوسطى في البنية الطبقية للمجتمعات، فإنها توجه أولويات الاستثمار لتتحول من التعليم الابتدائي، والأساسي، وتعليم الكبار وبرامج التعليم الجماهيري الأخرى، إلى التعليم العالي، وبالتالي يمكن ملاحظة نمو معدلات الزيادة في أعداد مؤسسات التعليم العالي والمقيدين بها بشكل يفوق نمو تلك المعدلات في مؤسسات التعليم الأساسي وتعليم الكبار، بما يؤكد نمو وتزايد معدلات الاستثمار في مؤسسات التعليم العالي.

د - التضحية بالاستثمارات العامة لصالح النمو الظاهري في الإنفاق:

بالرغم من حدوث زيادة ظاهرية في معدلات الإنفاق السنوي على التعليم، وزيادة الميزانيات المخصصة له من الإنفاق الحكومي، ونظراً لأن هذه الزيادات تكون بأسعار السوق الحالية في ظل وجود زيادة في معدلات التضخم ، فإن حقيقة الأمر تؤكد وجود انخفاض في معدلات الإنفاق على التعليم إذا تم حسابها بالمعدلات الحقيقية للأسعار، بمعنى أن معدل الزيادة السنوية في الإنفاق الحكومي على التعليم يكون أقل من معدل الزيادة السنوية في الأسعار السائدة ، خاصة وأن معظم هذا الإنفاق يوجه لأجور ومرتبات المعلمين ، والعاملين الآخرين في قطاع التعليم، ولا تحظى مجالات الاستثمارات العامة إلا بنسبة ضئيلة قد لا تتجاوز ٥٪ من قيمة ما تخصصه الدولة من موارد للتعليم.

هـ- التضحية بالبنى والصيغ التعليمية المهنية ، والتقنيـة لصالح التعليم العام:

ويمكن أن نلحظ ذلك في مراحل ومستويات التعليم بصفة عامة، سواء أكان تعليماً قبل جامعي، أم تعليماً عالياً، حيث تزداد أعداد المقيدين في نوعيات التعليم العام أكثر مما هو عليه الحال في نوعيات التعليم المهني والفني ، وحتى في مجال التعليم العام نجد زيادة في أعداد المقيدين بالتخصصات الأدبية (النظرية)، أكثر مما هو عليه الحال في التخصصات العلمية، وهكذا بالنسبة للتعليم العالي، وطبيعي أن الدافع الأول خلف هذه السياسات هو ما حدث من خفض في ميزانيات التعليم باعتباره ضمن الخدمات التي ينبغي أن تتحلل الدول من دعمها تدريجيا، وبالتالي فإن تلك الدول تسعى إلى الاستمرار في نوعيات التعليم الأقل كلفة.

و - التضحية بالمحتوى الثقافي الذاتي لصالح المحتوى الثقافي العالمي:

في إطار تهديد السيادة الوطنية، والتدخل في شئوون الدول، وما يمارس في ضوء ذلك من ضغوط، فإن سياسات المناهج تتجه إلى تقليل كم ونوع ما هو مخصص من زمن لدراسة مقررات كل من اللغة الأم، وتلك ذات العلاقة بالجوانب الروحية والعقدية، فضلاً عن مقررات التاريخ ، والجغرافيا، والتربية الوطنية، وذلك لصالح مقررات أخرى كاللغات الأجنبية، والأنشطة، والمهارات الحياتية، وبعض المقررات التي زاحمت النوع الأول الذي يؤكد على المحتوى الثقافي الذاتي.

٢. المظاهر والتأثيرات الإيجابية للعولمة على التربية :

أتاحت العولمة عدداً من المظاهر والتأثيرات الإيجابية التي ينبغي للمسئولين عن التربية، وصناع سياساتها ، ومتخذي قراراتها، الوعي بها، وتوفير البيئة المناسبة لاستثمارها، وتطبيقها ، للاستفادة منها في مختلف مجالات العملية التعليمية، وتطويرها من جهة، وكذلك لمحاولة تلافي بعض المظاهر والتأثيرات السلبية للعولمة على التربية، أو التقليل من آثار تلك المظاهر السلبية من جهة أخرى ، ومن بين أهم المظاهر والتأثيرات الإيجابية للعولمة على التربية ما يلي[1]:

أ - إمكانية تبني سياسات ، واستراتيجيات تربوية و(تعليمية) أكثر فعالية :

يمكن الاستفادة من كل من تأثيرات التقدم العلمي والتكنولوجي ، وكذا تقنيات المعلومات والاتصال، في تحديد توجهات وطنية للسياسات التعليمية تؤكد على التعليم للجميع بما يحمله ذلك من تحقيق لتكافؤ الفرص التعليمية، والتعليم مدى الحياة ؛ لتحقيق إمكانية مداومة التعليم، والعمل، والتدريب طوال سنوات العمر، والربط الوثيق فيما بين مؤسسات التعليم ، وبين مؤسسات العمل والإنتاج، فضلاً عن التوجهات التي تؤكد على تعليم الكبار ومحو الأمية (الأبجدية، والحضارية ، والوظيفية..). بالإضافة إلى توجهات مرتبطة بالتجديد ، والإصلاح التربوي الذي يتناسب مع طبيعة وظروف وتراث المجتمع، وتبادل الخبرات الإقليمية والعالمية ، والتي تتيحها باقتدار إمكانات وتقنيات ثورة المعلومات والاتصال، بما يحقق توسعاً متناسباً في جميع مراحل التعليم ونوعياته، وإنشاء البنى التحتية للكومبيوتر، وتحسين نوعية التعليم وإدارته، والاهتمام بالبحث العلمي في مجال التربية ، وتحديث الإدارة التعليمية والمدرسية.

ب- إمكانية تبني استراتيجيات تكوين قاعدة تكنولوجية وطنية :

بات ضرورياً تبني مثل هذه الاستراتيجيات من خلال صنع السياسات التكنولوجية، ودعم المؤسسات التكنولوجية ، التي تقوم بعمليات البحث والتطوير، وربطها بمؤسسات العمل والإنتاج، وزيادة معدلات تمويلها ؛ للإسهام في بناء قاعدة تكنولوجية، ذاتية

---

(١) همام بدراوي زيدان، دراسة تحليلية للتغيرات العالمية وانعكاساتها على التربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ٢٠٠٢.

تعتمد على اكتساب، ونقل، وتطويع، وتوطين، ونشر، وتطوير التكنولوجيا والمشاركة في إنتاج تكنولوجيا جديدة، وقد يكون من بين الممارسات التعليمية المسهمه في ذلك، تضمين أنواع جديدة من البرامج في مجالات العلوم ، والرياضيات وتكنولوجيا المعلومات، وإدارة التكنولوجيا، وإدارة الجودة الشاملة ، وتزويد الأفراد بالمعرفة والمهارات التكنولوجية المتقدمة.

جـ- إمكانية تبني بنى ونظم تعليمية جديدة:

ارتباطا واتساقا مع التوجهات ذات العلاقة بالسياسات، والاستراتيجيات التربوية والتكنولوجية، فإنه يمكن استحداث وتبني نظم تربوية وتعليمية تتسم بالمرونة النسبية فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين نظم العمل، والتدريب من جهة أخرى، بالإضافة إلى صيغ التعليم الموازي، والتعليم المجتمعي، والتعليم المفتوح، والتعليم من بعد[١] ، وغيرها من صيغ أخرى مناسبة؛ لتسهم في تحقيق مبادئ ديموقراطية التعليم، وتكافؤ الفرص التعليمية، وتقليل الكلفة، وزيادة الكفاءة والفعالية التعليمية.

د- إمكانية تبني برامج ومحتوى وطني يؤكد على الذاتية والهوية الثقافية:

في ضوء إنجازات ثورة المعلومات والاتصال، فإنه يمكن تبني برامج تربوية وتعليمية متعددة ومتنوعة تقدم من خلال مؤسسات، سواء أكانت نظامية أم غير نظامية، حكومية كانت أم أهلية ، بحيث تشتمل تلك البرامج على محتوى يؤكد على كل ما هو مرغوب، ومقصود إحداثه من تغييرات وفقاً لطبيعة المجتمع ، وتراثه ، وثوابته، ومتغيراته، وظروفه ، وبما يؤكد على مقومات ومبادئ الهوية الثقافية من جانب، ومواكبة طبيعة العصر ومتطلباته من جانب آخر، وتقديم تلك البرامج بما يناسب ظروف الدارسين (برامج لكل الوقت، أو لبعض الوقت، أو برامج مكثفه ... وغيرها) ، مع التأكيد على إكسابهم مهارات وأساليب الوصول إلى المعرفة، وذلك من خلال الاهتمام بأساليب التفكير العلمي، والتفكير الناقد ، وبعمليات العلم التي تسهم في تحقيق ذلك.

---

(١) همام بدراوي زيدان، وآخرون، الإعلام المعلوماتي وبعض صيغ التعليم من بعد في عالمنا المعاصر، دراسات تربوية، العدد (٧٢)، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٤.

رابعاً :

متطلبات تفعيل دور التربية في ظل العولمة المعاصرة بايجابياتها وسلبياتها :

من منطلق تعدد الوسائط التربوية ، وشمولها لمعظم مؤسسات المجتمع - إن لم يكن جميعها - ومن بينها مؤسسات التعليم، فإنه يمكن السعي لزيادة كفاءة تلك المؤسسات، والارتقاء بفعاليتها ، وذلك في إطار شمولي، وتكاملي، واع بأهدافها، ووظائفها، وأساليبها، وبأدوارها الفاعلة في المجتمع، والتي يمكن من خلالها التعامل الكفء مع ظاهرة العولمة المعاصرة، وكل مظاهرها وآثارها، سواء كانت إيجابية أم سلبية ، بما ينعكس في النهاية على إمكانية تحقيق الغايات والأهداف الكبرى للمجتمع.

ويحتاج هذا التفاعل والتعامل الكفء مع ظاهرة العولمة توافر عدد من المتطلبات الضرورية، والتي من أهمها ما يلي:-

١. توافر إرادة سياسية، وشعبية و وطنية :

إن توافر هذه الإرادة الواعية ، وما يرتبط بها من إدارة كفؤة ، تستطيع أن تحدد وبدقة الغايات الوطنية الكبرى ، وما يرتبط بها من سياسات واستراتيجيات، تتسم بالشمول، وبخاصة في مجال التربية والتعليم، معتبرة أن مجال التربية هو مشروعها الوطني باستمرار، باعتباره وسيلتها في إعداد أجيالها، بالأساليب التي تناسب تحقيق الخصائص، والسمات، والكفايات، والمهارات التي تتمنى تلك المجتمعات أن تراها متحققة في أجيالها، وذلك كله في ضوء طبيعة وخصائص وظروف ومتغيرات المجتمع.

٢. وضع سياسات تربوية شاملة :

بمعنى تحديد الوسائط التربوية في المجتمع، والاتفاق على وضع سياسات تربوية تتسم بالشمول؛ لتحتوي كل تلك الوسائط (الأسرة، مؤسسات التعليم، الإعلام، دور العبادة، المؤسسات الشبابية والرياضية، والمؤسسات الأخرى ذات العلاقة)، مع ضرورة التنسيق الكامل فيما بين تلك السياسات، وأهدافها، وأساليبها ؛ لتعمل بشكل متناسق ومتناغم، حيث إن الجميع تكون غاياته واحدة، وإن اختلفت الوسائل والأساليب، تبعاً لطبيعة كل وسيط.

٣. **تطبيق سياسات متوازنة:**

بحيث لا تضحّى بغاية في سبيل غاية أخرى - كسياسات التضحية التي سبق الإشارة إليها – ولكن لابد من توافر الوعي والرغبة ، والإرادة التي تستهدف توازن الغايات حتى لا ندرك بعضها، ونترك بعضها الآخر ، وبما يحقق في النهاية توازناً بين كل من (العالمي والوطني، والعمومية والخصوصية، والتراث والحداثة، اعتبارات المدى الطويل، والمدى القصير، التنافس والتميز، وتكافؤ الفرص، والتوسع، والقدرة على استيعابه الروحي والمادي حماية الهوية الثقافية، وتعزيز التماسك الاجتماعي .. وغير ذلك)(١).

٤. **التكامل بين التعليم النظامي وغير النظامي:**

تحقيقاً لمبادئ التعلم مدى الحياة، والتربية المستدامة، فإنه من الضروري إحداث تكامل بين مؤسسات التعليم النظامي بتبعياته المختلفة، سواء أكانت حكومية، أم أهلية، أم خاصة، مع إيلاء اهتمام خاص بالتعليم الأهلي - وليس الخاص – وتشجيعه، وبين مؤسسات التعليم غير النظامي، بما فيها مؤسسات التدريب والعمل، والإنتاج، وبحيث يشمل هذا التكامل كل من السياسات، والأهداف، والخطط، والبرامج، خاصة وأن تحقيق ذلك يمكن أن يسهم في تحقيق الغايات المجتمعية الكبرى ، بغض النظر عمايمكن أن يتعرض له التعليم النظامي من ضغوط سواء أكانت دولية أم إقليمية أم محلية.

٥. **تنويع مصادر تمويل التعليم:**

فإنه في الوقت الذي تضطر فيه المجتمعات ـ تحقيقاً لأهداف وتداعيات العولمة الاقتصادية ـ إلى خفض ميزانيات التعليم ، أو عدم زيادتها عن نسبة معينة من الناتج الإجمالي، فإنه لابد من البحث عن مصادر تمويل متنوعة إلى جانب ميزانية الدولة، حتى يمكن تلبية الطلب المتزايد على التعليم، وتحسين نوعيته، وبحيث لا يمثل ذلك عبئاً إضافياً كبيراً لا تطيقه الأسرة، أو لا يطيقه الأفراد الراغبون في التعلم.

---

(١) كولن. ن. باور، التعلم وسيلة أم غاية، نظرة في تقرير ديلور وتأثيره على التجديد التربوي، مستقبليات، العدد (١٠٢) ،مركز مطبوعات اليونسكو، القاهرة، ١٩٩٧.

٦. تشجيع الدور التربوي ، والتعليمي لمنظمات المجتمع المدني :

ويمكن أن يتأتى ذلك من خلال تشجيع إنشاء ، وتأسيس منظمات المجتمع المدني، وبخاصة تلك المهتمة بتحقيق أهداف تربوية وتعليمية وطنية، بحيث تتيح إمكانية نشر الخدمات التربوية والتعليمية في تلك المواقع والبيئات التي لا تصل إليها، أو تقل فيها تلك الخدمات، بالكم والنوعية المستهدفة وطنياً.

٧. تشجيع العمل الأهلي، والتطوعي في مجال التربية والتعليم :

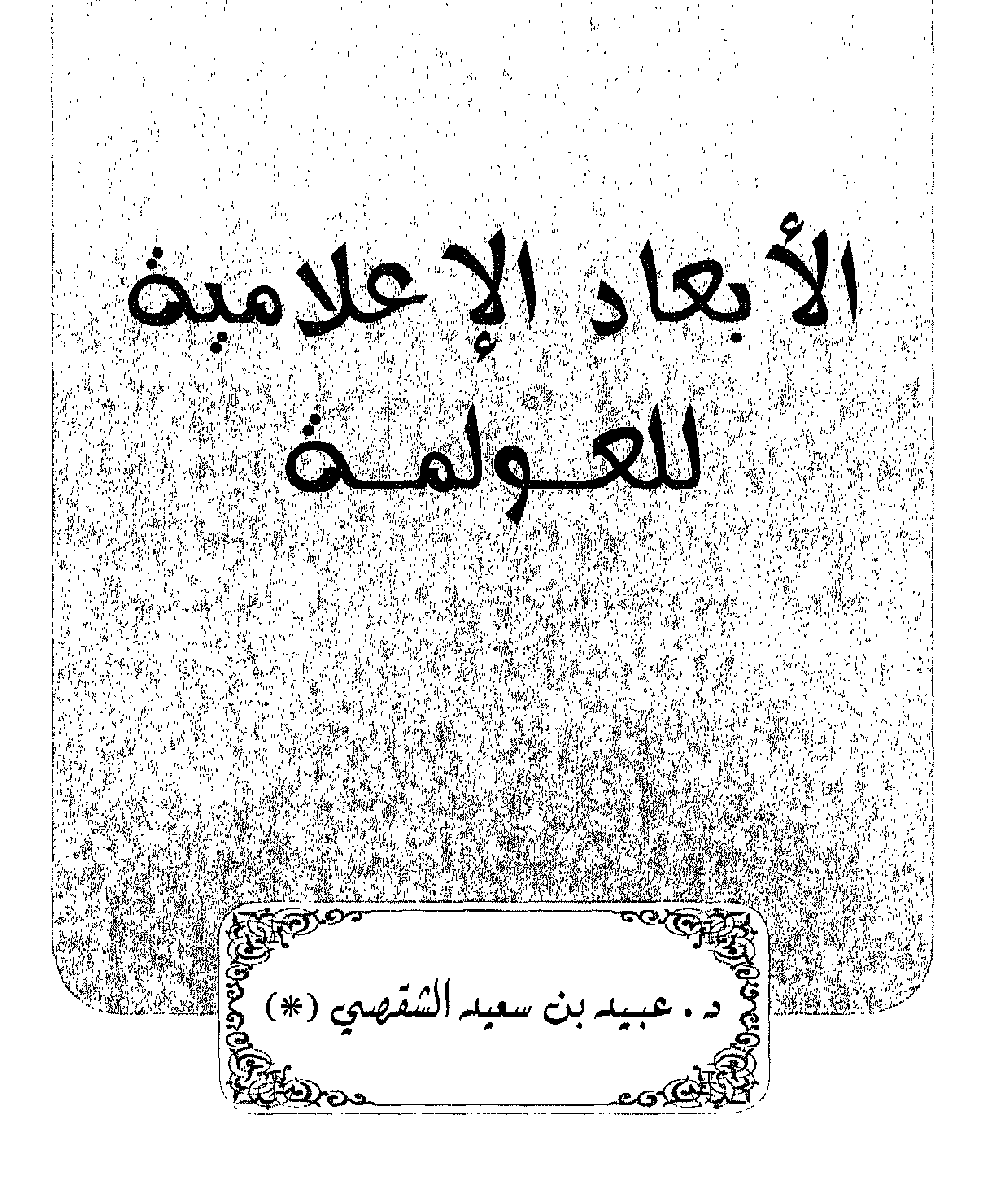
بحيث لا يقتصر هذا المجال على الجهد الرسمي الحكومي فقط، أو حتى منظمات المجتمع المدني، ولكن يمتد ليشمل الجهود الفردية، والجماعية التطوعية، أو ما يعرف باسم الجهود الذاتية (أهل الخير، والبر، ورجال الأعمال، وغيرهم) سواء أكان ذلك من خلال تشييد أبنية تعليمية، أو تجهيز مرافقها، أو تدبير مصروفاتها الجارية ، أو الإنفاق على طلابها، أو تقديم حوافز للعاملين فيها، أو غير ذلك من مصاريف، وسواء أكانت تلك المؤسسات والأبنية التعليمية من النوع التقليدي (كالكتّاب، ومدارس القرآن، والمعاهد الدينية ...) ، أم النوع الحديث كالمدارس والمعاهد العامة.

٨. مراعاة البعد الاجتماعي عند تطبيق السياسات الاقتصادية :

لتقليل التأثيرات، والتداعيات السلبية لتطبيق السياسات الاقتصادية المرتبطة بآليات السوق، فإنه لابد من مراعاة الأبعاد الاجتماعية ، وبخاصة تلك التي تنعكس على مدى قدرة الأفراد، والأسر، على الإنفاق التعليمي، وبحيث لا تتعارض مع مبادئ العدالة، والمساواة، وتكافؤ الفرص بين أبناء الوطن والمجتمع الواحد.

٩. التأكيد على الأبعاد الثقافية للهوية الذاتية :

حيث ينبغي أن تمثل تلك الأبعاد الثقافية للهوية الذاتية ظهيراً لا يغيب عن برامج ومحتوى، وأنشطة، وممارسات المؤسسات التربوية، والتعليمية بمختلف نوعياتها، ومجالاتها، وتبعياتها؛ لتصبح تلك الأبعاد نسيجاً ثقافياً متناسقاً ومتماسكا، ممثلة لرصيد ثقافي، وحضاري، متميز بشكل كبير في تكوين عقل، ووجدان، وروح الأمة، التي تستقبل ، وتتفاعل من خلاله ، مع العوامل والمتغيرات العالمية ، وتشارك بفعالية في صياغتها، والتأثير فيها على قدم وساق مع المجتمعات الأخرى على مستوى العالم.



(*) يعمل أستاذا مساعدا بقسم الإعلام، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، إضافة إلى شغله عضوية عدد من اللجان المتخصصة، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات المحلية، والدولية، وقد نشر له العديد من الدراسات منها: تأثير القنوات الفضائية على ثقافة الشباب الجامعي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

تطرق عددٌ كبير من الباحثين للعولمة تارة كمفهوم ، وتارة كأبعاد ، وثالثة كتداعيات على مستقبل البشرية جمعاء ، وقد اكتسبت العولمة بكافة صورها اهتماما خاصا منذ العقد الأخير من القرن العشرين، وخصوصا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، وظهور الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى أوحد في العالم ، كما اختلفت اتجاهات الباحثين حول العولمة، فمنهم من يرى بأنها ضرورة حتمية، ونتيجة طبيعية للتقدم الذي أحدثته البشرية في مجال العلوم والاتصالات ، وفريق آخر يرى بأنها أصبحت سبيلا لسماع أصوات أولئك الذين لم تمكنهم مستوياتهم الاقتصادية، والسياسية في الماضي، وطريقا لإحراز المزيد من التقدم، وثالث ينظر إلى العولمة بعين من الريبة والشك ، ويرى بأنها نموذجا مبتكرا لاستمرارية تفوق القوي وتبعية الضعيف في العالم، وفريق رابع يرى بأنها وسيلة لتذويب الثقافات الأخرى ، وإشاعة مفهوم الثقافة الواحدة ، ولكن عددا كبيرا من الباحثين أيضا يقرون بأن مستقبل العولمة وتداعياتها في بلدان العالم لا يمكن تحديده سلفا ، فهل ستقود هذه العولمة إلى خلق توازنات اقتصادية ، وسياسية ، وثقافية كما يأمل البعض؟ أم سيفضي بها الأمر إلى مزيد من الاختلال وربما الاحتلال غير المباشر؟ ، وهل ستساهم العولمة في إنماء الشعور بضرورة الاعتراف بالآخر واحترامه ؟ ، أم ستؤدي إلى مزيد من النزاعات ، والحروب بسبب التهميش وسطوة القوي على الضعيف؟ وهل ستسهم العولمة فعلا في حل مشاكل الفقر ، والبطالة من خلال الدفع باستثمارات الشركات المتعددة الجنسيات داخل الحدود الوطنية؟ أم أن هذه الاستثمارات تعمل على امتصاص خيرات الدول الفقيرة وتسمين الأغنياء؟

ولكن رغم تعدد أبعاد العولمة ، وتعدد جوانبها تبقى تكنولوجيا الاتصال ، وتقدم وسائل النقل والمواصلات المحركان الأساسيان لهذا الزخم الذي تشهده العولمة ، وتعتبر العولمة الإعلامية من الأبعاد التي أثارت ضجة كبيرة في أوساط كبيرة من المجتمعات ، والشعوب ربما؛ لأنها تُعايَش بصورة يومية وملموسة ، ولذلك تحاول هذه الورقة مناقشته أبعاد العولمة الإعلامية من زوايا تشمل مفهوم، وخصائص العولمة الإعلامية، والتحديات الإعلامية التي فرضتها العولمة على الإعلام العربي، والهوية الثقافية.

مفهوم العولمة:

من الصعب تحديد مفهوم بعينه ليشمل أبعاد العولمة المختلفة، مثل العولمة الاقتصادية، والعولمة السياسية، والعولمة الإعلامية، ولكن ينبغي اشتقاق مفهوم العولمة من الدلالة العامة لأصل الكلمة، وفي هذا الإطار نجد أن العولمة مشتقة من عالم أو عالمي(global)، وينطوي على هذه الكلمة أن يسود العالم نمطا متماثلا، ربما من الأفكار والتوجهات والسلع، وقد عرف «رونالد روبرتسون» العولمة بأنها «اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم، وزيادة وعي الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش»، في حين يؤكد فانتوني جيدنز بأن العولمة هي «مرحلة من مراحل بروز وتطور الحداثة، وتتكثف فيه العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي». ويعرفها مالكوم واترز -مؤلف كتاب العولمة- بأنها «كل المستجدات والتطورات التي تسعى بقصد أو من دون قصد إلى دمج سكان العالم في مجتمع عالمي واحد»، أما كينشي أوهماي فيعرف العولمة بأنها تلك التي ترتبط شرطاً بكل المستجدات، وخصوصاً المستجدات الاقتصادية التي تدفع في اتجاه تراجع حاد في الحدود الجغرافية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية القائمة حالياً.

ورأى بعض الباحثين عدم الخوض في إيجاد تعريف محدد للعولمة، واكتفى بتحديد خصائصها لتقريب المفهوم[1]. حيث تطلق العولمة على التداخل الواضح والمتنامي في أمور الاقتصاد والسياسة، والثقافة والإعلام بين دول العالم إلى درجة يصعب فيها تحديد السيادة والهوية الوطنية للدولة، بينما حاول باحثون آخرون إيجاد تعريفات محددة لجوانب العولمة المختلفة، لذا أصبح من الضروري التمييز بين «العولمة» الاقتصادية و«العولمة» الثقافية؛ فالعولمة الاقتصادية تعني نمو وتعميق الاعتماد المتبادل بين الدول، والاقتصاديات القومية وفي وحدة الأسواق العالمية، وتوحيد أنظمة وقوانين التجارة والاستثمار، من خلال الدخول في منظمات دولية، مثل منظمة التجارة العالمية، والعمل على فتح الأسواق المحلية للاستثمارات الأجنبية[2].

وبصورة عامة فإن صياغة تعريف دقيق للعولمة تبدو مسألة شاقة نظراً لتعدد تعريفاتها، والتي تتأثر أساساً بانحيازات الباحثين الأيديولوجية، واتجاهاتهم إزاء «العولمة» رفضاً أو

---

(١) سكران، محمد محمد: العولمة والهوية الثقافية، (١٩٩٩)، ص ٣٨.

(٢) البنا، (١٩٩٩)، ص ١٠٥.

قبولاً، فضلاً عن أن العولمة ظاهرة غير مكتملة الملامح كونها عملية مستمرة تكشف كل يوم عن وجه من وجوهها المتعددة ، وأياً كان الأمر فيمكن القول: إن جوهر عملية «العولمة» يتمثل في سهولة حركة الناس والمعلومات ، والسلع بين الدول على النطاق الكوني ، وطالما صدرت الدعوة إلى «العولمة» من الولايات المتحدة فإن الأمر يتعلق بالدعوة إلى توسيع الأنموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله ، وهذا ما يجعل مفكراً مثل «ريجيس دوبريه»، يرى أن «العولمة» التي تتم الدعوة إليها اليوم «عولمة زائفة»، فالأنماط السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية المطروحة فيها ، أو من خلالها هي أنماط أمريكية ، وبالتالي فإنه ليس غريبا أن يستبدل بعض الكتاب مفهوم العولمة بمفهوم الأمركة(١).

ومن ذلك يمكن القول: إن العولمة هي محاولة لتعميم أفكار ونظم وسياسات لجميع الدول والشعوب، باستخدام تقنيات الاتصال ، والإعلام، ووسائل النقل والمواصلات ، وتضمحل من خلال هذه المحاولة أشكال الولاءات القديمة للوطن ، والأمة واستبدالها بولاءات جديدة وأفكار من نوع القرية العالمية ، والاعتماد المتبادل مما يصلح استخدامه مع جميع الأمم.

تاريخ العولمة:

من الخطأ إرجاع بداية العولمة إلى انهيار الاتحاد السوفيتي ، وبروز الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة في هذا العالم، فالعولمة بمفهومها البسيط تعود تاريخيا إلى أبعد من ذلك، إلا أن انهيار الاتحاد السوفيتي ، والتفوق التقني في تكنولوجيا الاتصال، والمعلومات ساهم في جعل العولمة قضية ملموسة على مستويات شعبية ورسمية، ووطنية وقومية(٢) ، فمنذ سنوات طويلة ومجتمعات دول العالم الثالث تعيش في حالة من الاعتمادية شبه التامة على الفكر والتكنولوجيا الغربية ، فمعظم الأفكار الاقتصادية والنظريات الاجتماعية والمواد والبرامج الإعلامية في هذه الدول مستوحاة من الغرب، إما كنماذج جاهزة، أو بتعديلات طفيفة ، وما يجري اليوم هو بمثابة الحدود العليا من التداخل والاعتمادية بشكل يصعب على هذه الدول الفكاك منه في ظل القوانين، والمنظمات الدولية التي تهتم برعاية استمرارية هذا التفاوت بين الفئة التي تملك، والفئة التي لا تملك ، ويرى بعض الكتاب أن محاولات الدول إلى إخضاع العالم ، أو أجزاء كبيرة منه تحت منظومة

---

(١) اللواج، عزالدين : الإعلام العربي وتحديات العولمة، من موقع الجيل، ٢٠٠٥/٦/١ .

(٢) الحديثي، مؤيد عبد الجبار: العولمة الإعلامية والأمن القومي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن (٢٠٠٢)، ص٣٣.

اقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ، وسياسية قديمة وأخذت في الغالب طابعا عسكريا ، حيث أجبر الأسبان أمما قائمة في أمريكا اللاتينية على اعتناق المسيحية، واستخدام الأسبانية كلغة قومية ، وأجبرت فرنسا الشعوب العربية في شمال المغرب العربي على تبني الثقافة الفرنسية لغة وفكرا وممارسة ، وربما الاختلاف الوحيد الذي تشهده عولمة هذا العصر هو التنحي قليلا عن استخدام القوة العسكرية كوسيلة رئيسة لفرض العولمة، والاستعاضة عنها بالتفوق الإعلامي والتقني الذي يروج للعولمة ، ويسعى إلى تطبيع العقول من أجل القبول بها ، ويرى الحديثي أن العولمة تعيش الآن مرحلة من عدم اليقين عن المستقبل الذي ستؤول إليه.

أهداف العولمة :

تعددت الرؤى الخاصة بأهداف العولمة وفقا للمؤيدين ، والمعارضين لها ، فبينما يتخذ المؤيدون مواقف إيجابية عن العولمة على المستويين المحلي والعالمي، يرى المعارضون لها أنها أنموذجا لجلب المزيد من الفقر، والخراب ، والرتابة في هذا العالم ، ويرون بأنها الوسيلة الجديدة التي ابتكرها الغرب ؛ لضمان تفوقه اقتصاديا وإعلاميا ، وضمان تبعية دول العالم الأخرى واستغلال ثرواتها وخيراتها مقابل مكاسب ضئيلة جدا ويجمل الجزائري[1] أهداف المؤيدين والمعارضين للعولمة على النحو التالي:

أ- أهداف العولمة من وجهة نظر مؤيديها :

١- توحيد الاتجاهات العالمية ، وتقريبها بهدف الوصول إلى تحرير التجارة العالمية (السلع ورؤوس الأموال).

٢- محاولة إيجاد فرص للنمو الاقتصادي العالمي.

٣- زيادة الإنتاج العالمي و توسيع فرص التجارة العالمية.

٤- تسريع دوران رأس المال على المستوى العالمي من خلال ما يسمى (Office Back).

٥- التعاون في حل المسائل ذات الطابع العالمي (الأسلحة المدمرة، مشاكل البيئة، المخدرات، الإرهاب).

---

(١) انظر: الجزائري، الأمجد قارة : العولمة .. أمركة العالم أم عولمة أمريكا ؟ من موقع ثانوية أون لاين، ٢٠٠٥/٥/٢٥.

٦- فتح الباب على مصراعيه في مجال التنافس الحر.

٧- تدفق المزيد من الاستثمارات الأجنبية.

ب - أهداف العولمة من وجهة نظر معارضيها :

١- فرض السيطرة الاقتصادية ، والسياسية والعسكرية على شعوب العالم.

٢- هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على اقتصاديات العالم من خلال سيطرة الشركات الأمريكية الكبرى على اقتصاديات الدول، ويكفي أن نذكر في هذا الصدد حجم القوة المالية لشركة جنرال موتور الأمريكية ، إذ تفوق المعاملات المالية لهذه الشركة إجمالي الدخل الوطني للدانمارك ، وتفوق المعاملات المالية لشركة فورد الدخل الوطني لجنوب أفريقيا، ويفوق تعاملات شركة تويوتا اليابانية الدخل الوطني للنرويج[1]، هذا فضلا عن وجود شركات كبيرة يعتمد عليها العالم بأسره في مجال الحاسب الآلي والبرمجيات، مثل: شركة ميكروسوفت التي تربع صاحبها بيل جيتس هذا العام (٢٠٠٦) عرش الأثرياء للسنة الثالثة على التوالي برأسمال يزيد عن ٥٠ مليار دولار، ويشير الحديثي[2] إلى أن الشركات الغربية والأمريكية خصوصا تشكل محور الاقتصاد العالمي ، إذ تسيطر على الاقتصاد العالمي ٥٠٠ شركة يوجد (٤٧٢) منها في دول الشمال مقابل ٢٨ شركة في دول الجنوب.

٣- تدمير الهويات والثقافات القومية ، وتغليب الثقافة الغربية.

٤- صناعة القرار السياسي ، والتحكم فيه خدمة لمصالح أمريكا.

٥- إلغاء النسيج الحضاري و الاجتماعي للأمم الأخرى.

٦- تفتيت الدول والكيانات القومية.

ولكن يحاول فريق ثالث أن يميط عن العولمة سوء الفهم الذي عرضها، إما لمعارضة شديدة أو لتأييد شديد ، إذ يرى عبد الخالق عبدالله[3] أن العولمة ليست خيرا وليست شرا، وإنما هي ظاهرة لا يعرف بعد المصير النهائي الذي ستؤول إليه ؛ فالعولمة من وجهة نظره

---

(١) الجنحاني، الحبيب : ظاهرة العولمة : الواقع والآفاق ، مجلة عالم الفكر، ١٩٩٩، عدد ٢، مج ٢٨ ، ص ٢٨ .

(٢) الحديثي : العولمة الإعلامية والأمن القومي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع الأردن، ٢٠٠٢، ص ٧٢.

(٣)عبدالله، عبد الخالق : العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، مجلة عالم الفكر، ١٩٩٩، عدد ٢، مج ٢٨، ص٤٦.

لا تعني اندماج العالم على منهج اقتصادي ، أو سياسي ، أو ثقافي محدد، بل من المتوقع أن تتشعب الثقافات في إطار القدرة التكنولوجية للأمم والشعوب التي ترغب في التعبير عن هويتها ، وثقافاتها للآخرين ، كما يرى بأن العولمة ليست خلاصا مؤكدا للظلم، والفقر الذي تعاني منه بقية الشعوب ، والعولمة ليست الأمركة ، ولكن ظهور الولايات المتحدة كقوة عالمية وحيدة بقدرات تكنولوجية ، واقتصادية ، وعسكرية جعلها تتصرف وكأنها راعية للعالم بأسره ، وتحاول أن تفرض نماذج ثقافية واقتصادية على بقية الدول ، ولكن ربما لن تتمكن من ذلك، وربما تكون وجهة نظر عبد الخالق هذه صحيحة لو أن العولمة بكافة جوانبها تأخذ التواصل الحضاري القائم على التبادل السلمي ، وإتاحة فرص متساوية لبقية العوالم والثقافات ، وليس بأسلوب الفرض والتهديد وقطبية السيادة والسيطرة.

وفي الجانب الآخر، يصعب التحدث عن أهداف العولمة ، وآثارها بمفهوم عام، ذلك أن العولمة تتضمن جوانب مختلفة، وتداعيات هذه الجوانب تختلف من دولة لأخرى ، فبينما تتأثر الدول النامية بكل هذه الجوانب (اقتصاديا ، وثقافيا ، وسياسيا) تجد الدول الغربية مصالحها الاقتصادية في إدماج العالم في نسق اقتصادي واحد ، وفتح منافذ استهلاكية جديدة ، وبينما تحارب بعض الدول خطر إشاعة الثقافة الاستهلاكية وسط شعوبها ، تسعى مجتمعات أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية إلى تعزيز هذه الثقافة لضمان استمرارية تدفق منتجاتها لدول العالم، وتبعا لذلك فإن الحديث عن العولمة الإعلامية كجانب أساسي من جوانب العولمة ينبغي أن يفرد له اهتماما خاصا؛ نظرا لوجود أطراف غير متكافئة وتبعات مختلفة في الوقت نفسه.

مفهوم العولمة الإعلامية أو إعلام العولمة :

نظراً لأن الملمح الاقتصادي هو الملمح الفاعل ، والمحرك لمختلف أبعاد العولمة ، فإن القطاعات الإعلامية العربية تأثرت بالنمط الاقتصادي العولمي ، حيث أسهمت تأثيرات ذلك النمط في تفعيل الغايات ، والأهداف المرجوة من وراء ظهور فكرة «اقتصاديات الإعلام» ، والتي كانت المقدم الرئيسي لما بات يسمى الآن بإعلام العولمة ، ويعرف السيد أحمد مصطفى العولمة الإعلامية بأنها: «سلطة تكنولوجية ذات منظومات معقدة، لا تلتزم بالحدود الوطنية للدول، وإنما تطرح حدوداً فضائية غير مرئية، ترسمها شبكات اتصالية معلوماتية على أسس سياسية ، واقتصادية ، وثقافية وفكرية ؛ لتقيم عالماً من دون دولة،

ومن دون أمة، ومن دون وطن، هو عالم المؤسسات والشبكات التي تتمركز وتعمل تحت إمرة منظمات ذات طبيعة خاصة، وشركات متعددة الجنسيات ، يتسم مضمونه بالعالمية، والتوحد على الرغم من تنوع رسائله التي تبث عبر وسائل تتخطى حواجز الزمان ، والمكان واللغة؛ لتخاطب مستهلكين متعددي المشارب والعقائد والرغبات والأهواء»[1]. ويرى بعضهم أمثال محمد عابد الجابري أن مفهوم العولمة الإعلامية يشير إلى محاولة إقصاء ، وتمييع الهوية الثقافية ، وسلب الخصوصية بشكل مقصود نظرا لارتباط هذا الفعل بالمصالح الاقتصادية ، والتجارية للشركات متعددة الجنسية ، فمن شأن هذا الانتشار الواسع لثقافة مشتركة أن يوسع من دائرة السوق الاستهلاكية لهذه الشركات، فضلا عن سهولة مخاطبة الشعوب ذات القواسم الثقافية المشتركة سياسيا، واجتماعيا.

خصائص إعلام العولمة :

خرج المجتمعون في الحوار الألماني العربي الذي حمل عنوان «إعلام بلا حدود، العولمة المحلية ، الصحافة ، والهوية الثقافية» والذي عقد في مسقط في ٢٥-٢٦ أبريل ٢٠٠٥ بمجموعة من الخصائص التي تفند الإعلام المعولم ـ إذا جاز التعبير ـ ، وقد جاءت هذه الخصائص على النحو التالي:

١. تعمل وسائل الإعلام بشكل متزايد في إطار شركات دولية تهدف إلى تسويق منتجاتها في السوق العالمي.

٢. تسهم المحطات الفضائية العربية الجديدة في تنويع التغطية التليفزيونية عالميا، غير أنها لا تزال تعاني من بعض النواقص الكيفية والمهنية.

٣. إن المعروضات الإعلامية موجهة بشكل متزايد إلى مصالح تسويقية عالمية ، وفي هذا الإطار يسود شكل من أشكال «العولمة المحلية» ، أي ما يعني مواءمة المعروضات الإعلامية العالمية لغويا وثقافيا للمعطيات المحلية.

٤. يتم استعمال المنتجات الإعلامية الأجنبية في المقام الأول في الدول ذات الكثافة السكانية الضعيفة ، والتي تحدها دول أكبر لها نفس اللغة ، أو لديها تعدد إعلامي محدود.

٦. إذا ما تم استقبال المعروضات الإعلامية الأجنبية بشكل أكثر كثافة، فعادة ما ينشأ

---

(١) اللواج : يونيو ٢٠٠٥ .

جدل بشأن ما لذلك الأمر من عواقب على الهوية الثقافية للبلد ، وبشأن ردود الفعل السياسية المحتملة.

٧. الهوية الثقافية لبلد ما (أو لمنطقة) تكون أكثر استقرارا إذا ظلت «حية» ، أي إذا شارك في تولي مسئوليتها عدد كبير من الأفراد.

ويقسم عزالدين اللواج خصائص إعلام العولمة إلى ثلاثة أقسام أساسية هي:

أولاً : إنه إعلام استهلاكي يهدف إلى تحقيق الآتي :

- السعي إلى تشكيل الحياة الاجتماعية للشعوب وفق مصالح الأطراف المهيمنة على مركز إعلام العولمة .
- إعلام يعمل على تغيير الواقع الثقافي من خلال تعويد العقول على مشاهدة ، ومعايشة الأنماط المغرية للثقافة الغربية .
- إعلام يشجع على الانخراط النشط في الثقافة الغربية، بالأشكال الجديدة لها من مأكولات ، وملبوسات ، ومتع وترفيه ، وإنفاق يتجاوب مع حاجة اقتصاد السوق الرأسمالي .
- إعلام يتفنن في تطوير أساليب ، ووسائل التأثير في المتلقي ، ومن أهمها التكيف مع ثقافة السوق ، وتقديم المواد الإعلامية السهلة والسريعة والبسيطة ، والتأثير على المتلقي عبر وسائل عدة منها التدفق الحر للمعلومات ، وتنويع الرسالة الإعلامية ، والبث السريع المتواصل، والاعتماد على الأساليب السيكولوجية في إحداث التأثير على المتلقي.

ثانياً : إعلام يبذل جهده من أجل « تقليص دور الجامعات والمنظمات الدولية في تنظيم بيئة الإعلام ، والاتصال المحلية، لصالح الشركات متعددة الجنسية، وذلك من خلال الدعوة إلى تغيير التشريعات ، والنظم التي تعوق التدفق الحر للمعلومات والصور، والرموز بين الدول أو تمنح الحكومات أدواراً ، ووظائف إعلامية كالتخطيط ، والرقابة والمنح والمصادرة ».

ثالثاً : إعلام شبه مؤمرك لا يحترم خصوصية الآخر الثقافية، باعتبار أن التهجين الثقافي يعد أحد أهم روافد الأمركة الإعلامية ، والموجهة ضد دول الشمال والجنوب على حد سواء .

العولمة الإعلامية ودول الجنوب:

عانت العديد من دول العالم خصوصا دول العالم الثالث من الخلل في التوازن الكمي والكيفي ، ليس فقط في مجال التدفق الإعلامي من حيث الأخبار والإنتاج البرامجي بينها وبين دول الشمال ، ولكن أيضا في مجال امتلاك تقنيات الاتصال والمعلومات ، وقد سبق أن طرحت قضية عدم التوازن الإعلامي على مستوى الأمم المتحدة منذ سبعينيات القرن الماضي ، وانتهت مطالبة دول العالم الثالث لتصحيح هذا الخلل بأمرين مهمين . الأول استصدار في عام ١٩٧٨ مبدأ نظام إعلامي عالمي جديد - على غرار نظام اقتصادي عالمي جديد- يدعو إلى حرية تدفق المعلومات بشكل متوازن ، مقابل تقديم الدول الغربية مساعدات لتمكين إعلام دول العالم الثالث من النهوض[١] ، والأمر الثاني: هو انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٥ ، وبريطانيا عام ١٩٨٦ من منظمة اليونسكو، وبالتالي فقدان المنظمة ثلث ميزانيتها ، وكان هذا الانسحاب بمثابة رسالة مباشرة لرفض الولايات المتحدة الأمريكية تبني أية التزامات إعلامية تجاه دول العالم الثالث ، والإيمان بنظام السوق المفتوحة في مجال تبادل الأخبار والمعلومات وتدفقها.

وهكذا تتضح منذ البداية وجود هوة بين دول الجنوب ودول الشمال في المجال الإعلامي على أساس كمي وكيفي معا ، ولكن ثورة تكنولوجيا الاتصال ، والمعلومات التي شهدها العالم منذ العقد الأخير من القرن العشرين جعلت الكثيرين يعلقون الآمال حول إمكانية تقليل دول العالم الثالث من هذه الهوة ، حيث ترى هذه الفئة أن البث الفضائي وشبكة الإنترنت من شأنهما أن تجعلا أصوات دول العالم الثالث مسموعة لدى الشعوب الأخرى ، ولكن هل استطاعت دول العالم النامي حقيقة أن تحقق هذا التوازن بعد مضي أكثر من ٢٠ عاما على أول بث فضائي تلفزيوني مباشر من الأقمار الصناعية لمنازل المشتركين ، ومرور حوالي ١٥ عاما على الاستخدام التجاري الواسع لشبكة الإنترنت؟ ، أم أن هذه الثورة التكنولوجية في مجال الإعلام والاتصال ساهمت في زيادة الهوة، وسيطرة الدول المتقدمة وخصوصا أمريكا على المجال الإعلامي؟

للإجابة عن هذه التساؤلات المتعلقة بمدى استفادة أو عدم استفادة دول العالم النامي من تكنولوجيا الاتصال الحديثة ، يبنغي قراءة الأرقام لتوضيح حجم التباين الكمي

---

(١) رشتي : ١٩٨٦ ، ص ٣٤٦ .

والكيفي بين دول العالم ، فقد بات معلوما أن الولايات المتحدة الأمريكية تسيطر اليوم على تكنولوجيا الاتصال ، وعلى المعلومات التي تحتويها ، أو تقدمها للجمهور العالمي ، حيث يوجد حوالي ٢٠٠٠ قمراً صناعياً في الفضاء لأمريكا الشمالية يتم استغلالها لأغراض الإعلام والاتصال، والأرصاد الجوية والعمليات الاستخباراتية والعسكرية، وتحتكر الولايات المتحدة الأمريكية ٩٠٪ من المعلومات حول العالم ، وتبلغ نسبة مساهمتها في المعلومات عبر شبكة الإنترنت حوالي ٧٥٪ تصدر شركات الإنتاج الإعلامي ، والسينمائي الأمريكية حوالي ثلاثة أرباع البرامج التي تبثها عبر العالم، في حين لا تتعدى نسبة ما تستورده (٢٪).

وتشير الدراسات إلى أن (٩٧٪) من الأجهزة المرئية موجودة في الغرب الذي يمتلك أيضاً ٨٧٪ من الأجهزة المسموعة ، وأن ٩٠٪ من مصادر الأخبار في دول العالم الثالث مستوردة من الدول الغربية[1]، والمفارقة أن أوروبا نفسها ناهيك عن دول العالم الثالث تعاني من هذا الغزو الإعلامي والثقافي الكاسح ، فعلى سبيل المثال يتجلى العجز الأوروبي في كون هذه المجموعة قد صدّرت إلى أمريكا عام ١٩٩٢ ما يقدر من ٢٥٠ مليون دولار من الإنتاج السمعي المرئي، في ما استوردت من الولايات المتحدة ما يقدر من ٣٧٥٠ مليون دولار.

ونلمس هيمنة كاملة للغة الإنجليزية التي باتت اليوم لغة الاحتكار المعرفي والإعلامي؛ لتكون بذلك أداة للثقافة الأنجلوسكسونية، في فرض نموذجها الحضاري ، و تجدر الإشارة إلى أن ٨٨٪ من معطيات الانترنيت تبث باللغة الإنجليزية مقابل ٩٪ بالألمانية ، و٢٪ بالفرنسية، و١٪ يوزع على بقية اللغات ، وأن السيطرة الأمريكية على العالم تستند إلى هيمنتها على الاتصالات ، فثمانون بالمائة من عدد الكلمات ، والمشاهد والصور التي تدور حول العالم تأتي من الولايات المتحدة الأمريكية ، ويلاحظ أيضا استمرارية سيطرة الغرب وخاصة أمريكا على المؤسسات الإعلامية ذات الصبغة الدولية ، والتي تمد العالم بالمواد والبرامج الإعلامية في مجال الإخبار، والتسلية والترفيه ؛ فمعظم هذه المؤسسات تقع في أيدي من يسمون بارونات الصحافة أمثال ماكسويل، وروبرت، موردوخ ، وهيرست وبيرلسكوني ، ففي الولايات المتحدة هناك خمسون شركة تمتلك معظم وسائل الإعلام ، وفي بريطانيا هناك ست شركات إخبارية كبرى تسيطر على ثلثي الصحف ، والمجلات[2].

(١) رحيم، سعد محمد : العولمة والإعلام .. ثقافة الاستهلاك .. استثمار الجسد وسلطة الصورة، أبريل ٢٠٠٦.
(٢) رحيم : ٢٠٠٥ .

وبلغة الأرقام أيضا نجد أن الغرب، ولا سيما أمريكا، يحتكر صناعة الكلمة والصورة التي تبثها وسائل الإعلام في العالم بأسره ، فواشنطن باعتبارها مركز صناعة القرار في العالم تسيطر لوحدها على ٦٥ ٪ من حجم الاتصال المتداول في العالم، كما أن أمريكا نفسها تحتكر ٣٥٪ من عملية النشر في العالم ، و٦٤٪ من الإعلان الدولي و٤٥٪ من التسجيلات ، و٩٠٪ من أشرطة الكاسيت و٣٥٪ من البث عبر الأقمار الصناعية.. وهذا يعني أن أكثر من ثلثي حجم الإعلام الذي يبث في العالم قادم من أمريكا[1]، ولا تزال تسيطر أربع وكالات هي الأسوشييتد برس، يونايتد برس إنترناشيونال ، رويترز ووكالة الأنباء الفرنسية على صناعة وتوجيه الأخبار في العالم ، الأوليان منها أمريكية ، وهذا يؤكد احتكار الولايات المتحدة الأمريكية لصناعة الصورة والكلمة الموجهة للداخل، وللملايين من البشر في الخارج، طالما أن إنتاجها الإعلامي يغطي كافة الدول سواء من جهة الاستيراد، أو البث عبر الوسائل الأمريكية نفسها ، وهذه السيطرة الإعلامية الأمريكية مقرونة بقوة اقتصادية وعسكرية تمكن الولايات المتحدة من إشاعة الثقافة الأمريكية بشكل يعمل على تطبيعها ، وربما تفوقها على باقي الثقافات، وهو الأمر الذي يجعل بعضهم يعارض مسوغات العولمة الإعلامية ، وقد خاطبت الولايات المتحدة العالم عبر الصورة أكثر من الكلمة ، حيث اتخذت الصورة كأساس لإقناع العالم بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة بوجهة النظر الثقافية والسياسية ، والعسكرية ، والتجارية الأمريكية ، ويعود السبب في ذلك إلى كون لغة الصورة أقرب إلى الفهم في جميع الثقافات ، واللغات.

ولهذا اعتمد المعلن الغربي على الصورة التي تبرز المنتج ، والثقافة الغربية ، واتخذ الإعلام من جسد المرأة أداة إقناعية تقوم على الإغراء، وعمد السياسيون وصناع القرار أيضا في أمريكا خاصة على جعل الصورة في مقدمة الحوار حتى ولو كانت مفتعلة ؛ فقبيل الحرب على العراق التي بدأت في مارس عام ٢٠٠٣، عرضت القيادات الأمريكية صورا عن منشآت نووية عراقية ، وغيرها من الصور الملفقة لإقناع الرأي العام العالمي بامتلاك العراق لأسلحة تدمير شامل، وبالتالي شرعية الحرب . يصور الإنتاج الإعلامي الأمريكي الترفيهي من مسلسلات وأفلام الحياة ، والثقافة الأمريكية بشكل وردي ، يجعل الكثيرين من أبناء الدول الفقيرة يحلمون بحياة وردية في أمريكا كالتي يصورها التلفزيون.

(١) رحيم : ٢٠٠٥ .

ومن ذلك يمكن القول أن العولمة الإعلامية سمة رئيسية من سمات العصر المتسم بالعولمة، وهي امتداد أو توسع في مناطق جغرافية مع تقديم مضمون متشابه ، وذلك كمقدمة لنوع من التوسع الثقافي نتيجة ذلك التطور لوسائل الإعلام ، والاتصال، التي جعلت بالإمكان فصل المكان عن الهوية، والقفز فوق الحدود الثقافية ، والسياسية، والتقليل من مشاعر الانتماء إلى مكان محدود[1]، ومن الأوائل الذين تطرقوا إلى هذا الموضوع عالم الاجتماع الكندي مارشال ماكلوهان، حيث صاغ في نهاية الستينات ما يسمى بالقرية العالمية، وتشير عولمة الإعلام إلى تركيز وسائل الإعلام في عدد من التكتلات الرأسمالية العابرة للقارات، لاستخدامها في نشر؛ وتوسيع نطاق النمط الرأسمالي في كل العالم من خلال ما يقدم من مضمون عبر وسائل الإعلام ، ومن ثم فإن عولمة الإعلام توصف بأنها عملية تهدف إلى التعظيم المتسارع والمذهل في قدرات وسائل الإعلام ، والمعلومات على تجاوز الحدود السياسية والثقافية بين المجتمعات ، بفضل ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة والتكامل ، والاندماج بين هذه الوسائل بهدف دعم وتوحيد، ودمج أسواق العالم ، وتحقيق مكاسب لشركات الإعلام ، والاتصال ، والمعلومات العملاقة وهذا على حساب دور الدولة في المجالات المختلفة.

هل مكنت تقنيات الاتصال الحديثة من تعزيز الإعلام العربي؟

إذا كانت الأرقام تستطيع أن تدلل، أو ترشد على استنتاجات معينة، فإننا اليوم أمام مجموعة رقمية كبيرة من القنوات الفضائية العربية ، فبعد أن غصت الدول العربية لفترات طويلة من الزمن في حجر الإعلام الوطني، والقناة التلفزيونية والإذاعية اليتيمة، تعج البيوت العربية اليوم بمجموعة تتجاوز الـ ٢٠٠ قناة فضائية تلفزيونية عربية ، وأضعاف هذا الرقم من القنوات الإذاعية ، وبعد أن كانت ملكية المنشآت الإذاعية والتلفزيونية حكرا على الحكومات ، أصبحت ملكية معظم هذه القنوات اليوم تتبع القطاع الخاص، بل يعود إنشاء أول قناة فضائية عربية (عام ١٩٩١) وهي مركز تلفزيون الشرق الأوسط (MBC) إلى استثمارات سعودية خاصة، وجدت من لندن مقرا لها للتحايل على القوانين المحرمة للملكية الخاصة للمنشئات الإذاعية ، والتلفزيونية الخاصة في المملكة العربية السعودية، كما في غيرها من الدول العربية ، و لكن هل ساهمت هذه القنوات في نشر الثقافة العربية،

(١) الجزائري : ٢٠٠٥ .

وإيجاد نوع من التوازن على الأقل بالنسبة للمتلقي العربي بين ما يتعرض له من قنوات أجنبية ، وما يقدمه له الإعلام العربي؟

أشارت دراسة قامت بها منظمة اليونسكو إلى أن دول العالم الثالث بما فيها الدول العربية لا تزال في وضع المتلقي والمستهلك للإنتاج الغربي ، حتى في ظل هذه الوفرة الكمية من القنوات الفضائية ، وتقول نتائج الدراسة أن شبكات التلفزيون العربية، تستورد ما بين ثلث إجمالي البث (كما في سوريا ومصر) ونصف هذا الإجمالي (كما في تونس والجزائر)، أما في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد على ذلك حيث تصل النسبة إلى ٥٨ ٪ من إجمالي البث ، و٩٦٪ من مجموع البرامج الثقافية[1]، بل إن القنوات العربية عندما همت بإنتاج برامج إعلامية جماهيرية ، وجدت ضالتها في تقليد النماذج البرامجية المقدمة في الغرب أمثال ستار أكاديمي، والأخ الأكبر، والخوف، وسباق المغنين، ولم تلتفت هذه القنوات إلى البعد الثقافي العربي من خلال إضافة محسنات إليها لتتناسب مع الثقافة السائدة في المجتمعات العربية ، وبذلك فإن القنوات العربية ساهمت في تقريب الثقافة الغربية إلى المواطن العربي من خلال تقديمها بلغة عربية، وبواسطة ممثلين عرب ، وفي بيئات عربية ، و يرى بعض علماء الاتصال أن الأثر الثقافي الذي تحدثه البرامج العربية ذات الطابع الغربي أكثر من الأثر الذي تحدثه البرامج الغربية الأصلية ، و يعود السبب في ذلك إلى عوامل مختلفة من بينها اللغة ، والشخصيات العربية الداخلة فيها ، ويستدل هؤلاء المنظرون على قوة تأثير البرامج الغربية المعربة ، بحجم المشاركة في التصويت بهذه البرامج، وحجم المتابعة التي تلقاها من الجمهور العربي ، حيث رصد الكاتب محمد يوسف المليفي في جريدة السياسية الكويتية إحصائية مخيفة عن عدد المتصلين ، أو المصوتين في هذا البرنامج ، فقد ذكر الكاتب أن عدد المتصلين في حلقات البرنامج لعام ٢٠٠٤ من السعودية ٤ ملايين، ومن مصر ٢٣ مليونا، ومن لبنان ١٨ مليونا، ومن الإمارات مليونين، ومن سورية ١٦ مليونا، ومن الأردن ٨ ملايين، ومن الكويت ٣٠٠ ألف، ومن اليمن ٧ آلاف متصل ، وبذلك يكون إجمالي الاتصالات خلال فترة التقصي ٧٠ مليون اتصالا ، ثم يعقد الكاتب محمد المليفي مقارنة يندى لها الجبين ؛ فبينما بلغ عدد المصوتين لشباب ، وفتيات

---

(١) الحسيني، محمد: العولمة وأدواتها بين النظرية والتطبيق، من موقع إنباء الأخباري، أبريل ٢٠٠٦ .

ستار أكاديمي ٧٠ مليونا، بلغ عدد المصوتين من جميع البلدان العربية في مجلس الأمن بالأمم المتحدة على وثيقة معارضة الحرب ضد أفغانستان ٣ ملايين فقط!

ونستنتج من ذلك أن الكم لا يعني بالضرورة الكيف ؛ فتزايد عدد القنوات العربية لا يعني بالضرورة قدرتها على تصحيح التوازن في الإنتاج الإعلامي المحلي ، أو العربي مع ذلك الوافد ، بل من الملاحظ أن تزايد عدد القنوات ، وامتداد ساعات البث على مدار الساعة خلق تحد من نوع آخر على هذه القنوات ، وهو ضرورة ملء ساعات البث. ونظرا لقلة الإنتاج الإعلامي العربي خاصة في المجال الدرامي من مسلسلات وأفلام ، لجأت كثير من القنوات العربية إلى الإنتاج الغربي والأمريكي بصفة أساسية ، وإلى إنتاج برامج محلية قليلة التكلفة من جهة، وسهلة الإعداد من جهة أخرى، مثل البرامج الحوارية ، وبرامج المسابقات ، وربما يحسب للإعلام العربي ظهور قنوات عربية إخبارية متميزة ساهمت في أن تنافس القنوات الإخبارية الغربية مثل CNN الأمريكية و BBC البريطانية ، إذ برزت قناة الجزيرة منذ بدايتها في عام ١٩٩٦ والعربية منذ ٢٠٠٣ كقنوات إخبارية كسرت الاحتكار الغربي لهذه الصناعة ، وساهمت في إبراز عدد من القضايا العربية والإسلامية للعالم ، ومن أهمها الانتفاضة الفلسطينية ، والحرب على العراق وأفغانستان ، وقضية الإرهاب ، ولكنها مع ذلك لم تسلم من الضغوط الغربية على ممارساتها الإعلامية ، وهو أمر سيأتي ذكره لاحقا.

لماذا أخفق الإعلام العربي في زمن العولمة؟

من المناسب القول: إن الإعلام في الدول العربية تطور بشكل كبير خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، وجزء من هذا التطور يعود بالفعل إلى الانفتاح الإعلامي الذي يشهده العالم بسبب تطور تكنولوجيا الاتصال، ولكن مع هذا التطور على الأقل في الجانب التقني الذي شهدته وسائل الاتصال في الدول العربية ، إلا أنه لا يزال رهين القطر العربي إلا ما ندر ، بمعنى آخر لم يستطع حتى اليوم أن يمد جذوره لتحتل البرامج العربية جزءا من أوقات البث في تلفزيونات الدول الأخرى ، وفي تحليل سريع لحالة وسائل الاتصال في الدول العربية يمكن تفسير ذلك بالتالي:

١- ضعف الإنتاج الإعلامي العربي خاصة في المجال الدرامي، فمثلا لا تزيد عدد الأفلام التي تنتجها مصر مثلا عن ١٠ أفلام في السنة.

٢- ضعف المضمون الإعلامي ، ففي الأغلب الأعم تتناول ووسائل الإعلام العربية قضايا ذات طابع خاص مرتبط بالبيئة المحلية ، أو القطرية لا ترقى لرجل الشارع العالمي، ونادرا ما تعالج قضايا ذات اهتمامات إنسانية واسعة.

٣- اللجوء إلى استيراد الإنتاج الإعلامي الغربي ؛ لملء ساعات البث نتيجة لعدم إدراك كثير من ملاك القنوات الخاصة بمتطلبات إنشاء قنوات فضائية من برامج مختلفة، وللتكلفة العالية للإنتاج المحلي.

٤- معظم المضمون الإعلامي العربي خاصة عبر القنوات الفضائية يخاطب الداخل بسبب اللغة المستخدمة في البث. إذ أن معظم القنوات العربية إما أنها تستخدم اللغة العربية، خاصة القنوات الإخبارية ، أو اللغة العربية الدارجة ، أو لغات محلية كما هو الحال في شمال المغرب العربي وهذه القضية تنسحب أيضا على جملة المواد العربية المنشورة عبر شبكة الإنترنت ؛ فكثير من البحوث والدراسات العربية فضلا عن القضايا العربية لا تصل إلى الخارج بسبب اعتماد العربية وحدها كلغة للنشر، بينما تسيطر الإنجليزية على جملة المعارف المستقاة من الشبكة.

٥- وقوع القنوات العربية تحت ملكيات خاصة تستهدف إلى تحقيق الربح أكثر من تحقيق مبدأ المسؤولية الاجتماعية ، ونشر الثقافة العربية ، فقد شهد الواقع العربي ظهور قنوات خاصة قامت أساسا للترويج لسلع ، وخدمات شركات معينة ، وهي تسعى من خلال ذلك إلى تحقيق مكاسب مادية بالدرجة الأولى.

٦- ممارسة الغرب وخاصة أمريكا أنواعا مختلفة من الضغوطات على القنوات العربية التي تتخذ مواقف غير مؤيدة للاتجاهات الأمريكية ، ويمكن التدليل على ذلك من خلال قصف القوات الأمريكية مكتب قناة الجزيرة أيام الحرب على أفغانستان، واستهداف مكتب قناة أبو ظبي في عام ٢٠٠٣ ببغداد، وقتل الصحفيين أمثال طارق أيوب مراسل الجزيرة في العراق أيام الحرب ، ولعل طرد قناة المنار اللبنانية من الأقمار الصناعية الغربية حتى لا تصل للجمهور الغربي دليل على التحديات التي يمكن أن تواجه وسائل الإعلام العربية ذات الأبعاد السياسية والإيديولوجية المغايرة للتوجهات الغربية ، والأمريكية خصوصا. وربما المثال المقابل من الواقع العربي هو

طرد قناة TV5 الفرنسية من مجال البث عبر القمر الصناعي العربي (عربسات) عندما قامت القناة في يوليو من عام ١٩٩٧ ببث فيلما إباحيا سافرا شاهدته ملايين من الجموع العربية ، و لكن شتان بين الجرم الذي اقترفته قناة المنار وجرم القناة الفرنسية في كل مواثيق الشرف وأخلاقيات العمل الإعلامي المعمول بها في العالم ، وطرد المنار ينبئ عن أن العولمة الإعلامية لا تعني المساواة ، وحرية استغلال الفضاء ، وإنما تأخذ بفكرة البقاء للأقوى أساسا لها.

٧- لا تزال الدول العربية في عداد المستهلكة لتقنية الاتصال والمعلومات ، ولا تمتلك حقيقة جوهر هذه التقنية. حيث إنها تعتمد بشكل كلي على الغرب واليابان في الحصول على هذه التقنية ، ولا تسيطر فعلا على هذه الصناعة الضخمة ، وبالتالي فهي تقع تحت رحمة الإنتاج التقني الغربي الذي يحرص دائما على تفوقه في هذا المجال ، وبالتالي فإن منافسة الإعلام العربي في زمن العولمة الإعلامية مرهونة بسيطرته على هذه الصناعة ، وقدرته على الاستقلال من الاحتكار الغربي ، وهو الأمر الذي يبدو بعيد المنال.

العولمة الإعلامية والآثار المترتبة عليها في الواقع العربي:

معظم الآراء المنشورة عن العولمة الإعلامية ، وعلاقتها بالعالم العربي، سواء من حيث الهوية والثقافة، أو الجانب الأمني والسياسي تأخذ منحا سلبيا ، بل ويعلق بعض الكتاب حالات التغيير والاضطراب في العالم العربي إلى الزحف الهائل من القنوات ، والمواقع التي أصبحت تعم الأجواء العربية ، والسبب في هذا التوجه يعود إلى النظرة السلبية المسبقة عن العولمة نفسه ، فهل هي ظاهرة جبرية مفروضة على بلدان العالم ، أم أنها نتيجة طبيعية للتطور التقني والعلمي الذي يشهده العالم المعاصر؟ ، وهل التغيير الحاصل في الثقافات والسياسات الموجودة في العالم يقع في سياق الاتصال الحضاري ، أم في سياق النزعة الاستعمارية والصراع الحضاري الذي بشر به هنتنجتون؟ وبالتالي فإن درجة التسامح التي يضفيها الفرد على العولمة تنعكس على اتجاهاته نحو النتائج المترتبة عنها، وفي هذا الصدد أفرزت قضية العولمة الإعلامية نوعين من التوجهات:

التوجه الأول: يرى أنها ظاهرة طبيعية أفرزتها التطورات المتلاحقة في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات ، واستمرت نفس القوى القديمة المسيطرة على توظيفها بشكل أوسع

مع إتاحة فرصة أكبر للدول الأخرى للاستفادة من هذه التكنولوجيا، ويرى بأن هذه الثورة التكنولوجية ساهمت إيجابا في تغيير المجتمعات العربية على النحو التالي:

١- من الناحية الإعلامية: عجلت الثورة التكنولوجية في مجال الاتصال والإعلام من تغيير الإعلام العربي للأجهزة المتآكلة التي كانت تستخدمها ، ومكنتها من إيصال رسالتها الإعلامية ؛ لتشمل البلد والوطن العربي، بل وتعداه إلى الدول الأخرى ، وأصبح للوطن العربي المتمثل في إعلام الدول التي تتبعه مسموعا ، أو مرئيا من قبل المجتمعات الأخرى، وساهمت العولمة الإعلامية من تغيير أساليب وطرق معالجة الأخبار، من حيث جمعها وتحريرها ونشرها بشكل يرقى لمستوى رجل الشارع العالمي والعربي ، إذ تميزت المعالجة للأخبار في الإعلام العربي قبل ذلك بالصيغة الدعائية ، وانعدام الحرية بشكل دعا إلى انصراف الشعوب العربية نفسها إلى القنوات الأجنبية ، وبذلك فقد استطاعت بعض وسائل الاتصال العربية أن تعيد الجمهور العربي إلى قنواته العربية ، وتسحبه من المحطات الأجنبية مثل شبكة الإذاعة والتلفزة البريطانية BBC، وشبكة CNN الأمريكية ، وإذاعات دولية أخرى مثل صوت أمريكا ، وراديو موسكو ، وإذاعة مونت كارلو ، وبالنسبة للمواطن العربي ، أدت ثورة الاتصال والمعلومات إلى إيجاد بدائل كثيرة ومتنوعة من قنوات ، ووسائل الاتصال لم تكن متوفرة له من قبل ، و أوجدت له منافذ كثيرة للتعبير عن رأيه بشكل يتسم بالأريحية من الذي كان موجودا من قبل، بل ودفعت هذه الثورة التكنولوجية الحكومات والأنظمة العربية إلى إجراء تغيير في الأنظمة ، والقوانين الإعلامية المعمول بها في السابق ؟، وشملت هذه التغييرات السماح ، و توسيع نطاق الملكية الخاصة للمنشآت الإذاعية والتلفزيونية، وسن قوانين تفتح منافذ جديدة لحرية الرأي والتعبير.

٢- من الناحية الثقافية: ساهمت العولمة الإعلامية رغم الهجمات الشرسة على الثقافة الإسلامية المتمثلة في ترسيخ مفهوم الإرهاب والعنف على المسلمين على بناء ردة فعل معاكسة عند الشارع العربي ، وبالتالي تمسكه بثقافته العربية والإسلامية بشكل أكثر، كما ساهم ذلك في إحياء ، وتجديد الثقافة العربية والإسلامية في الداخل والخارج ، من خلال دفع الجماهير على البحث والتقصي، وهو الأمر اللازم لإبقاء الثقافات حية

ومتجددة وقادرة على مسايرة التغيرات المتلاحقة ، و ساهم الانفتاح الإعلامي أيضا في تغيير نمط التفكير المغلق السائد عند الشعوب العربية إلى نظام التفكير المفتوح المبني على التحليل ، والتحاور مع الآخر ، وبالتالي خروج هذه الشعوب من نظام العزلة التي فرضتها عليها المنظومة السياسية ، والاجتماعية التي نشأت عليها، ووفر هذا الانفتاح الإعلامي فرصة كبيرة لاختبار الثقافة المحلية ومدى تمسك الشعوب بها، والأساليب اللازم اتباعها لمواجهة التحديات القائمة ، وعلى المستوى الدولي، ساهم هذا الانفتاح الإعلامي رغم سلبية ما ينشر عن الثقافة العربية والإسلامية في دفع الشعوب الأوروبية إلى التعرف على الإسلام والثقافة العربية.

أما التوجه الثاني: المرتبط بالعولمة الإعلامية فيأخذ منحا سلبيا لارتباط رؤيتهم في الغالب بالهوية الثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية، تشمل هذه الآراء التالي:

١- إن الإعلام العربي مهما بلغ نوعية التكنولوجيا التي يستخدمها فهو في الأصل مستهلك لهذه للتكنولوجيا وللإنتاج المصاحب له ، إذ تسيطر عشر شركات عالمية معظمها أمريكية على صناعة الإعلام في العالم وهي (تايم وارنر، ديزني، فياكوم، نيوزكوربوريشن ليمتد، إمبراطورية مردوخ، سوني، تليكوميونيكيشن إنك، سيغرام، وستنجهاوس، جانيت وشركة جنراك إلكترك) ، وبالتالي فإن الإنتاج الإعلامي من أفلام ، ومسلسلات تحمل هوية غير عربية ، ولا تزال وسائل الإعلام الفاعلة في العالم هي وسائل الإعلام الغربية مثل CNN و BBC ، ويشير زين الدين[1] ، إلى أن ٦٠٪ من البث التلفزيوني المشاهد في العالم يعود لإنتاج إعلامي أمريكي.

٢- تطرح وسائل الإعلام الغربية في ظل العولمة الإعلامية نماذج وقضايا لا تتناسب والثقافة السائدة في المنطقة العربية. وهي تحاول بذلك أن تجعل هذه النماذج والأنماط مقبولة في المجتمع العربي ، ومثل ذلك: قضية العلاقات المثلية ، والشذوذ الجنسي، والعلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية، وتفريغ المرء من قيمه الروحية، والدعوة إلى التمتع بالحرية ، والدعوة إلى الثورة على الموروث التقليدي بأكمله دون تفنيد ، واستخدام المرأة ودعوتها إلى لعب أدوار لا تتناسب والإطار الديني ، والاجتماعي للثقافة العربية،

(١) انظر: زين الدين، محمد: «الديمقراطية والعولمة»، على موقع الإنترنت، (١ أبريل، ٢٠٠٦).

ويرى محمد الحسيني بأن العولمة الإعلامية ساهمت في تعميم أفكار لم تكن يوما مطروحة علنا في المجتمعات العربية، وتمثل ذلك بالاعتراف والقبول بحقوق الشواذ الذين قدمهم الإعلام الغربي تحت مصطلح «الناشطين جنسيا» ، والاعتراف بمفهوم الأسرة خارج الإطار الشرعي أو بين المثلين، والإجهاض خارج الحدود الشرعية، وقضايا غيرها.

٣- تمثل العولمة الإعلامية تهديدا حقيقيا على السيادة الوطنية من دعوتها للشعوب على تبني مبادئ ، وأفكار عامة لا ترتبط بالحدود الوطنية، مع ضمان توفير مساعدات أساسية لها ، حيث تعمل المنظمات الدولية مثل منظمات حقوق الإنسان ، ومنظمة العفو الدولية وغيرها على التدخل في السيادة الوطنية للبلدان باسم الحرية وحماية حقوق الإنسان.

٤- تسعى العولمة الإعلامية إلى دفع المنتجات ، والسلع العالمية نحو السوق المحلية، مما يؤجج حدة منافستها مع المنتجات المحلية، وفي الوقت نفسه، تسعى وسائل الإعلام إلى تعزيز الثقافة الاستهلاكية في الوسط الاجتماعي ؛ لضمان ترويج منتجاتها وحصولها على الدعم المالي في إطار التنافس الكبير على السوق الإعلاني العالمي ، وبالتالي تغلب معظم هذه الوسائل الربح المادي على حساب مجموعة كبيرة من القيم المحلية ، ومما يعزز هذا الاتجاه هو أنه يصعب على الشركات متعددة الجنسيات تفصيل إعلانات خاصة لكل الثقافات الموجود في العالم.

٥- إن طبيعة بث الرسالة الإعلامية من القوى المهيمنة على الإعلام عن الثقافة ، والمجتمعات العربية ، والإسلامية تأخذ طابعا هجوميا لا يحترم الخصوصيات الدينية لهذه المجتمعات ، ولا يعير اهتماما للحوار، فكثيرا ما يروج الإعلام الغربي صورا سلبية عن العرب والمسلمين مثل: الإرهاب ، والوحشية، والهمجية، والتخلف، وبالتالي يدفع إلى الصراع ، ويفرض على وسائل الإعلام العربية أن تكون في موقف الدفاع بدلا من التعايش السلمي مع ثقافات العالم.

الخاتمة

ينبغي أن نفهم العولمة في إطار الثورة التقنية الرقمية في مجال الاتصال والإعلام ، وليست بمعزل عن ذلك ، وينبغي أيضا أن ندرك أن الوضع الاتصالي والإعلامي الذي يشهده العالم اليوم ، هو ليس نتاجا طارئا لأحداثيات العقد الأخير من القرن العشرين ، وإنما يأتي ضمن سلسلة متوالية من التطورات التي حافظ فيها الشمال المتقدم على تفوقه في هذا المجال، كما هو الحال في المجالين العسكري والاقتصادي ، وإذا كانت تكنولوجيا الاتصال الجديدة قد مكنت دول العالم الثالث بشكل أفضل من ذي قبل على إيصال صوتها إلى العالم الآخر، فإن ذلك لا يعني أنها امتلكت مقومات مجاراة الدول المتقدمة ، طالما أنها لا تزال في وضع المستهلك لتقنيات الاتصال ، والإنتاج الإعلامي الغربي ، وينبغي فهم تداعيات العولمة والآثار المترتبة عليها في إطار أوسع من الحدود القطرية للمنطقة العربية ، إذ أن بقية الدول والشعوب الأخرى أبدت تحفظات بدرجات متفاوتة ، فالغرب والذي يتقاطع مع الولايات المتحدة الأمريكية في كثير من القضايا ، ومنها الجانب الديني ، يتذمر من سطوة الثقافة الأمريكية المسماة بثقافة الكوكاكولا ، ومن غلبة الإنتاج الإعلامي الأمريكي على الإنتاج المحلي ، إلا أنه وجد نفسه مضطرا إلى التعايش مع الوضع الجديد بشكل يضمن له البقاء وعدم الاضمحلال ، وربما حالة التأزم التي يعيشها العرب مع الولايات المتحدة الأمريكية ، والغرب عموما هي التي تجعل الكثيرين ينظرون إلى العولمة بشيء من التوجس والريب ، فالحرب على الإرهاب التي أطلقتها أمريكا عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، واعتقال كثير من العرب والمسلمين، وحربها على أفغانستان والعراق ساهمت بشكل كبير في إبداء اتجاهات معارضة للعولمة ، كما أن استمرار هذا الضغط السلبي على العرب والمسلمين من خلال التعرض لهم ، أو للثقافة الإسلامية، كما حدث في الصور المسيئة لشخص الرسول الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ من قبل صحيفة دنمركية يزيد من رفض فكرة العولمة.

ولكن السبيل إلى التعايش مع هذا الواقع الإعلامي الجديد لا يتم بالمقاطعة ، ورفع شعارات الحجب والتنديد، وإنما من خلال تكريس وغرس الثقافة الوطنية ، وتسليح

المجتمع بأساليب التحليل المنطقي للرسالة الإعلامية ، ويرى عزالدين اللواج بضرورة تبني خطوات تمكن الإعلام العربي من مواكبة التطورات الإعلامية في عصر العولمة ومنها:

أولاً: تطوير ميكانيزمات المشهد الديمقراطي العربي عبر توسيع نطاق المشاركة الشعبية الفاعلة ، ووضع حد لنمط الدولة السلطوية؛ أي الدولة التي تنزع إلى الاحتكار الفعال لمصادر السلطة والقوة، عن طريق اختراق المجتمع، وتحويل مؤسساته إلى تنظيمات تضامنية تعمل كامتداد لأجهزة الدولة .

ثانياً: الاستغلال الأمثل للعقول العربية المتميزة في مجال تقنيات الثورة المعلوماتية والاتصال، والسعي الحثيث نحو توطين تقنية تلك الثورة، ومن ثم الاستفادة منها في المجال الإعلامي.

ثالثاً: تفعيل الاتفاقيات الإعلامية الموقعة بين مختلف الدول العربية ، وعدم التعامل معها من منطلقات قطرية ضيقة.

رابعاً: تطوير الآليات التنموية والحراك الاقتصادي في المنطقة العربية.

خامساً: تحديث الخطاب الإعلامي العربي من خلال تطوير مضمونه وجعله يتضمن أسساً أمبيريقية تتجاوب مع متطلبات المرحلة.

سادساً: الاستفادة من دراسات وأبحاث علم النفس في مجال تطوير وسائل التأثير على المتلقى العربي.

سابعاً: رفع مستوى القيادات المسيرة لقطاعات الإعلام في الدول العربية، واختيار الرجل المناسب في المكان المناسب ، وتأهيل ورفع مستوى العناصر الإعلامية المسيرة له.

ثامناً: إعطاء دور فاعل ومؤثر لمؤسسات المجتمع المدني المرتبطة بقطاع الإعلام، وعدم تضييق الخناق عليها، ومساعدتها على تطوير منظومة حقوق الإعلاميين العرب.

تاسعاً: تطوير المقررات الدراسية الموجودة في كليات وأقسام الإعلام الموجودة في مختلف الجامعات العربية ، وكذلك العمل على تفعيل الخطاب التربوي العربي بشكل عام.

عاشراً: ضرورة تكاثف الجهود من أجل تجاوز الأزمات الذاتية التي تمر بها منظومة الثقافة العربية ، والتي انعكست تداعياتها على القطاعات الإعلامية باعتبارها أهم الأدوات الناقلة للثقافة.

المصادر والمراجع

١- إبراهيم، حيدر: «العولمة وجدل الهوية الثقافية»، مجلة عالم الفكر، (ديسمبر ١٩٩٩) عدد ٢، مج ٢٨، ص: ٩٥ -١٢٢.

٢- الجزائري، الأمجد قارة: «العولمة...أمركة العالم أم عولمة أمريكا»، من موقع ثانوية أون لاين. (٢٥/٠٥/٢٠٠٥).

3- http://ziban.free.fr/arabe/modles/news/article.php?storyid=47

٤- الجنحاني، الحبيب: «ظاهرة العولمة: الواقع والآفاق». مجلة عالم الفكر (١٩٩٩)، عدد ٢، مج ٢٨، ص ص: ٩ - ٣٨.

٥- الحديثي، مؤيد عبدالجبار: العولمة الإعلامية والأمن القومي العربي. الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، (٢٠٠٢).

٦- الحسيني، محمد: «العولمة وأدواتها بين النظرية والتطبيق»، من موقع إنباء الإخباري (أبريل ٢٠٠٦).

7- http://www.inbaa.com/modules.php?name=News&file=article&sid=12706

٨- اللواج، عزالدين: «الإعلام العربي وتحديات العولمة»، من موقع الجيل (١/يونيو ٢٠٠٥).

9-http://www.libyajeel.com/profiles/thoughtviewasp?field=content&id236

١٠- رحيم، سعد محمد: «العولمة والإعلام.. ثقافة الاستهلاك.. استثمار الجسد وسلطة الصورة» (أبريل ٢٠٠٦).

11- http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=42345

١٢- زين الدين، محمد: «الديمقراطية والعولمة» (١ أبريل، ٢٠٠٦). على موقع الإنترنت التالي:

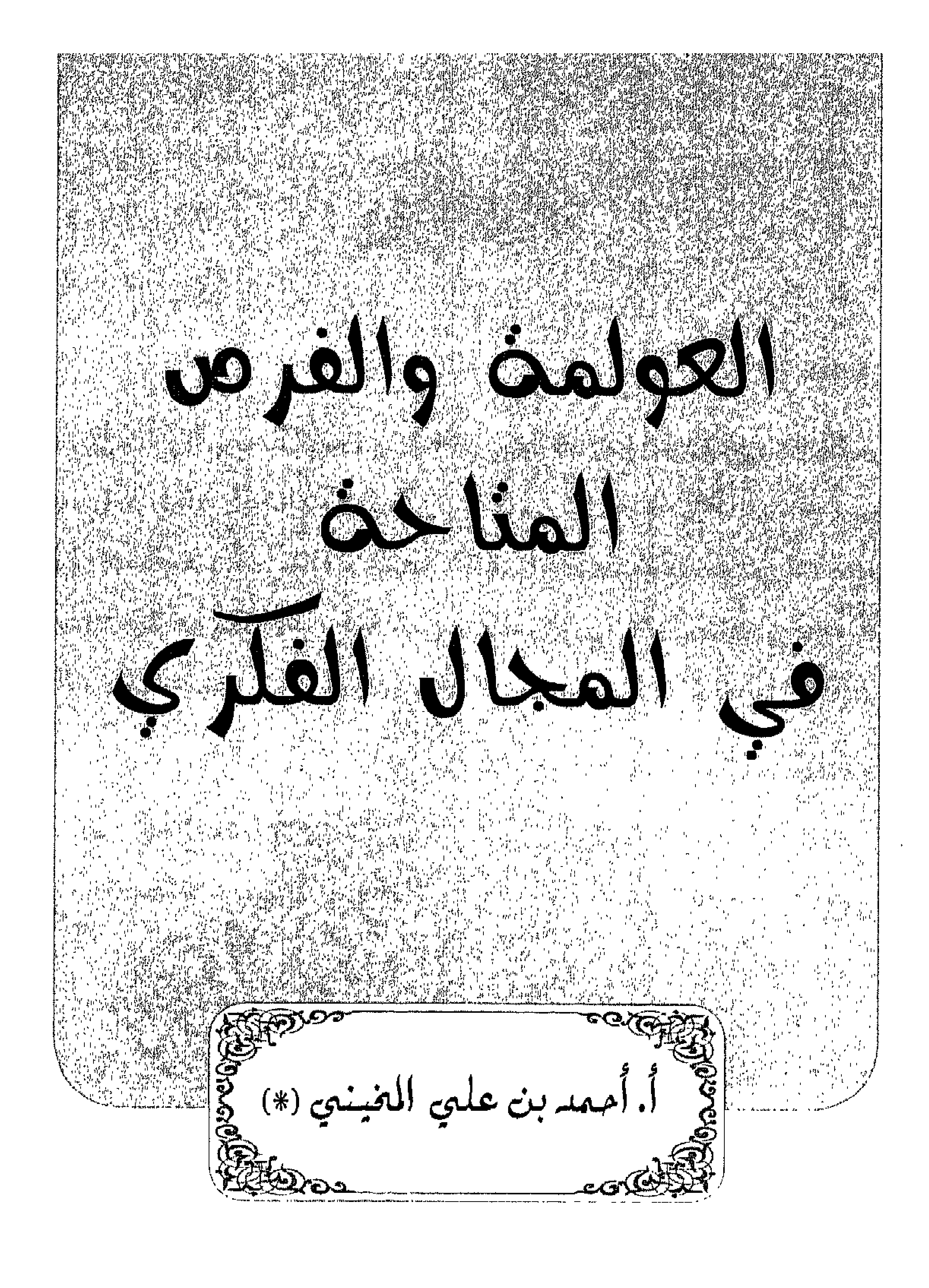
http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=45217

١٣- سكران، محمد محمد: «العولمة والهوية الثقافية» (١٩٩٩).

١٤- المشيخي، أحمد: العولمة والخصوصية الثقافية، جامعة السلطان قابوس، (١٩٩٩).

١٥- شومان، محمد: «عولمة الإعلام ومستقبل النظام الإعلامي العربي»، مجلة عالم الفكر، (ديسمبر ١٩٩٩) عدد ٢، مج ٢٨، ص ص: ١٤٧-١٨٤.

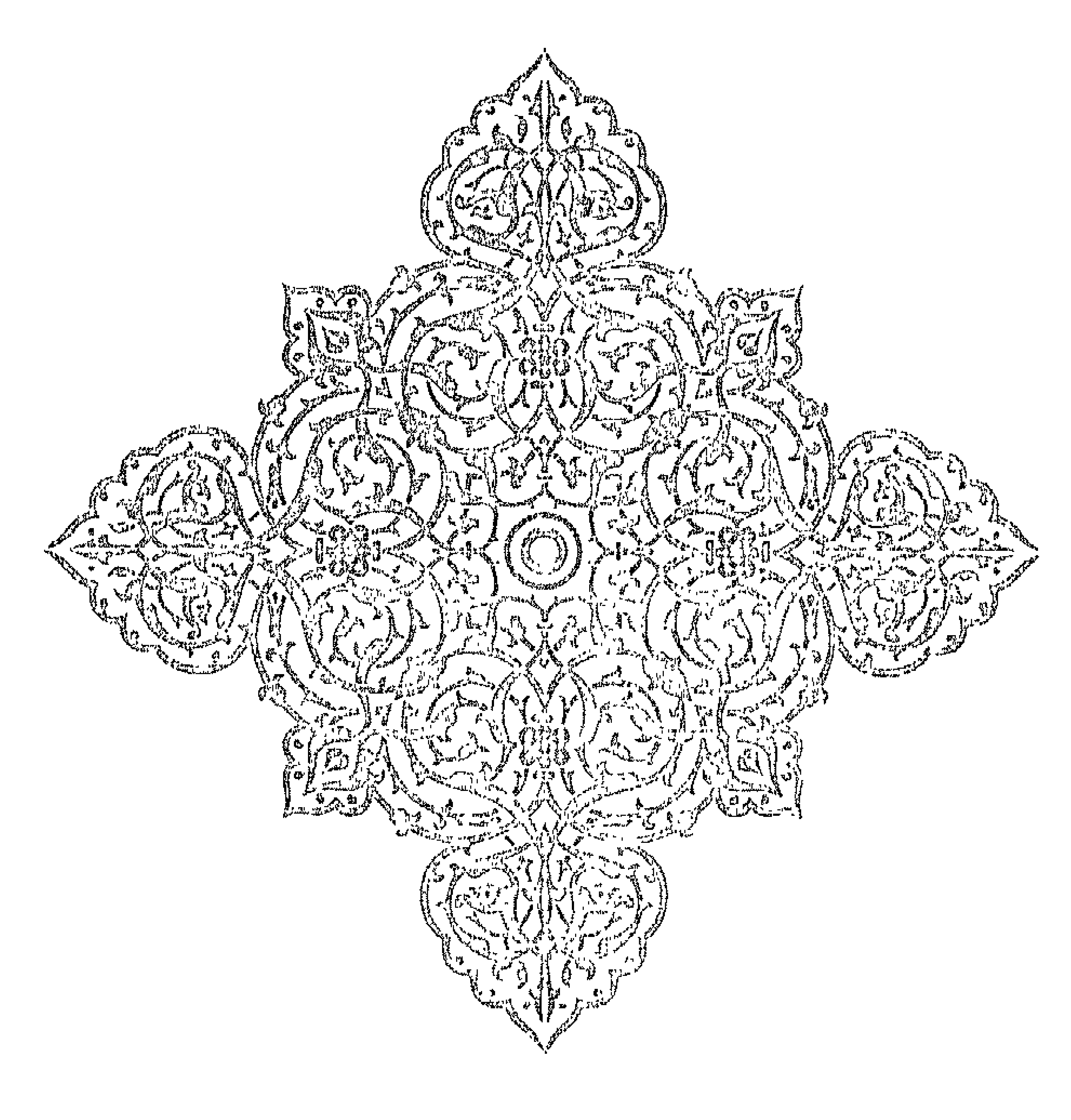
١٦- عبدالله، عبدالخالق: «العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها»، مجلة عالم الفكر، (١٩٩٩) عدد ٢، مج ٢٨.



العولمة والفرص المتاحة في المجال الفكري

أ. أحمد بن علي المخيني (*)

(*) نائب العميد بمركز سعيد الشحري للتدريب القانوني بسلطنة عمان، وأمين سر الجمعية التاريخية العمانية (سابقا)، ومحاضر لدى جهات متعددة خاصة في قضايا الحوار بين الأديان، وقضايا حقوق الإنسان، وعضو في العديد من المنتديات، والهيئات التدريبية، وقد عمل أمينا عاما مساعدا بمجلس الشورى، كما عمل مساعدا سياسيا، ومستشارا في السفارة الأمريكية بالسلطنة خلال الأعوام من ١٩٩٧م وحتى عام ١٩٩٩م.



بسم الله الرحمن الرحيم

مـقـدمـة :

قبل أن نتحدث عن الفرص المتاحة للحوار الفكري ، من المناسب أن نتناول بإيجاز رؤيتنا حول مفاهيم متعلقة بالأنا أو الذات ، والآخر، والعولمة ، والحوار والاتصال ، ونهدف من هذا أن يعرف الجميع منطلقات إعداد هذه الورقة ، والتي رأت معالجة موضوع فرص الحوار المتاحة من منظور عقلاني ذي صبغة إسلامية ، بدل التوجه إلى الصبغة الدينية الصرفة في أسلوب الخطاب المستخدم، والدافع إلى اتباع هذا المنهج شيئان اثنان :

الأول: غلبة العاطفة على أسلوب الخطاب الديني .

الثاني: أن موضوع الحوار المنبعث من العولمة يقتضي ضرورة تعدد العقول المخاطبة ، وتنوع أساليبها؛ لتتحقق أهداف الحوار، ألا وهي الفهم ، والوضوح، والمصداقية .

مفاهيـم ومنطلقـات

أولا : الأنا أو الذات :

هي تماهي الماهية في الهوية – تدافع الهوية والماهية (الماهية: هي مطلب السؤال ما هو ، أو ما هذا ؟ والوجود: هو مطلب السؤال هل يوجد ؟ والهوية هي مُخَصِّصٌ ظرفي للوجود).

ثانيا : الآخر :

(١) نظيرك في الإنسانية ، أو أخوك في العقيدة[١]، وكلا منهما يستوجب منك البـر .

(٢) سبب للتعارف والسعي وراء المعرفة، من حيث إن المعرفة تختلف عن العلم بارتباطها بظروف تشكلها ، ونشوء دلالاتها.

(٣) وحدة المنشأ، فمن حيث الأصل الجسماني ، أو الجيني فالجميع لآدم ، ومن حيث الأصل الروحاني، فالجميع خلقوا من نفس واحدة، والجميع يحملون روحا من روح الله، ولذا كان تكريم الإسلام للإنسان مهما كانت عقيدته .

---

(١) السيد محمد صادق الحسيني ، أمين عام مركز الحوار العربي – الإيراني ، في محاضرته التي ألقيت بمسقط حوالي عام ٢٠٠٤م حول الآخر .

ثالثا: العولمة:

تعددت المناظير والتعريفات المطروحة للعولمة[١] ، ولعل من أشمل التعريفات للعولمة مقولة: إنها (ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد بالسياسة ، والثقافة والاجتماع والسلوك، ويكون الانتماء فيها للعالم كله عبر الحدود السياسية الدولية ، وتحدث فيها تحولات على مختلف الصعد تؤثر على حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان)[٢].

إلا أن التعريفات التي تتداول العولمة تناولتها من منظور حدود تأثيراتها ، وأبعاد هذه التأثيرات ، ولم تتناولها من منظور نشوئها من حيث حتمية هذا النشوء ، أو تاريخيته، أو تكرار حدوث ظاهرة العولمة ؛ لكثرة الجدل حول حتميتها بين المفكرين والباحثين[٣]، كما لم تتناول هذه التعريفات ارتباط ظاهرة العولمة بمراحل تطور الحضارة المعاصرة للظاهرة، وتناولت هذه الأمور بشيء من التفصيل، والربط عند الحديث عن خصائص العولمة ، أو عند مراجعة مراحل تطورها وانتشارها، ويرى بعضهم أن الوقت مبكر للخوض في تعريفات للعولمة لعدم وضوح أبعادها ومدى تأثيراتها كاملة [٤].

ونرى أن هذين الجانبين (الحتمية، والعلاقة بالحضارة) مهمان جدا في رؤيتنا للعولمة؛ لأنهما يمكناننا من القيام بأمرين اثنين هما:

أولهما: فهم ترابط العولمة الحالية بدول بعينها .

ثانيهما: التخطيط لمشروع عولمي ، أو حضاري بديل.

ومن هذا المنطلق فإننا نرى أن العولمة ظاهرة حتمية تتداخل فيها الغاية بالوسيلة منشؤها التداول الطبيعي للسلطة، المبني على حيازة المعرفة ، أو التقنية الموجدة للحضارة المعاصرة، وبذا فإننا إن شئنا التأثير على مسيرة ظاهرة العولمة علينا أن نحوز على المعرفة، أو التقنية الموجدة للحضارة المعاصرة، أو تعديلها، بحيث لا يمكن الفصل بينها وبين منظومة الفكر لدينا ، وليس هذا ضربا من المستحيل ، فقد تمكنت الحضارة الإسلامية

---

(١) العولمة هي أكثر المصطلحات المستخدمة شيوعا ، والمصطلحات الأخرى تشمل الكونية والكوكبة .

(٢) الدجاني ، د. أحمد صدقي ، «تأملات في العولمة والهوية نحو تعاون حضاري في عصر العولمة» ، المنتدى ، المجلد الثاني عشر ، العدد ١٤٤ ، سبتمبر ١٩٩٧، الصفحات ١١-١٨.

(٣) عبيد ، د.نايف علي ، العولمة : مشاهد وتساؤلات، سلسلة محاضرات الإمارات ، رقم ٤٦، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، سبتمبر ٢٠٠٠، الصفحة ٣.

(٤) المصدر السابق ، الصفحة ٦.

في مرحلة زمنية معينة من تحويل مسار ظاهرة العولمة من مسارها البيزنطي إلى مسارها الإسلامي العربي، واستعملت نفس العناصر المذكورة أعلاه ، ولكن هذا يتطلب عملا ، وجهدا دائبين وفق منهاج محدد وواضح .

ومن أكثر الجوانب تأثرا بالعولمة الهوية الحضارية ، وللهوية الإنسانية ثلاثة أركان[1] :

(١) العقيدة التي توفر للإنسان الرؤية الكونية .

(٢) اللسان الذي يعبر به الإنسان وينتمي من خلاله إلى قوم .

(٣) التراث الثقافي الذي يغذي الإنسان ويزوده بالذاكرة الأدبية ، والذاكرة التاريخية .

وتوفر هذه الأركان مدخلا لصياغة مشروع حضاري بديل للعولمة غير الإسلامية، يقوم على قراءة هذه الأركان قراءة عصرية تبتعد عن العيش في ذاكرة الماضي ، بل تبني جسورا عبر الحاضر إلى المستقبل من خلال اعتماد التكوين المعرفي المعاصر كأساس لقراءتها، وكمعيار يحدد المشاغل الإنسانية التي تحتاج إلى رؤية إسلامية معاصرة وحديثة .

والمطلع على هذه الأركان ليلحظ مباشرة كوامن قوتها ، وإمكان إطلاقها من حيث إن :

(١) العقيدة الإسلامية عقيدة إلهية يتجدد حملة رسالتها بشكل مستمر، وأنها تشمل في كنهها قيما عالمية ككرامة الإنسان ، وحريته ومسئوليته العقلية ، والأخلاقية والعدل والمساواة ، وتكافؤ الفرص والفصل بين الحاجات والرغبات.

(٢) أن اللسان العربي محفوظ بالقرآن الكريم، وبالحاجة المتجددة لحملة العقيدة والباحثين عن كنهها إلى هذه اللغة لسبر أغوار القرآن الكريم.

(٣) أن التراث الثقافي الإسلامي آمن بتعددية الشرائع والأعراق والثقافات، واستوعبها في منظومته، ووظفها لإثراء هذا الإرث الثقافي العظيم الذي أصبح إرثا إنسانيا.

رابعا : الحوار :

هو سعي إلى التكامل الوحدوي مع الوجود (اتحاد مع الآخر أو تجانس معه) وذلك من خلال المعرفة المبنية على الفهم والوضوح والمصداقية ، وهو بذلك تجل للسعي وراء

---

(١) الدجاني ، «تأملات في العولمة والهوية نحو تعاون حضاري في عصر العولمة» ، الصفحات ١١-١٨.

الكمال الناتج من مجاهدة النفس ، والتجرد من منظومة الأفكار المترسخة في العقل ، والأيديولوجيات المسيطرة عليه ، وينتظم الحوار على أمور ثلاثة هي الفكر والعقل والإدراك، ومبعثه خيرية الإنسان ، وبحثه الدائم عن الفضيلة والعدالة والأخلاق ، وأغراض الخلافة على الأرض .

خامسا: الفكر:

هو نقل مقاربات الواقع إلى الدماغ عبر الحواس مقترنة بمعلومات تعين على تفسير الواقع المنقول عبر مقارباته وصولا إلى التنظير له أو تأطيره ، وللفكر في ذلك طريقتان: عقلية وعلمية ، فالطريقة العقلية ترتكز على الملاحظة والاستنتاج ، والطريقة العلمية ترتكز على الملاحظة والتجربة والاستنتاج ، ومن هنا ، وبدمج المفهومين السابقين، جاء الحوار الفكري كعملية معرفية تعزز من سعي الإنسان الدؤوب ، وراء التكامل مع الوجود أو التحكم في مجريات أمور حياة الفرد ومجتمعاته .

ومما يرتبط بالفكر ويضمن تطوره هي الحرية ، ومع أن الإسلام جعل الحرية منبثقة من الحق، وعدها فرعا أو ممارسة له ، ولم يجعلها رهنا للإرادة الإنسانية ، مما منحها استقلالا وسموا لا مثيل له ، إلا أن هذا «لا يكفل آلية التطبيق السليم لهذا التفريع حتى وإن قدم الضمانات لذلك» ، ولذا أصبحت الحرية في التراث الثقافي الإسلامي - كقيمة وكمفهوم - نهبا لتفسيرات عديدة [١].

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن «تحور الفكر الإسلامي حول (الله) جعل المبدأ الأعظم في المجتمع الإسلامي هو (الحق).... والحد الوحيد الذي تنتهي عنده هذه الحرية هو ذات الله تعالى وكنهه ؛ لأن التفكير الإنساني ليس مهيئا لمعالجته»، والتحدي الذي واجه الفكر الإسلامي هو «تفهم (الحق) ومعالمه وأصوله ، وما يقتضيه أو ما ينبني عليه ... والاقتناع بصحة ذلك وسلامته إلى درجة الإيمان» ، والذي لم يكن ليتأتى دون تهيئة مناخ من حرية الفكر ، «وهكذا نجد أن حرية الفكر هي الطريق إلى الحق»[٢].

---

(١) البنا ، جمال ، الإسلام وحرية الفكر ، دار الفكر الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٩، الصفحة ٧٨.

(٢) نفس المصدر السابق ، الصفحة ٧٩.

دواعي الحوار:

وللحوار من المنظور الإسلامي دواع عدة منها :

أن الرؤية الثقافية للإسلام تقوم على أن التعددية الثقافية والعرقية واقع موجود، وحقيقة قديمة قدم وجود الجماعات الإنسانية، وتعددها واختلاف معتقداتها ، وأعراقها، وألوانها، وألسنها ، وبذا فإن هذه التعددية الثقافية والعرقية نتيجة طبيعية لتركيب الإنسان واختلاف بيئاته[1]، ومن هنا تميزت الفلسفة الإسلامية عمن سبقها من الثقافات، والحضارات باعترافها بالآخر ، بل كانت تقدمية من حيث إن الاعتراف بالآخر ، وقبول وجوده كان شرطا لاستكمال وجود الأنا ، ويظهر ذلك جليا في أمرين :

الأول : أركان الإيمان بالكتب والديانات السماوية السابقة .

الثاني : أسلوب الخطاب الإنساني العام الذي اعتمده القرآن الكريم (مصدر الفكر ، والثقافة الإسلامية ، ومخزون التشريع الإسلامي) في تناول قضايا الخلق والوجود ، وإلى حد ما ، العقائد .

ولذا فإن قبول وجود الآخر ، واشتراط ذلك لاستكمال تعريف الأنا وماهيته يستدعي التعرف على ماهية الآخر، مما يتطلب الاتصال والحوار مع الآخر لمعرفة ماهيته، والتعرف على هويته ، ويؤكد على هذا السعي ويجدده تخصيص الحكمة كضالة للمؤمن أينما وجدها هو أحق بها ، وفي هذا توجه فكري فلسفي شمولي لم يحصر المسلمين في إطار عقدي معين، بل تضمَّن دعوة إلى السعي وراء الحكمة ، والسعي يقتضي الاتصال، والحوار هو أحد أشكال الاتصال ، لاسيما الاتصال الهادف الذي يتطلب حوارا يتبع منهجية توصله للهدف المنشود .

وللاتصال أشكال ثلاثة[2] :

(١) الحوار والتعاون .

(٢) الرفض والصراع .

(٣) اللامبالاة والانغلاق .

---

(١) الأسيوطي ، مرسي ، دراسة في الأصول العقائدية والثوابت الثقافية لرؤية الآخر: عولمة أم صراع، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ٢٠٠٣ .

(٢) زيادة ، د.معن (تحرير) ، الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الإنماء العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ ، المجلد الأول: الصفحات ١٨-٢٢ .

وتمتاز عملية الاتصال البشري بالحركة والصيرورة ، وأنها عملية لولبية ؛ بمعنى أن السلوك يتطور من خلال عملية الاتصال بالذات[1]، وهنا تكمن ميكنة مجاهدة النفس، ونقد الذات من خلال الاتصال بالذات الذي يمكن الاتصال بالآخرين ، والاتصال بالذات في شكله الأول (حالة الحوار والتعاون) ينتج نفسا مطمئنة ، وفي شكله الثاني (الرفض والصراع) ينتج نفسا مهزوزة مشككة، وفي شكله الثالث (اللامبالاة والانغلاق) ينتج نفسا فاسدة هدامة.

وإذا ما أخذنا بأن الشكل الأول للاتصال هو الشكل الأمثل للعلاقات ، أو الحوار فيما بين البشر ، فإن ذلك يستدعي أمورا عديدة؛ ليستقيم الاتصال وليؤدي هدفه ، وأهم هذه الأمور ثلاثة : المصدر ، الوجهة ، ووسيلة الاتصال بينهما، والأمر الأخير هو ما نحن بصدد الحديث عنه في الفقرات التالية ، فمن أهم وسائل الاتصال اللغة ، ومن خلالها يستطيع الإنسان التفكير والتعبير والإقناع والتأثير[2]، وهي أكبر وسائل الانتشار، أو الغزو الثقافي[3]. ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن اللغة العربية كوسيلة لصياغة مشروع حضاري بديل للعولمة ، وكذا أهمية الحديث عن تعلم اللغة الإنجليزية كونها لغة العولمة وتحوي حوالي ٨٠٪ من المعرفة العالمية المتجددة.

منهجية الحوار:

إن الجهود المبذولة في سبيل الحوار كثيرة ومتعددة، إلا أنها لا يبدو أن باستطاعتها الصمود أمام جميع التحديات ، ولا أن تضمن استدامتها ، وذلك نابع من أمرين (بين أمور أخرى): الأول: عبارة عن إشكالية هيكلية ومؤسسية ، والثاني: هو كون معظم هذه الجهود جاءت كردة فعل لظرف ، أو وضع ما، ولم يأت وفق منهاجية استباقية شاملة متكاملة الجوانب ، والدليل على ذلك أن المبادرات الحوارية التي جاءت كخطوات وقائية تمكنت من الصمود والاستدامة ، ومن أجل هذا عبرنا في العديد من المحافل والمنابر عن ضرورة أن يكون الحوار على تسعة أصعدة تتضافر جميعها ، وعلى مستوياتها المختلفة ؛ لتصل بنا

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) مؤنس ، د.حسين ، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٣٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ ، الصفحة ٦٥.

إلى الهدف المنشود وإلى رؤية شمولية واضحة لِنَسَق الحوار ورسالته ، وتأتي هذه الأصعدة التسعة لتتقاطع أفقيا، ورأسيا ، وقطريا على شكل مكعب على النحو التالي:

(١) المستوى الأفقي : المشاركين في الحوار :

أ) صناع السياسات ، ومتخذي القرارات.

ب) الأكاديميين ، والمؤسسات الدينية .

ج) العامة .

(٢) المستوى الرأسي : مداخل الحوار :

أ) القواسم المشتركة .

ب) الموضوعات الشائكة.

ج) المستقبل المشترك .

(٣) المستوى القطري : أبعاد الحوار :

أ) الجوانب الاجتماعية والسياسية .

ب) الجوانب الاقتصادية .

ج) الجوانب الثقافية .

وعلى الرغم من أهمية مأسسة الحوار لضمان استدامته ، إلا أن البعد الشخصي مهم جدا من عدة منطلقات منها بناء الثقة، وتسخير الجهود والموارد ، والمسئولية الشخصية ، والالتزام الأخلاقي ، ولذا فمن الضروري أن يتخذ الحوار أسلوب الحلقات ، أو المنتديات التي تعقد بانتظام، وتحدد وجهة الحوار ، وتدير دفة المؤسسة التي تنتظمه .

ما هي الفرص المتاحة ؟

في زمن يتزايد فيه تشابك عناصر العولمة ومظاهرها ، تتزاحم تجلياتها على أعتاب مجتمعاتنا وثقافاتنا ، والنسق الفكري الذي يضمهما ، وتتبادى أمامنا فرص عديدة للحوار الفكري مع الذات أو مع الآخر ، ومن أهم هذه الفرص ما يأتي :

الفرصة الأولى: تحرير الفكر الإسلامي من القيود المفروضة عليه ، وسلاسل التحسر على إنجازات السلف الأول ، وذلك لنمضي قدما لصنع حاضر ناهض، والتحضير لمستقبل واعد ، وذلك من خلال العمل على نقد الذات ومحاسبة النفس، سواء على المستوى المؤسسي

الحكومي ، أم المؤسسي الأهلي، أم على المستوى العلمي ، أم على المستوى الشخصي ، وذلك من منظور (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) ومن منظور (ابدأ بنفسك فقومها) ، إن هذا من شأنه أن يبني قاعدة قوية تصبح فيما بعد منصة إطلاق مشروع حضاري، وجهد منظم يتحاور مع العالم بثقة ، ومعرفة .

الفرصة الثانية: تطوير أسلوب الخطاب في الموضوعات التي تشكل مناطق التقاء ، أو حوار بين ثقافاتنا ، وفكرنا ، والثقافات ، والأفكار الأخرى ، وذلك من خلال فتح باب الاجتهاد في العلوم الشرعية ، والأمور الفقهية ، والقضايا المعيشية، والمنظومة الفكرية المؤسسة لهذه جميعا ، والعمل على إيجاد منشور زجاجي جديد يمكننا من النظر إلى جميع ما ذكر من خلال أطياف فكرية متعددة؛ ليظل إسلامنا كما كان شموليا ومواكبا لمستجدات الزمان والمكان .

الفرصة الثالثة : الرجوع الحقيقي إلى القرآن الكريم ، مخزون القيم الإسلامية ، ومنبع الثقافة الإسلامية ، ومكنون المعرفة الإلهية ، ولكن هذا الرجوع لابد وأن يكون مستندا على تكوين معرفي جديد ، وهدف فكري جديد يستلهم - كما أسلفنا - روح العصر، ومقاصد الشريعة ، والمتغيرات المعيشية ، ويقتضي هذا الرجوع إتاحة المجال للفكر الإنساني أن يحلق عاليا في سماء المعرفة، كما أراد له الله حينما اختاره خليفة له على الأرض .

الفرصة الرابعة: التعريف بالإسلام الحقيقي ، ونزع الصورة السلبية عن الإسلام ؛ للتخلص مما يعرف بإرهاب الإسلام (Islamophobia) ، ولربما يظن البعض أن العالم الغربي مع كل ما أتيح له من وسائل العلم ، وأوعية المعلومات إلا أنه ما زال يجهل الكثير عن الإسلام والمسلمين ، وكثيرا ما يخلط بين المسلمين والعرب من جهة ، وبين القضايا العقدية، والقضايا الثقافية، والأمور الاجتماعية ، وفي إحدى محاضراتي حول الآخر في الإسلام ومكانة عيسى عليه السلام في الإسلام ، والتي ألقيتها في ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية قبل سنوات قليلة أذهلني الجهل الكبير بالإسلام، وتأثير وسائط الإعلام ، وجماعات الضغط على ما يدور في خلد المواطنين الأمريكيين ، وأدركت حينها مدى تقصيرنا في الوصول إلى هؤلاء وتطوير أسلوب حوار يخاطب عقولهم؛ لنزع الصورة

السلبية العالقة في أذهانهم ؛ إن الفرصة الماثلة أمامنا هنا تحتاج إلى مبادرة جريئة وجهد مستمر ، وعزيمة، ثابتة ورؤية ثاقبة ؛ كي نصل إلى وجهتنا المنشودة ، إن أسلوب الحوار المناسب هو أحد وجوه الدعوة التي تروم أن تنشر الإسلام من خلال إيصال كلمة الله ، وتوضيح المواقف والعقائد، ولكنها تحتاج إلى أن نعيش الإسلام لا أن نتشدق به ، وذلك من منظور (الدين المعاملة).

الفرصة الخامسة: إثراء العلوم الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والمجالات المعيشية (المعاملات) بالقيم الإسلامية ، والمنظومة الفكرية المتكاملة لها ، وذلك من خلال ما أسلفنا قوله حول الرجوع إلى القرآن الكريم فهما وتطبيقا ، ولكن مع أسلوب علمي يخرجنا من دائرة التلقي ، والاستهلاك إلى دائرة التطوير والإنتاج ، وذلك لن يتأتى إلا بإنشاء مؤسسات بحثية مستقلة وتشجيعها، وضمان استقلالها من خلال إحياء نظام الوقف في الإسلام وتطويره ، وإيجاد إطار قانوني مناسب لعمل هذه البحوث، يضمن حرية الفكر، حتى يتسنى لها إثراء المعرفة البشرية بكنوز المعرفة الإسلامية المتجددة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر هناك ست قضايا يجب على المسلمين أن ينشغلوا ببحثها فكرا وفلسفة وتشريعا ، كونها تشكل المشاغل الرئيسة للحوار العولمي ، وجدول أعمال السياسة الخارجية للدول الكبرى، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كون المسلمين هم المستهدفون أساسا من هذه القضايا ، وهي :

(١) المشاركة الشعبية في العملية السياسية .

(٢) حقوق الإنسان : قيمة ، وتطبيقا .

(٣) المرأة : حقوقا وواجبات ، أفرادا ومؤسسات .

(٤) التلوث البيئي العالمي والمسئولية الجماعية .

(٥) الحوار بين أطياف العقيدة الواحدة ، والحوار بين العقائد والشرائع.

(٦) الإرهاب وتقابله المقاومة المشروعة ، والانتحار ويقابله الاستشهاد ، ومفهوم الحرب العادلة .

ماذا علينا أن نعمل ؟

(١) تعديل مناهجنا التربوية والتعليمية ، على المستويين العام والعالي ، لترتكز في تقييمها التحصيلي على المناهج البحثية والنقدية كآلية لاكتساب المعرفة لدى النشء ، وتطوير العلوم في بلداننا .

(٢) اعتماد منهج حديث توسعي شمولي يأخذ بمقاصد الشريعة والقيم الإنسانية العليا، والتكوين المعرفي الجديد للإنسان ، والمشروع الحضاري الإسلامي كبديل للفكر المتعولم كهدف لتفسير نصوص القرآن الكريم ، واستنباط منظومات قيمية وفكرية تستمد عناصرها من هذا النبع الخالد .

(٣) تعليم القرآن الكريم بشكل مكثف في السنوات الإدراكية الأولى للطفل (الرابعة إلى السابعة)، والتأكيد على أهمية القرآن الكريم في نظم التعليم العام والعالي ، والحفاظ على اللغة العربية ودعمها ، وتشجيع البحوث بها، وتعريب المعرفة لارتباط ماهيتنا وتكويننا المعرفي بها .

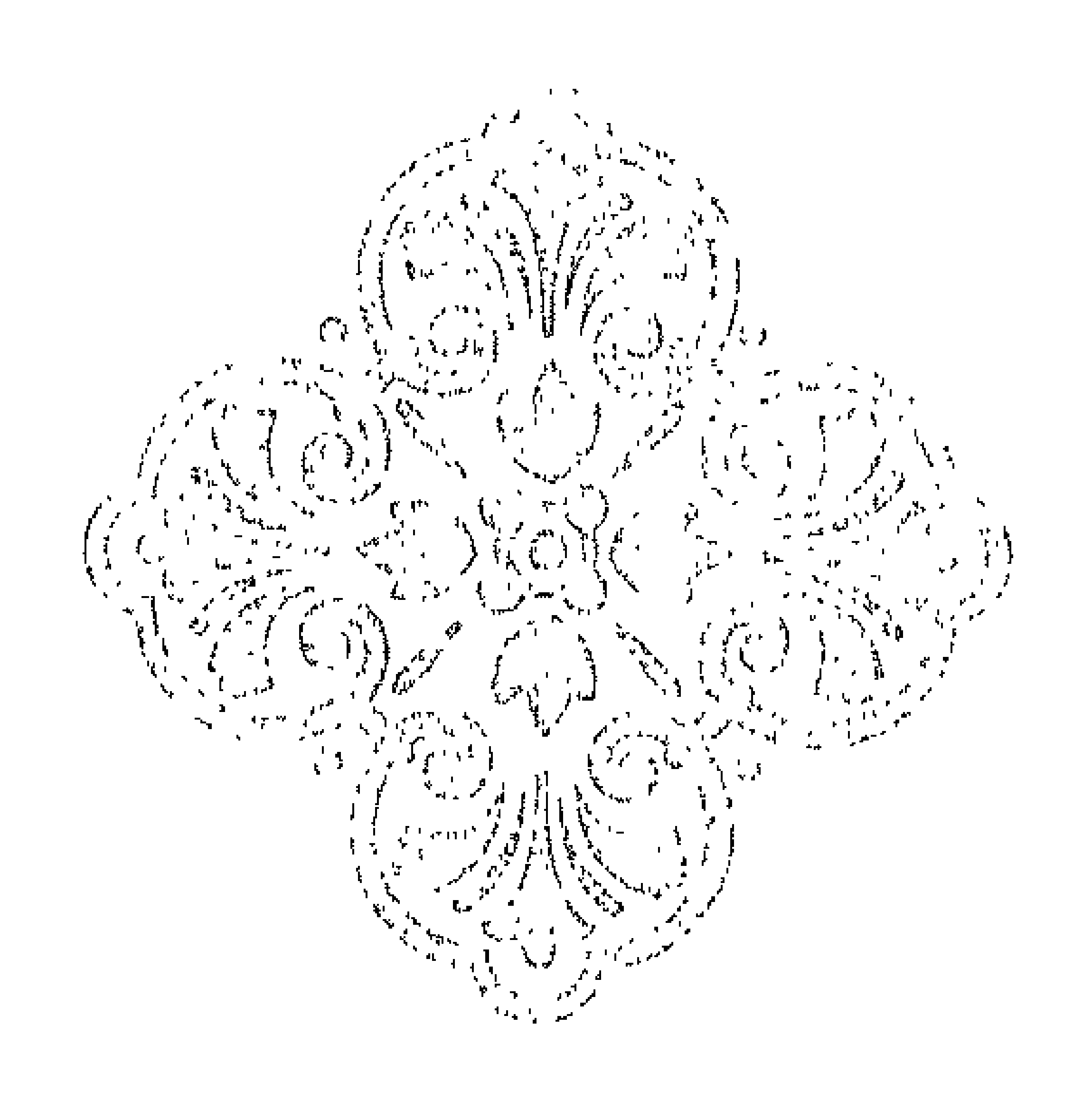
(٤) صياغة برنامج وطني على المستوى الفردي للدول ، وعلى المستوى الإقليمي، وعلى الصعيد الثقافي الإسلامي ؛ لصنع قيادات شابة ونماذج حية لنجاحات تصلح أن تكون قدوة للنشء الذي يفتقد إلى مثل هذه النماذج القريبة من عصره ، وظروف معيشته وحياته ، بدل اللجوء إلى أبطال الإسلام في الحقب الماضية بعيدين عن الوعي المباشر للجيل الحالي ، أو استعارة أبطال من ثقافات أخرى جاءوا في ظروف مختلفة، فالنشء بحاجة إلى قدوة في مجالات عدة لاسيما مجالات القيم والفكر، ومجال العمل الاجتماعي بمختلف مناحيه .

(٥) البحث في المفاهيم والمصطلحات المتداولة عالميا، سعيا وراء تأصيلها فكريا وإسلاميا، خاصة تلك التي لا نجد لها مصطلحا مرادفا ، أو واضحا في الأدبيات ، أو المصادر الإسلامية كمفهوم (الحرية) أو مصطلح (تكافؤ الفرص) ـ مثلا ـ اللذين لم يردا في القرآن الكريم ، أو تلك التي عربت أو جاءت عبر النهضويين العرب ، والذين أخذوها

بمجمل دلالاتها الثقافية ، والتاريخية كمفهوم (العلمانية) أو (العقلانية). والعكس صحيح أيضا .

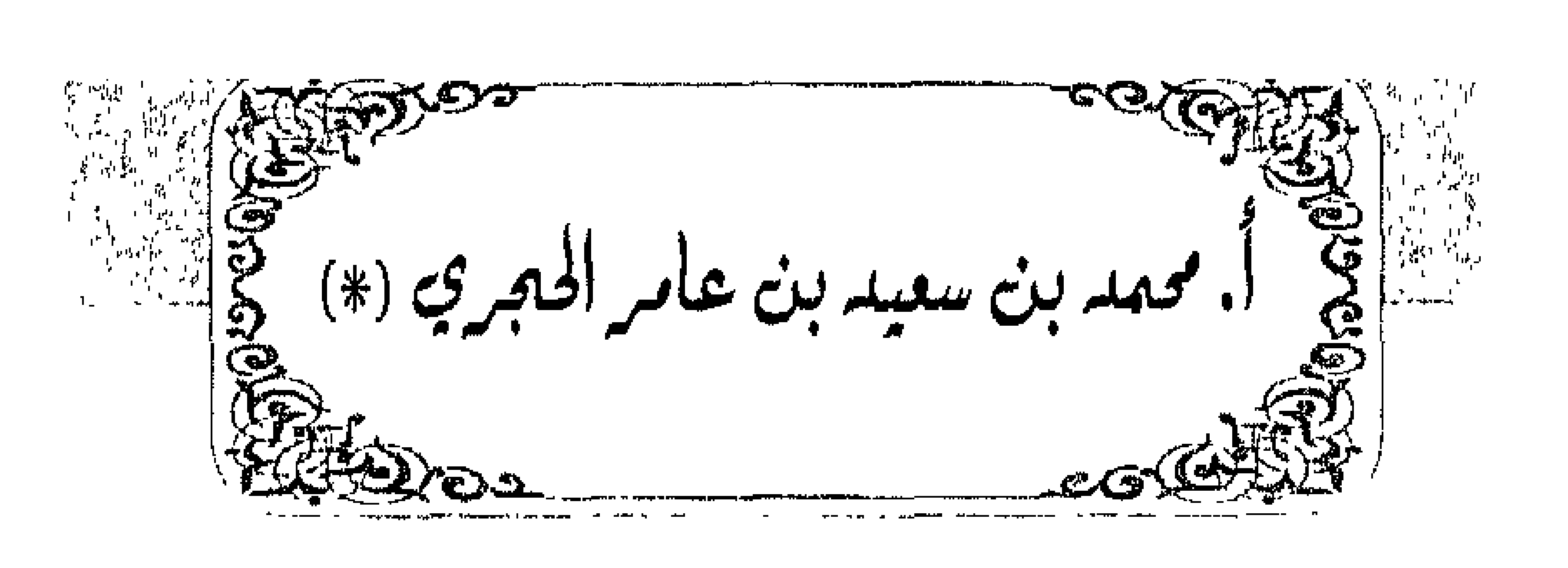
علينا البحث في مفاهيم وخاصيات الفكر الإسلامي وتقديمها في قالب حواري ، وأسلوب خطاب عصري؛ ليسد ثغرات في البناء المعرفي في العالم حول الإسلام، وليطفئ الفكر الإسلامي بمصادره الحية عطشا لمفاهيم جديدة، أو مناظير جديدة لمفاهيم موجودة ، وليمنح الفكر الإسلامي العالم منظومة تثري العقل الإنساني الذي بدأ ينكفئ على نفسه في أمور عديدة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



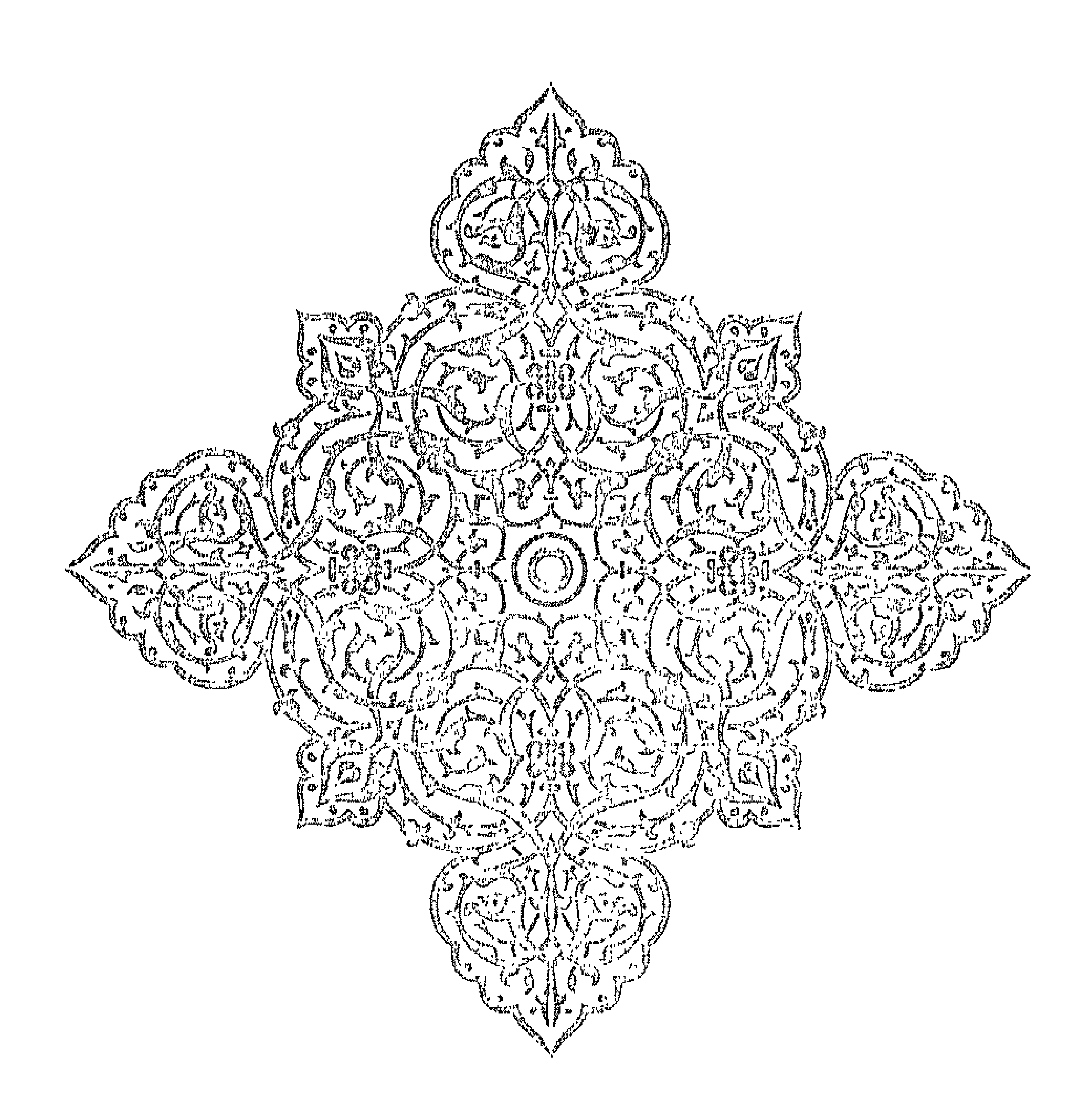
شعار العولمة (القرية الكونية)

مناقشة وتحليل



أ. محمد بن سعيد بن عامر الحجري (*)

(*) مدير دائرة التخطيط الثقافي بمركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية، شارك في العديد من الندوات الوطنية، والدولية، وأعد وقدم عددا من البرامج التلفزيونية منها: واحة الفكر، صدى المعرفة، وحوارات في الثقافة والفكر، وإضاءات معرفية، وله أيضا عدة دراسات منها: الشعر العماني في العصرين النبهاني واليعربي، إشكالية الإبداع والاتباع، الشعر الشعبي العماني والمكون الاجتماعي والحالتان الأدبية والعلمية في عهد الإمام أحمد بن سعيد.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

تسعى هذه الورقة البحثية إلى إضاءة بعض الجوانب المتعلقة بحالة «القرية الكونية» التي تكتنف العالم في عصر العولمة ، وتعتبر بحق أحد أهم الأوجه المعبرة عن رؤية العولمة لما يجب أن يكون عليه العالم لا من حيث تقاربه ، وتداخل أطرافه وسكانه فحسب (وهو أمر مشاهد) ، بل من جهة تماثله و تنميطه وقولبته (وهو أمر مأمول) ، وهذه الورقة البحثية على اتصالها وتأكيدها الشديد على البعد التقاني ، ودوره المحوري في الدفع بحالة العولمة قدماً من جهة ، ودورها في صنع الثقافة ، وتغيير الأنماط المعيشية ، وفي هجرة الانتماءات ، مع ذلك كله تتجنب استخدام لغة الأرقام ، و ترفض توظيفها في صدمة القارئ وإذكاء وعيه بالواقع ، وهي طريقة ألفناها من تقارير التنمية البشرية التي اشتغلت على هذه الناحية ؛ لتعزيز القناعة بالتخلف و التراجع ، دون أن تعتني بالقدر نفسه بالفرص المتاحة أمامنا ، ومن ثم فإنها كما تنمي الوعي بواقع الحال تثير مخاوف شديدة من تكريس حالة الانهزامية والاستسلام، بينما لا تزال الفرص متاحة أمامنا بحكم طبيعة الحضارة الرقمية التي تعتمد كثيراً على إمكانات الفرد ، وعلى الموارد البشرية بالدرجة الأولى، وهو أمر لا أحسب أن أوطاننا تفتقر إليه ، لو وجدت العقول في عالمنا الإسلامي فرصتها للإبداع وخدمة الأمة . إننا مع تسليمنا بواقع التخلف وحجمه ومداه ، نحاول أن نتجاوز ذلك كله إلى تبين الأبعاد التي تنطوي عليها الحضارة الرقمية ، وإلى حجم التحديات التي تضعنا إزاءها، وإلى المنطق المختلف الذي نتعامل به ، كما نحاول أن نتلمس شيئاً يسيراً من التحولات التي تؤذن بها تلك الحضارة .

كما تنطلق هذه المحاولة من تسليم آخر بالمنافع ، والثمرات التي قدمتها الحضارة الرقمية ، وهي تبرهن على تلك الحالة القروية التي تدخل فيها العالم ، وهذه المنافع وتلك العوائد أمر لسنا بحاجة للتدليل عليها ، على اعتبار أنها أمر نعيشه يومياً، ونتصل بمنجزاته وطيباته ، ورفاهيته وتسهيلاته في كل لحظات حياتنا ، وعليه فإن التنكر لكل هذه المنجزات و النعم ليس إلا كفراً بأنعم الله التي هدى الناس إليها ، فهي أنعم لابد من شكر الله عليها والتحدث بها كما أمر الله ، واغتنام كل فرصة تتيحها لخدمة قضايانا وما

أكثرها ، كما لابد من احترام العقول التي أهدتها لبني البشر، لكننا لا نريد أن نكون في المقابل متسولين حضاريين نجيد الثناء على من أعطونا دون أن نتساءل كيف حدث كل هذا في غفلة منا ، وكيف تصنع هذه العلوم مستقبل الحياة والأحياء ، ونقع نحن في دائرة التأثر لا التأثير ، حتى لا نستمرئ دور المستهلك الذي يعكف على التطبيقات التقنية ويحسب أنه جاوز المدى ، وحدث المجتمع ، وهو في الحقيقة ينقل التحديث ، تحاول هذه الورقة أن تقبض على شيء يسير من ذلك كله دون أن تدعي الإحاطة به، فلا تزال هناك دائماً مساحة للقول ربما يتيحها النقاش ويرشد إليها .

- ١ -

الفروق بين عولمة الماضي وعولمة الحاضر

(انطلاق الحضارة الرقمية)

تعد عبارة القرية الكونية جامعة لتناقض واضح بين السعة والضيق ، وبين منتهى الصغر وغاية الانفتاح ، ومن ثم فإنها تشير إلى مستوى من عدم الانضباط والضبابية التي تتسم بها المصطلحات الإعلامية المتدفقة ؛ لتغذية نهم الوسائل الإعلامية التي تواصل بثها على مدار الساعة ، غير أنها في الوقت ذاته تحاول وصف مشهد كان خيالياً حتى بداية القرن العشرين المنصرم، محاولة تلخيص حالة القفز ، والتسارع الحضاري التي نقلت البشرية خلال قرن واحد أضعاف النقلات ، التي حدثت منذ اكتشف البشر النار ، واستخدموا المعادن وصنعوا الورق و عرفوا الكتابة ، ويمكن القول هنا بأن مصطلح القرية الكونية الذي أطلقه الإعلامي الكندي « مارشال ماكلولهان » هو تعبير يصف حالة التقارب الاتصالي التي أفضت بنا إليها التطورات التقنية المتلاحقة ، والتي انبثقت خلال القرن العشرين، وتركزت على وسائل المواصلات و الاتصالات ، ووسائل الإعلام المرئي والمسموع، جاعلة من مفهوم البعد المسافي التقليدي حالة تاريخية عفا عنها الزمن ، وفاتحة عهد العوالم الافتراضية .

إن من المفارقات التي لابد من الإشارة إليها أن أغلب التقنيات المستخدمة هي وليدة للتنافس المحتدم خلال عقود الخمسينات ، والستينات ، والسبعينات بين معسكري الحرب الباردة ، وهي نتيجة لجهود مؤسسات الأبحاث العسكرية التي وجدت لضمان صد نفوذ القطب الآخر المنافس، وللتغلب على طموحاته التوسعية ، فإذا بها تتوجه ـ حين نغض

الطرف عن تعسف استخدامها - لخدمة التقارب ، والتداخل والاتصال الإنساني ، إن هذا الأمر يشير أيضا إلى ما سنتحدث عنه لاحقاً من «عالم غير منضبط»[١] تحدث عنه البعض وأشار إلى ولادته والذي يعني أن الأمور لا تسير دائماً في الاتجاه الذي يضعه مخططو السياسة ، وواضعو الاستراتيجيات.

ومن الضروري القول هنا: إن هذا البعد التقني للعولمة هو الفرق الذي يحدث الفرق، ذلك أن العديد من مظاهر العولمة السياسية، والاقتصادية كان لها ظهور من نوع ما خلال القرون الماضية ، فرأس المال الذي نجده محركاً لأغلب أوجه النشاط الإنساني في حضارة اليوم ، والذي يستشري القلق من تعاظم نفوذه على مقاليد السياسة ، ومفاصل المجتمعات، ويعتبر - على الأقل - أحد أذرع العولمة الكبرى إن لم يكن منتجها و مولدها ، نجد له سابقة تاريخية مؤثرة ، تتمثل في الشركات الإمبريالية الكبرى من قبيل « شركة الهند الشرقية البريطانية » و « الشركة الشرقية الهولندية » اللتين سبقتا الجيوش الاستعمارية إلى الشرق، التي تحركت بمبررات معروفة تتمترس خلف دعاوى نشر الحضارة ، و تعميم المدنية وفرض الوصاية على الشعوب المتخلفة .

كما يمكن أن نجد سابقة تاريخية أخرى في ظهور الأفكار ذات النزعة الأممية التي ترمي إلى تأسيس أنموذج عالمي منتشر، وشامل ، ومهيمن، وكان لمثل هذه الأفكار تأثير خطير على التاريخ الإنساني ، وأبرز هذه التيارات هو «الشيوعية» والتي كانت صريحة في السعي للوصول بالمجتمعات الإنسانية إلى مرحلة الشيوعية الثانية أو النهائية ، والتي تنتهي فيها الملكية الخاصة ، ويشترك فيها البشر في كل شيء كما يشتركون في الهواء والشمس والنار ، وتنتفي فيها الحاجة إلى أنظمة الحكم ، ويتلاشى فيها النظام الطبقي.

ومهما كان مستوى الفروق التي قد يراها البعض أو يأملها بين تلك السوابق وهذه اللواحق، إلا أنني أرى الفرق في عدة أمور:

* **الفرق الأول :** وجود البعد التقني الذي ينظر إليه العديدون باعتباره دافعاً للأبعاد الأخرى الاقتصادية والسياسية و الثقافية[٢] ، على ترابط شديد ووثيق بين هذه الأبعاد كلها ، فقد سمحت تقنية الاتصال بتعميم أنموذج موحد للمدنية والحضارة ، و الترويج له ، بأقل الجهود و أدنى قدر من الخسائر، و مستوى محدود من الإثارة والاستفزاز،

---

(١) انظر: سليمان العسكري ، مقال « عالم أقل انفلاتاً » ، مجلة العربي عدد ٥٣٤ مايو ٢٠٠٣م .
(٢) انظر: نايف عبيد ، العولمة مشاهد وتساؤلات ، ص ٧ .

وهي حالة يستخدم فيها الإغراء والترغيب أكثر (نسبياً) من استخدام الترهيب ، مع ملاحظة ضرورية لابد منها ؛ لتقييم الموقف وهي أن الجدل لا يزال دائراً حول ماهية العولمة من حيث كونها ظاهرة ناتجة عن جملة التطورات المختلفة ، أو كونها نظاماً مقصوداً وموجهاً ، وفي نظري أن الفرق بين الأمرين يكاد يكون معدوماً فقد كتب على الغالب أبداً أن يقلد المغلوب سواء تحرك الغالب لخدمة هذا الهدف أو اكتفى بالانتفاع منه ، واستغلال حالة الغلبة ، أو لم يكن مبالياً بها أصلاً ، فالأمر يعتمد في المقام الأول على الطرف المتلقي ، ومدى استعداده للثبات ، واختطاط خط مستقل أو في استعداده في المقابل للالتحاق بالركب ، و السير ضمن القطيع ، ومن هنا فإن الفرق بين الترغيب والترهيب كثيراً ما يكون معدوماً [١] فهو لا يعدو أن يكون خياراً بين الحرمان والعطاء أو بين الوجود والعدم ، إن هذه الحالة هي التي عبر عنها عبد الوهاب المسيري بـ «(الإغواء و القمع) بدلاً من المواجهة الصريحة، والقمع المباشر»[٢].

* **الفرق الثاني**: هو تلك الطبيعة المتلاحقة و المتسارعة بجنون للمعارف والأفكار ، وأساليب الحياة إلى حد القول بأن « خرائطنا المعرفية يعاد تشكيلها مع بداية كل يوم جديد »[٣] ، و إلى حد أن الفرد منا لم يعد « يحس بالتلاؤم المريح مع البيئة المستقرة، إنما هو يشعر بأن التغيير يغمره ، إنما ينحو لأن يتلاءم في مجالات يرى أن الحاجة فيها أكثر إلحاحاً ، ثم يفشل ببساطة في إدراك التغيير في غيرها»[٤] كما يعبر صاحبا كتاب « عقل جديد لعالم جديد » ، وهذه الحالة من التغيير المطرد اللاهث لا تعدو - وبدون مغالاة - أن تكون صنيعةً ضرورية لطغيان التقانة الإلكترونية و الأتمتة ، خاصة حين نستحضر أن لكل آلة ثقافتها ، فالآلة لا تأتي منبتة عن سياقها الحضاري والمعرفي، بل تحمل معها ثقافة صانعيها ، وهي من ثم قوة تغيير و تحول اجتماعي وسياسي واقتصادي ،

---

(١) أقصد بذلك أن سطوع النموذج الغربي في المعيشة ، وذبول أي نموذج آخر بحيث يكون الاختيار شبيها بالاختيار بين الحياة و الموت أو الغنى والفقر، يجعل من حق الاختيار معدوماً تقريباً ، هذا إضافة إلى أن حرمان الشعوب من حقها في التقدم هو أمر ينافي حقها في تقرير طريقة عيشها .

(٢) انظر: المسيري، مقال « عصر النهايات » ، مجلة وجهات نظر عدد سبتمبر ٢٠٠٤م، ص ١٠.

(٣) انظر: نبيل علي، مقال « الصفر والواحد ثنائية العصر » ، مجلة وجهات نظر عدد سبتمبر ٢٠٠٢م ، ص ٣٥.

(٤) روبرت أورنشتاين ، و بول إيرليش ، عقل جديد لعالم جديد ، ص ٢١٠ .

وبيئي[١]. والآلة تعبير عن حاجة إنسانية ما ، والآلة في ذاتها وفي منتجها قائمة على نماذج الإنتاج المتشابهة و المكررة ، و الآلة تتقادم بسرعة ليحل محلها سواها وليحل مع الجديد منها ثقافة ، أو جزء من ثقافة جديدة، هذا إضافة إلى أن منطق العصر بطبيعته الاستهلاكية قائم على توليد الحاجة لا على تلبية الحاجة ، فالمنتج يأتي أولاً ثم يروج لاستخدامه باعتباره حاجة ، بحيث « لم تعد المشكلة تكمن في إنتاج السلع بل في إنتاج المستهلكين »[٢]. و تحـويل الاستهـلاك إلى « ديانة عالمية »[٣]، وهكذا فإنه كما ظهرت من قبل « الرأسمالية العالمية » و « الشيوعية العالمية » تظهر هنا «الاستهلاكية العالميـة » و « الإمبريالية النفسية »[٤].

كما يعبر المسيري ، وقد تعاظمت نزعة الأتمتة و الحوسبة لتأتي على كل مناشط الحياة الإنسانية ، منذ أسفرت جهود عالم الرياضيات الأمريكي المولد المجري الأصل جون فون نيومان (١٩٠٣- ١٩٥٧م) عن وضع أسس عمارة الحاسوب التي كانت تتويجاً لجهود علماء سابقين سعوا للانتقال من « ميكنة الفعل » الذي أنجزته الثورة الصناعية إلى «ميكنة الفكر »[٥] ، ومن ثم فقد انطلق المارد من قمقمه ؛ لتبدأ هذه الحالة الجائحة من «الرقمنة» - إن صح التعبير - التي يشهدها عالمنا المعاصر ، والتي يمكن أن ندلل عليها بسيل المصطلحات الشائعة المرتبطة بالحاسوب، ومن أمثلتها : الفضاء الرقمي ، النقود الرقمية، الحرب الرقمية ، الكلام الرقمي ، الأرشيف الرقمي ، الفجوة الرقمية ، الموسيقى

---

(١) في ذلك انظر: آر .إيه . بوكانان ، الآلة قوة وسلطة ، ترجمة: شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ٢٥٩ ، حيث أشار إلى رواية جورج أورويل الشهيرة « العالم عام ١٩٨٤» التي تخيل فيها العالم عام ٨٤ بأنه عالم تعاني فيه البشرية من نظم حكم استبدادية ، تملك تحت إمرتها وسائل قهر تكنولوجية ، كما تحدث عن ما يراه البعض من سلطة للتكنولوجيا على حياة البشر، واصفا ذلك بأنه « جبرية تكنولوجية » ص٢٦١. وحول هذه الرواية الشهيرة انظر: مقال أحمد أبو زيد: «تكنولوجيا الاتصال هل تدعم الغربة والانعزال ؟» ، مجلة العربي عدد ٥٤٤، مارس ٢٠٠٤م . ومقال « الخصوصية انتهت، والفرد أصبح مكشوفاً » ، لشوقي رافع ، مجلة العربي، عدد ٤٩١ أكتوبر ١٩٩٩م ، ومقال نبيل غزلان « سيناريوهات الأفق الرقمي » ، مجلة العربي ، عدد ٥٢٤، يوليو ٢٠٠٢م

(٢) عبد الحي زلوم ، نذر العولمة ، ص ٧٩ .

(٣) انظر مثلاً: سعد محيو، العرب والعولمة و التحضير للقرن الواحد والعشرين، ص ٦٠.

(٤) انظر حول هذه المصطلحات: المسيري ، مقال « عصر النهايات » ، مجلة وجهات نظر، عدد سبتمبر ٢٠٠٤م ، ص ١٠ ، و انظر حول مصطلح « الرأسمالية الاستهلاكية »: عبد الحي زلوم ، نذر العولمة ، ص ٧٩ ، و يضع زلوم عنواناً فرعياً لكتابه الآنف الذكر هو : هل يستطيع العالم أن يقول لا للرأسمالية المعلوماتية ؟ وهو يقول عن الرأسمالية المعلوماتية بأنها ناتجة عن دمج الوسائل التي وفرها عصر المعلومات مع الجشع الشديد لخلق العولمة ، ويرى بأنها قائمة على الاستلاب والاستيلاء على الثروات من خلال المضاربات، وسحق الاقتصاد الإنتاجي القائم على السلع والخدمات، انظر (ص ٣٥) من الكتاب المذكور، ويشير هذا المصطلح مرة أخرى إلى أهمية البعد المعلوماتي للعولمة

(٥) انظر: نصر الدين السيد ، مقال « مطالعات في حضارة الحاسوب » ، مجلة العربي ، عدد يوليو ١٩٩٣م .

الرقمية، الهواتف الرقمية ، التصوير الرقمي، الساعة الرقمية ، العوالم الرقمية[١] ، إضافة إلى مصطلحات من قبيل التجارة الرقمية ، أو التجارة الافتراضية ، أو الكتاب الإلكتروني، المكتبة الإلكترونية ،السياحة الافتراضية (=الخائلية) ، المدرسة الافتراضية (=الخائلية)، وصولاً إلى المعبد الافتراضي (=الخائلي)، بل إننا نفاجأ بمصطلح من قبيل «الكائن الافتراضي »[٢] الذي يومئ إلى إنسان الإنترنت ، وغيرها من المصطلحات التي تموج بها المشاهد العلمية والإعلامية .

أي أننا أمام عصر أصبح من الجائز أن نطلق عليه عصر الحضارة الإلكترونية ، حيث يتجاوز تأثير البعد الإلكتروني التقاني طور الاستخدام الوظيفي ، إلى إعادة صياغة نظم الحياة وطرق العيش وطرائق الحكم، إذ « يجادل المتحمسون للعولمة بصورة عامة بأن التقنية قد قتلت السيادة الوطنية وأفرغتها من مضمونها ، و أبلت القوانين الوطنية »[٣] وهذا الأمر بدوره ناتج عن خلخلة شديدة للمفاهيم السابقة حول العناصر المهمة للوجود الإنساني، وأبرزها عنصري الزمان والمكان إلى درجة انهيار تلك المفاهيم، أو إبدالها بمفاهيم أخرى تضع تعريفات أخرى لها ، حين لم يعد الزمان والمكان يشكلان الفرق ذاته، أو يصنعان الحوائل ذاتها ، وهو ما يعبر عنه بصورة أوسع نبيل علي فيما يسميه «كسر الثنائيات القديمة» ، حيث يرى بأن التكنولوجيا امتلكت القدرة على تغيير الواقع البشري من خلال قيامها «بتحطيم العديد من الثنائيات التي تعمق رسوخها في الفكر الإنساني، وعلى رأسها أربع ثنائيات حاكمة هي : ثنائية المادي واللامادي ، وثنائية الواقعي والخيالي، و ثنائية الجماعي و الفردي ، وثنائية الحيوي و الفيزيائي « وهذه الثنائيات بدورها، وثيقة الصلة بثنائيات أخرى » ذات صلة بجوهر الوجود الإنساني ، ونقصد بها ثنائية المكان والزمان، ثنائية الجسد والعقل ، ثنائية الفكر والوجود ، ثنائية الفرد والمجتمع »[٤]، وتحطم هذه الثنائيات يؤدي إلى سلسلة من التفاعلات في ثنائيات فرعية أخرى ، ومن وجهة نظري فإن بروز فكرة القول بالنهايات[٥] هي نتيجة لهذه الحالة التي تنطوي عن عجز في فهم هذا

---

(١) انظر: طرفاً من هذه المصطلحات في : نبيل علي ، مقال « الصفر والواحد ثنائية العصر » ، ص ٣٥-٣٧ .

(٢) انظر حول هذا المصطلح: علي محمد رحومة، مقال: « هل هو موجود حقاً ، هذا الكائن الافتراضي، » مجلة وجهات نظر، عدد مارس ٢٠٠٦م ، ص ٣٤-٣٧ .

(٣) نايف عبيد ، العولمة مشاهد وتساؤلات ، ص ٢٣.

(٤) انظر في ذلك: نبيل علي في مقاله المهم: « الصفر والواحد ثنائية العصر »، ص ٣٤.

(٥) من أمثلة هذه النهايات : نهاية التاريخ ، نهاية العلم ، نهاية الأيدلوجيا ، نهاية الميتافيزيقيا ، نهاية الحقيقة ، نهاية البحث عن المعنى. انظر في ذلك: المسيري ، مقال عصر النهايات ، ص ١١ .

التحول ومآلاته ، تماماً كما برزت مفاهيم ما بعد الدولة القومية ، و ما بعد الاستعمار، و ما بعد الرأسمالية و الحداثة ، وما بعد الحداثة، نتيجة للتطورات المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية، و حتى نهاية القرن العشرين، أو أنها إشارة فحسب إلى دخولنا حقبة جديدة دون أن يكون للاسم كثير من الأهمية، كما يقول برهان غليون في كتابه العرب و تحولات العالم(١)، وما المناقشة المستفيضة التي تتعرض لها مفاهيم مرتبطة أشد الارتباط بحياة الإنسان إلا دليل على هذه الرغبة المستشرية في مراجعة كل شيء، وتفكيكه، ومثال ذلك مفهوم «الدولة» و مفهوم «السيادة »(٢)، وهذه المفاهيم لا تتعرض للتغير نتيجة لتغير النظام السياسي العالمي بعد انتهاء الحرب الباردة فحسب ، بل كذلك نتيجة لتلك التغييرات المهمة على قدرة البشر على التواصل والانتقال، و قدرتهم على الاتصال بحيث لم تعد تلك الجوانب خاضعة كل الخضوع للسيطرة و التحكم ، أي أنها نتيجة لتحقق شعار «القرية الكونية»، ومن ثم تآكل تلك المفاهيم وضعفها .

* **الفرق الثالث** : و هو الذي سبق أن أشرت إليه من قبل ، وهو السمة غير المنضبطة، أو (المنفلتة بالأحرى)، والتي تسمح بتعايش، وتنافس الأنموذج ونقيضه في ذات الوقت.

- ٢ -
نظرة في المصطلح والمفهوم

لئن كان مصطلح العولمة مصطلحا حديثاً نسبياً ، بدليل أن الجدل لا يزال يدور حول المصطلح والمفهوم ، فإن مصطلح « القرية الكونية » هو مصطلح أقدم بكثير ، إذ تنسب عبارة القرية الكونية إلى الإعلامي الكندي « مارشال مكلوهان »(٣) الذي أطلقها في الستينات، واصفاً فيها حالة التقارب الذي تصنعه وسائل الإعلام والاتصال ، و الذي كانت إرهاصاته قد بدأت حينها، ومن هنا فإن هذه العبارة التي تشير بتفاؤل واضح إلى حالة

(١) انظر: برهان غليون ، العرب وتحولات العالم ، من سقوط جدار برلين إلى سقوط بغداد ، ص ٨٤، وهو يقصد هنا المفاهيم التي تسبق بـ «ما بعد » ، و يمكن أن ينطبق ذلك على مفاهيم النهايات التي قد لا تشير إلا إلى عجز عن فهم تأثيرات كل هذه التحولات و عواقبها على مألوف النظم و المفاهيم .

(٢) حول ما يدور من مناقشة مفاهيم الدولة القومية و السيادة انظر: محمود حيدر ، الدولة المستباحة . و انظر: سعد محيو ، العرب والعولمة و التحضير للقرن الواحد والعشرين ، ص ١٦– ١٧ حيث تحدث عن تلاشي مفهوم «الدولة الأمة » (ص ٦٥).

(٣) انظر: «حسام شاكر ، مقال: هل أخفقت «القرية الكونية»؟ / http://www.ramadan2.biz/ ، ماكلوهان كان أستاذاً للإعلام بجامعة تورنتو في كندا. انظر: محمود حيدر ، الدولة المستباحة ، ص ١٥٨، و مقال أحمد أبو زيد « تكنولوجيا الاتصال هل تدعم الغربة والانعزال؟ » مجلة العربي، عدد ٥٤٤ ، مارس ٢٠٠٤م .

من التداخل ، والتقارب الناتج عن التقنية ، ولذا فإنها حين تطلق اليوم تثير معان مرتبطة بهذا المعنى ، ولربما كانت هذه العبارة أصلاً بعيداً لمصطلح « العولمة » يصف هذه الظاهرة العالمية بأحد أجزائها وأكثرها تأثيراً، مما يؤكد أساسية ومحورية البعد التقاني في العولمة.

ومن المؤسف أن الأمور لم تسر ـ وما كان ينبغي لها بحكم قوانين التدافع الحضاري على وفق ما كان يتمناه ماكلوهان ، فكلمة « القرية » تومئ في مخيالنا العربي ، وفي ثقافتنا المحلية ـ كما هي في وعي الشعوب ـ ، إلى حالة من الاندماج بين مجموعة البشر القاطنين في مجتمع صغير تكاد تتلاشى فيه الطبقات ، ولا يتمايز الناس فيه كثيراً عن بعضهم ، وتسري بينهم روح من الألفة الدافئة ، والتعاون الرحوم ، غير أن حال «قريتنا الكونية» أبعد ما تكون عن ذلك ، فلا يزال معظم البشرية يعانون من الجهلوت المعلوماتي، ولا تتوفر لهم وسائل الاتصال التي شرع البشر في استخدامها في بداية القرن العشرين ، فضلاً عن تقنيات الاتصال الحديثة كالإنترنت و البث الفضائي وسواها ، بل إن الفورة التقنية تقسم العالم «إلى مالكين للمعلومات ، ومحرومين منها»[1] أي إنها قرية ينعم خمس سكانها بكل شيء ، وتعدم الأربعة أخماس الأخرى من كل شيء ، وحتى حين نتحدث عن ذلك الخمس الذي تتدفق عليه شلالات المعلومات ، ويعلم ما يدور في العالم، وتجبى إليه أخبار كل شيء، إلا أنه يفقد القدرة على التفاعل معها ، أو التأثر بها كما يؤكد حسام شاكر ذلك حين يقول : «إنّ الإنسان في عصر «القرية الكوكبية» المُفترض، ربما يعلم بمعاناة أخيه الإنسان، ضحية ثالوث الفقر والجوع والمرض؛ لكنّ ذلك العلم لا يرقى في كثير من الأحيان إلى درجة الشعور الفعلي بتلك المعاناة ومعايشتها ، وبالتالي المساهمة في إنقاذ الإنسان لأخيه الإنسان، كما ينبغي»[2] ، وهذه الحالة من اللامبالاة التي تعطل النتيجة التي أملها «مكلوهان» تشير إلى ذلك الفرق الحقيقي الذي يراه بعضهم بين «المعلومات» و «المعرفة» .

إن هذا الفرق الواضح بين « سكان القرية » والذي سمي فيما بعد بـ «الفجوة الرقمية» إضافة إلى العجز عن الانتفاع من كم المعلومات المتدفق في تحقيق حد أدنى معرفة بالآخر، وإلغاء وتصحيح التصورات الخاطئة عنه ، قد أدى إلى تحويل أدوات التواصل إلى وسائل

---

(١) انظر: سليمان العسكري ، مقال « عالم أقل انفلاتاً » ، مجلة العربي، عدد ٥٣٤، مايو ٢٠٠٣م .

(٢) حسام شاكر ، مقال « هل أخفقت القرية الكونية؟ » / http://www.ramadan2.biz/ .

للهيمنة ، وإلى تحويل وسائط الإعلام إلى قنوات للدعاية ، أو تكريس الصورة النمطية المغلوطة، أو التشويه أو تسطيح الشعور ، أو ترويج تفاهة ، أو عبثية الاهتمامات ، أو خدمة رأس المال العالمي بإشاعة «ديانة الاستهلاك» .

ومن ثم فقد أوشك بعض أن يعلن عن موت «القرية الكونية» وتحولها إلى «غابة كونية» لأسباب كثيرة[٢٢] ، بينما تبرز في ذات الوقت رؤى مغايرة متفائلة تعلن عن ولادة المجتمع «المدني العالمي» قاصدة به « فضاء ، أو حقل النشاطية ، أو الكفاحية المنطلقة من الإيمان بقيم عالمية، وبوحدة المصير البشري على الأقل بالنسبة لموضوعات ، أو قضايا حاسمة مثل: السلام ، والعدالة ، والتنمية ، والبيئة ، وحقوق الإنسان » أو هو ذلك «النسيج من الروابط الكفاحية التي تنشأ على قاعدة الإيمان بالمساواة ، والمسئولية المشتركة والحاجة إلى علاقات عالمية لا تقوم على التسلط أو القوة والامتياز»[١] أي أن مجموعة الحركات، والتيارات فوق الإقليمية والتي تواجه ظواهر العولمة المختلفة ، وتأخذ طابعاً منظماً ودؤوباً وإصلاحياً ، والتي أصبحنا نتابع تظاهراتها المليونية الصاخبة عبر وسائل الإعلام المخلفة أصبحت تمثل ، وبسبب طبيعتها المنظمة تلك حالة عالمية تصلح أن تكون بعض مظاهر «القرية الكونية» ، وهي تشمل طيفاً واسعاً من منظمات مناهضة العولمة ، ومنظمات البيئة ومنظمات حقوق الإنسان ، ومنظمات أنصار السلام وغيرها ، ومن الملاحظ أن هذه القوى البارزة تستخدم أيضاً تلك الأذرع التقانية للعولمة ، و أهمها الأوعية الحوارية على الإنترنت من أجل الترويج لأطروحاتها ، والدعاية لأنشطتها ، مما يعني أن العولمة ولدت وهي تحمل بذور معارضتها معها تماماً ككثير من الأيديولوجيات القديمة ، التي سيطرت ثم طواها التاريخ ، كما يشير هذا الأمر إلى ذلك الفرق الثالث وهو «الانفلات »[٢] والذي تسمح العولمة بسببه بتنافس النقائض ، وعلينا هنا أن لا نتعامل مع ظاهرة الحركات المناهضة للعولمة، والتي يصفها بعض بـ «المجتمع المدني الإنساني» باعتبارها تعبيراً فوضوياً يقوم به

---

(١) انظر بالإضافة إلى مقال حسام شاكر السابق ، سليمان العسكري ، مقال « إعلام العولمة قيم جديدة .. أم انكفاء على الذات؟ » مجلة العربي، عدد ٥١٧ ، ديسمبر ٢٠٠١م، حيث يقول :« لقد تحول حلم القرية الكونية إلى كابوس، فالعالم يزداد في درجة التفاوت وليس في التساوي » ، كما يعرض العسكري في مقال آخر له بعنوان « عالم أقل انفلاتاً » كتاباً مهماً لأنتوني جيدنز عنوانه « قرية كونية أم نهب كوني؟ » الذي قدم صورة مفزعة عن تحول هذه القرية إلى نهب كوني، أو غابة كونية وعن تحول المالي إلى نوع من الاستعمار المعاكس، انظر مجلة العربي، عدد ٥٣٤، مايو ٢٠٠٣م .

(٢) محمد السيد سعيد ، المجتمع المدني العالمي.. الصعود والتحديات ، موقع إسلام أون لاين ، ٢٠٠٤/٠٤/٠١م ، ص ٥ .

بعض الرعاع ، بل هي حالة مجتمعية تقف في وجه مفهوم سياسي بات شائع الاستخدام، وقد ناله من التشويش و التشويه الشيء الكثير، إلى حد أنه أصبح يرتبط في أذهاننا بالقهر، والتسلط و تكبيل الإرادة ، ذلكم هو مفهوم «الإرادة الدولية» أو ما يعبر عنه أحيانا بـ «إرادة المجتمع الدولي» وهو تعبير مضلل وخادع، إذ لا يعني أكثر من رغبة قوى معينة في فرض مفاهيمها وتصوراتها للنظام العالمي ، بل إنه يتجاهل في كثير من الأحيان آراء (أو فروق الآراء) بين تلك القوى ذاتها .

ومما ينبغي الالتفات إليه أيضاً أن قوى «المجتمع المدني العالمي» تلك التي تعارض العولمة في شتى جوانبها لم تنتظر في ظهورها طويلاً ، بل إن ظهورها - على غير المتوقع - يكاد يتزامن مع شخوص قرون العولمة ، فلم تعط العولمة فرصاً للدلالة على تطلعاتها ، ولم تنتظر تلك القوى المناهضة كثيراً من البراهين ؛ لتتأكد من نوايا مراكز العولمة قبل أن تشرع في معارضتها ، إن هذا الأمر يومئ أيضاً انتشار حالة من الإحساس بأزمة البشرية، وحالة من الوعي المتزايد بحجم المأزق الذي وضع فيه العالم ، و علينا هنا أن لا نقرأ هذه التوجهات المعارضة بوصفها حالة تنبت خارج نظام العولمة ، بل هي جزء من هذا النظام غير المنضبط، ومن براهين ذلك أنها ولدت في أحضان مراكز تصدير العولمة ، ولم تولد من مناطق الأطراف ، وهي في بداياتها العنيفة و الصاخبة تسعى إلى حالة قد تكون متوازنة للعولمة ، ولكنها بلا شك تقف على الند من «الإرادة الدولية» بالمعنى الذي تروجه وسائل الإعلام الغربية ، وتتلقفه وسائل الإعلام العربية دون تمحيص .

- ٣ -

الحالة القروية : ثمرات و عثرات :

إننا في ظل الحضارة الرقمية نعيش حالة مركبة ومعقدة مليئة بالتناقضات على صعد مختلفة، تحمل في طياتها من الأزمات قدر ما تحمله من فرص وحلول ، ومرد هذا الارتباك في فهم هذه الحالة ناتج عن عدة أمور منها :

١- أننا أول جيل يعيش في ظل هذه الحضارة[1]، ومن ثم فقد كتب علينا أن نواجه صدمتها الأولى .

٢- ومنها أن الوفرة الرقمية ، أو سيل المعلومات المتدفق يمثل مشكلة بحد ذاته، كما يمثل فتحاً وإنجازاً ، حيث يشبه صاحب مقولة « القرية الكونية » مارشال ماكلوهان حالة

---

(١) انظر: سليمان العسكري، مقال « عالم أقل انفلاتاً » .

الغرق المعلوماتي التي نعانيها وسط طوفان الأخبار والمعلومات بحالة الأسماك الهائمة السابحة في الماء دون أن تمتلك القدرة على اكتشاف وفهم ذلك الماء[١]، وإذا كان هذا الوصف يصدق على حالة الشعوب المنتجة للعولمة ، والتي بلغت في المدى الرقمي شوطاً بعيداً ، فإن الحال بالنسبة للشعوب المستهلكة للمنتج الرقمي تبدو أكثر تعقيداً وتركيباً ، ويعيد نبيل علي و نادية حجازي مشكلة تعقد المعلومات إلى الخماسية التالية : حمل المعلومات الزائد، و التشظي و التطاير و عدم الاتساق و الاستتار و الانطواء[٢].

٣- ومنها أن حالة الرقمنة جعلت ولأول مرة من المعلومة سلعة ، وبشرت بعصر جعل من المعلومات ثروة ، لكنها ثروة من نوع مختلف، فهي من جهة الموارد على النقيض من السلع المادية تتزايد ، ولا تنقص بسبب استهلاكها ، ومن جهة القيمة فقد احتل رأس المال الذهني مكانه مقابلاً لرأس المال المادي « وأصبحت الملكية الفكرية من أهم الأصول الاقتصادية »[٣] وسنت له قوانين الحماية التي التزمت بها كافة الدول ، وإذ تم التعامل مع المعلومة باعتبارها سلعة فقد وجب في ظل النظام العولمي أن ترفع من أمامها الحدود والقيود ، كيف لا و الإعلام و المعلوماتية أهم سلع العولمة[٤] ، لكنها في نهاية المطاف لا تخرج عن كونها منتجاً ثقافياً يحمل القيم الثقافية ، والحضارية لمنتجيه ، دون أن يسمح النظام العولمي بحصاره ، أو منعه أو الرقابة عليه، بل يوجب حمايته ، وحفظ حقوق صانعيه ، ومن هنا فإنه أصبح وارداً جداً أن نسمع الحديث عن « ثقافة عالمية » أصبحت تملك بحق كل أدوات التغول والاجتياح ، وهي انعكاس طبيعي لمزيج من الانقلابات الكبرى الاقتصادية، والتكنولوجية[٥].

وبوسعي أن أعدد هنا نماذج كثيرة من مفردات هذه الثقافة العالمية التي تجتاح كل شيء، ولكني سأكون مضطراً حينها إلى جلبها من حقول الإعلام ، أو الاقتصاد و التربية، وهي كلها حقول سبق تغطيتها في أوراق عمل أخرى بما فيه الكفاية، و من المهم للغاية أن لا نتعامل بسذاجة حتى وإن سلمنا أن العولمة حالة تلقائية ، أوصلت إليها جملة التطورات

---

(١) انظر: سليمان العسكري، مقال « إعلام العولمة قيم جديدة أم انكفاء على الذات؟ »، مجلة العربي، عدد ٥١٧، ديسمبر ٢٠٠١م.

(٢) انظر: محمود حيدر، الدولة المستباحة (من نهاية التاريخ إلى بداية الجغرافيا)، ص ١٥٨.

(٣) حول ذلك انظر: نبيل علي ، نادية حجازي ، الفجوة الرقمية ، ص ٢٣٢- ٢٣٤ .

(٤) انظر: نبيل علي ، مقال « الصفر والواحد » ، ص ٣٧ .

(٥) حول هذه الجزئية انظر: سعد محيو ، العرب والعولمة و التحضير للقرن الواحد والعشرين ، ص ٥٦.

التقنية، والاقتصادية، ومع تسليمنا أيضاً بما تحمله من فرص ، مع ذلك كله علينا أن ننبه إلى ما يراه بعض - محقاً - من « أيدولوجيا خفية تستبطن ظاهرة العولمة »[١]، ويضرب عليها مثالاً بمفهوم « المجتمع الاستهلاكي » الذي شاعت تسميته بديانة العصر ، ولمزيد من الوعي بهذه الديانة باعتبارها ديانة القرية الكونية ، فإن علينا هنا أن نستحضر دائماً أن القوى العالمية تستحضر الفرص ، وتصنعها لتستغلها ، فكيف إذا كانت تلك الفرص متاحة وماثلة؟ ، ومن ثم فإن رأس المال يتعمد « التبشير » بالاستهلاك ، ويدفع به باعتباره ثقافة عالمية ، بل لقد رأى بعض بأن «التحكم بالأفكار لصالح النزعة الاستهلاكية أصبح كاملاً تقريباً» ، تلك النزعة التي تهدف في النهاية إلى تشييع وتسليع جميع الأفكار ، والمنتجات المادية[٢] وهذا الترابط بين رأس المال و الاستهلاك ترابط مصيري ووجودي ، وعودة إلى سياق تحول المعلومة إلى ثروة وقوة فإنه سيكون من المفيد - للتأكيد على حقيقة - أن نذكّر هنا بشركة مايكروسوفت عملاق صناعة البرمجيات الأمريكية التي فاقت وبسرعة شركات الإنتاج المدني ، والعسكري العتيدة، من قبيل شركات فورد ولوكهيد مارتن و بوينج و غيرها في أرباحها ، وتوسع عملياتها ومعنى ذلك أن «القوى الصلدة» التي اعتادت البشرية على التعامل معها واستخدامها ، وتوظيفها في مجالات القوة المختلفة مدنياً وعسكرياً ، قد أفسحت المجال لقوى من نوع آخر هي « القوى اللينة » حسب تعبير نبيل علي أيضاً[٣] ؛ لتوظيفها هي أيضاً في مجالات القوة الاستراتيجية ، وهي حالة جديدة تنقلب فيها معايير القوة والضعف لتكون من نوع آخر تماماً ، وهذه الحالة الجديدة ليست حالة عارضة تمر بها البشرية ريثما تعود إلى سوابق العادات و السنن ، بل هي تحول عميق في جوهر ظروف حياتنا ، وتبدل في قواعد، وقوانين الصراع تستطيع الشعوب النامية فيها أن تجد مخرجها لو أحسنت استغلالها، وانتهاز فرصها المواتية ، «فالمعرفة تنحاز لصالحنا»[٤]. حسب تعبير نبيل علي مرة أخرى. ويعتمد ذلك في حالتنا العربية والإسلامية بدرجة كبيرة على خطوات الإصلاح المطلوبة في اتجاه تطوير نظم التعليم تطويراً حقيقياً كما تفرضه حاجات المجتمعات ، وكما توجبه علينا التحديات ، كما يعتمد على خطى الإصلاح في مناحي الحياة الأخرى، بحيث تجد المواهب قدرتها على المساهمة، وتعطى حقها من الفرص العادلة .

---

(١) انظر: سعد محيو ، العرب والعولمة و التحضير للقرن الواحد والعشرين ، ص ٥٧.

(٢) انظر: سعد محيو ، العرب والعولمة و التحضير للقرن الواحد والعشرين ، ص ٦١.

(٣) انظر: لسلي سكلير ، العولمة الطوفان أم الإنقاذ ؟ تحرير فرانك جي لتشر و جون بولي، ترجمة فاضل جتكر ، ص ١٣٣-١٣٦.

(٤) انظر: نبيل علي ، مقال « الصفر والواحد » ، ص ٣٧ .

وحالة التداخل الإنساني لا تعني بالطبع مجموعة الثمرات ، والنتائج الإيجابية على صعيد التواصل ، والاتصال، بل تعني كذلك تلك الأوجه السلبية لهذه الحالة «القروية» أو شبه القروية التي يمر بها العالم، إذ يزداد اليقين يوماً بعد آخر بأننا شركاء في كوكب خرب نظامه البيئي، و أصبح عرضة للكوارث البيئية ، التي تتجاوز في تأثيراتها حدود الدول والأقاليم، كما يزداد القلق من الأمراض التي تهدد البشرية وآخرها ظهوراً «إنفلوانزا الطيور». كما رأينا خلال الأشهر الفائتة. فمع أن قتلاه لم يتجاوز عددهم بضع مئين إلى الآن، إلا أننا نرى أن منظمات الصحة و الهيئات الدولية والإقليمية تعلن استنفارها لمواجهته على أنه خطر محدق بالبشرية ، غير أن هذه الحالة من الارتباك العالمي في مواجهة مثل هذا المرض، تشير فوق ما تشير إليه من خشية من هذه الحالة القروية المتداخلة ، تشير أيضاً إلى قدرة القوى العالمية على التحكم في اهتمامات البشرية، وصرفها في اتجاهات منتقاة وفق معايير غير منطقية أحياناً، إذ لا تحظى الحروب الظالمة ، ولا المجاعات المتفشية ، ولا الفساد الأخلاقي أو الإداري ، ولا الأمية المزرية ، و سواها من الأزمات بقسط يسير من حالة التحشد ، والاستنفار والتواصي بالمواجهة التي رأيناها في مواجهة هذا المرض، مع أن كل تلك المشكلات و غيرها أمراض تنخر في جسد البشرية وتسقط كل يوم مئات بل آلاف الضحايا ، أفلا يدل ذلك على رغبة في السيطرة على اهتمامات البشرية وتوجيهها نحو مناطق أقل سخونة ، و ضرراً على مراكز تصدير العولمة ؟

ويظهر التناقض واضحاً في معطيات الحالة القروية العالمية حين ننظر إلى الفرد في القرية الكونية الذي يمتلك قدرات هائلة على الاتصال ، وعلى تبادل المعلومات ، ولكنه مع ذلك مهدد بالعزلة والانقطاع عن محيطه القريب فضلاً البعيد ، وبجانب هذه الفردية التي توفرها أجواء الحياة الرقمية والتي توحي بقدر كبير من الخصوصية ، يغدو الإنسان أكثر فأكثر منكشفاً من الناحية المعلوماتية، و يسهل توفر المعلومات عنه عبر قواعد البيانات المختلفة ، وفي ذات الوقت تبرز المخاوف من خطر تقنيات الاتصال الحديثة على التنوع الإنساني ، ومن إمكانية قضائها على الفوارق و الاختلافات الطبيعية (الضرورية) ، والخصائص الفردية من خلال توحيد العمليات الذهنية ، وإضعاف التفكير ، و إجداب الخيال الإبداعي، و « تفريغ الإنسان من محتواه الذهني و العاطفي وحرمانه من كثير من مقوماته وخصائصه الإنسانية المستمدة من علاقات الناس ببعضهم البعض بصورة مباشرة بدلاً من علاقتهم بالآلة »[1] .

---

(١) مقولة له في إحدى مقابلاته التلفزيونية مؤخراً .

وبجانب ذلك كله نجد أن التقنية الرقمية حررت الفرد من قيود كثيرة ، وأعطته قدرة أكبر على الانتقاء بين البدائل ، وفوتت على كثير من القوى المحتكرة لوسائط المعرفة، ومصادر المعلومات ووسائل الإعلام كثيراً من قدرتها على حصار الفرد ، وإخضاعه لخطابها ولتصوراتها ، ومكّنته أن ينتج في المقابل خطاباً خاصاً به يتمتع بقدر غير ضئيل من الاستقلالية ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك: النشر الأدبي ، والعلمي، و الصحفي الذي كان حتى عهد قريب خاضعاً لسيطرة الجهات الرسمية، أو لهيمنة مؤسسات النشر الخاصة، حتى أسفرت الأمور عن إمكانات « الناشر الفرد » الذي يمتلك فضاء معلوماتياً غير هين يمكنه من بث خطابه الخاص به، أو أن يشارك في مجموعات الحوار ضمن حلقات النقاش الافتراضي ، مما سحب البساط من تحت أرجل مؤسسات النشر النافذة، وأجبرها على الاختيار بين زحزحة خطابها ، و خسارة قرائها الباحثين عن قدر من المصداقية والشفافية، وهي في ذات الوقت تتيح نشر كل شيء دون سيطرة أو ضابط ، إن هذه الظاهرة بجانب ما هي عليه من فوضوية وعشوائية في كثير من الأحيان تمثل في نظري حدثاً مهماً للغاية، فهي تشهد ما يمكن أن يعتبر أكبر نقاش حر تشهده البشرية ، وهي تخفي أي ملامح للتمييز بين أطراف الحوار، وقد أصبحت مفرخاً لكثير من الكتاب المبتدئين الذين يجدون ضالتهم في ساحات نشر مجانية لا تشترط اسماً لامعاً أو قلماً مخضرماً، وهي بحق من أهم ظواهر القرية الكونية بكل ما تحمله من إيجابيات و سلبيات .

- ٤ -

تساؤلات في أرجاء القرية الكونية :

تدفع طلائع التغيير التي تحفل بها حالة القرية الكونية إلى جملة من التساؤلات الضرورية في ذاتها قبل أن تكون ضرورية في إجابتها، هذا إن كان لها ثمة إجابات ، من أهم هذه التساؤلات في نظري، هي:

إن العالم على « قرويته » تلك وشدة تداخل ثقافاته يشهد حالة من الاستقطابات، ونمواً واضحاً في حركات اليمين المتطرف، بحيث غدا التطرف ظاهرة عالمية لا تقتصر على دين أو شعب أو جنس أو لون ، فما الذي يذكي تلك التوجهات، وكان من حقها أن تهدأ في ظل معرفة أوسع وأفضل بالآخر، ووفرة المعلومات حوله ؟ هل عادت نزعات الهيمنة في جهات

من العالم، وبرزت نزعات مضادة لها في جهات أخرى ؟ وبقدر ما تتوفر لنا من معلومات هائلة بالآخر، و إحاطة بأطراف القضايا وتوفر عليها من زواياها المختلفة: ألا تنمو بالقدر ذاته أحادية النظرة و خلل التصور ؟

ألم يصبح التعايش والتسامح ضرورة ملحة كضرورة الماء والهواء، في ظل حدة الأفكار من جهة، وتلاقيها اليومي الضروري من جهة أخرى ؟ نتيجة لهذا التداخل الشديد الذي يفرض على أصحاب التيارات المختلفة يومياً قدراً من الاحتكاك والالتقاء غير المسبوق ؟

هل يعي العرب والمسلمون ما تنطوي عليه الحضارة الرقمية من تبدل في مجالات الصراع وتغير في وسائله ؟ وهل نحن قادرون على الالتفات إلى الفرص المتاحة التي اهتبلتها أمم أخرى من أجل صنع شيء مميز تتخصص فيه و تقدمه للعالم ؟ وهل نحن منتبهون حقاً إلى حقيقة أن البشر هم رأس المال الأهم في ظل قوانين الصراع المتغيرة تلك ؟ فتتجه شعوبنا إلى تنمية بشرية حقيقية تنطلق من احترام آدمية الإنسان وكينونيته التي كرمها الله ؟

أين موقع الإسلام من القرية الكونية ؟ وهل يحتاج الإسلام لإعادة صياغة كما قال بعضهم من أجل ملاءمته مع حالة القرية الكونية حين نادى بما أسماه « بريستوريكا العالم الإسلامي »[1]، أم أن المسلمين هم الذين يحتاجون إلى إعادة صياغة كما يرى البعض الآخر[2] ؟ وهل غدا الإسلام ثقافة المقاومة الوحيدة في العالم لتيار العولمة ، وهل هو في حقيقته معادياً للقرية الرقمية؟[3] أم أن العالم بأسره يشهد حالة الحذر و التوجس منها؟ إن طبائع الأمور تقتضي دائماً ألا يتحكم توجه واحد بمصير البشرية ، وأن حداً ضرورياً أدنى من التوازن ينشأ ولو بعد حين .

---

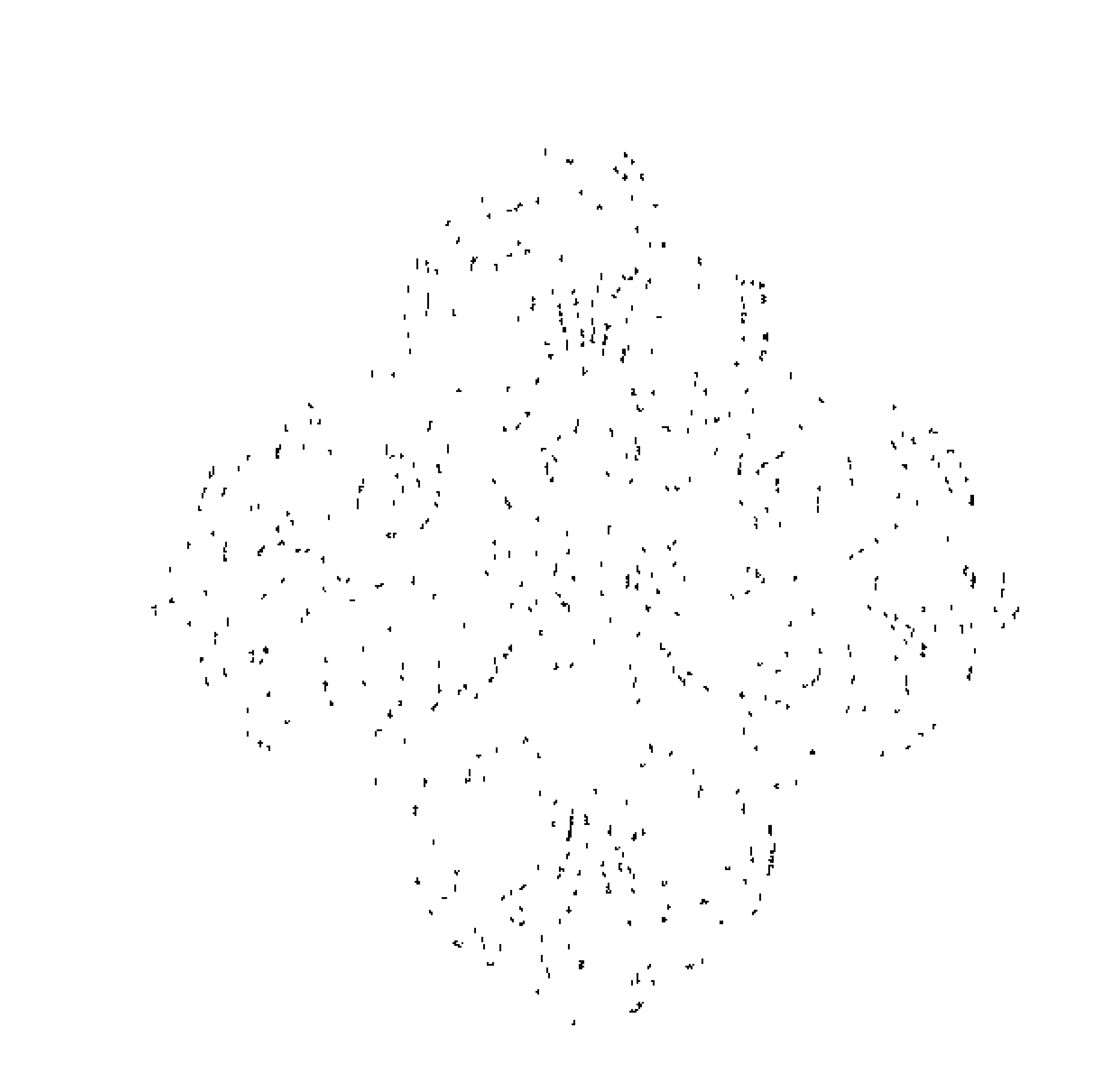
(١) انظر مقال : أحمد أبو زيد « تكنولوجيا الاتصال هل تدعم الغربة والانعزال » ؟ ولفهم أوسع لهذا التناقض أحيل إلى ثلاثة مقالات مهمة أحدها المقال السابق ، والمقالان الآخران هما سيناريوهات الأفق الرقمي « لنبيل غزلان » ، مجلة العربي، عدد ٥٢٤ يوليو ٢٠٠٢م و مقال « الخصوصية انتهت، والفرد أصبح مكشوفاً » لشوقي رافع .

(٢) انظر مقال: داود إبراهيم «موقع الاسلام في القرية الكونية في عالم المستقبل»، مجلة الحوار المتمدن ، العدد: ١٠٥٧ ، ٢٤ / ١٢ / ٢٠٠٤ . حيث لم يجد الكاتب غضاضة في المناداة بإعادة كتابة بعض النصوص القرآنية على اعتبار أنها ضرورة تمليها حتمية التاريخ .

(٣) انظر في ذلك: الشيخ أحمد الخليلي ، إعادة صياغة الأمة ، ندوة حوارية ، إعداد: عبدالله العيسري ومحمد الحجري، تحرير: خالد الوهيبي .

يقال بأن من أسباب انقراض الدينصورات من على الأرض بأنها لم تفلح في التكيف مع تغييرات المناخ المفاجئة، ومن ثم فقد هلكت، وهلك معها نظام حياة كامل على وجه البسيطة.

وتستطيع أممنا بسهولة أن تسير على خطى الدينصورات ، وتصبح مجرد مستحثات أثرية إذا تخلفت عن إدراك حقيقة التغييرات التي تفرضها الحضارة الرقمية ، وتستطيع أن تختط لها سبيل البقاء و العطاء إذا تحلّت بقدر عال من المرونة ، والشعور بالمسؤولية الربانية ، و التاريخية إذا أدركت أسرار البقاء، وإذا خطت خطوات شجاعة وجريئة من أجل إصلاح حقيقي ، وتنمية واعية، وانتباه لدور الفرد في مسيرة الحضارة الرقمية .



المراجع

١- آر ، ايه ، بوكانان ، الآلة قوة وسلطة ، ترجمة شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت.

١- برهان غليون ، العرب وتحولات العالم ، حوار رضوان زيادة ، المركز الثقافي العربي.

٢- روبرت إسحاق ، مخاطر العولمة ، الدار العربية للعلوم .

٣- روبرت اورنشتاين و بول ايرليش ، ترجمةأحمد مستجير ، عقل جديد لعالم جديد ، المجمع الثقافي ، أبوظبي.

٤- سعد محيو ، العرب والعولمة و التحضير للقرن الواحد والعشرين ، سلسلة كتاب الخليج ، دار الخليج.

٥- عبد الحي زلوم ، نذر العولمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

٦- فداء ياسر الجندي ، العرب و العربية في عصر الثورة الحاسوبية ، دار الفكر .

٧- فرانك جي لتشر و جون بولي (تحرير) ، العولمة الطوفان أم الانقاذ ؟ ، مركز دراسات الوحدة العربية.

٨- محمود حيدر ، الدولة المستباحة ، دار رياض الريس .

٩- نايف عبيد ، العولمة مشاهد و تساؤلات ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية .

١٠- نبيل علي ، نادية حجازي ، الفجوة الرقمية ، عالم المعرفة ، الكويت .

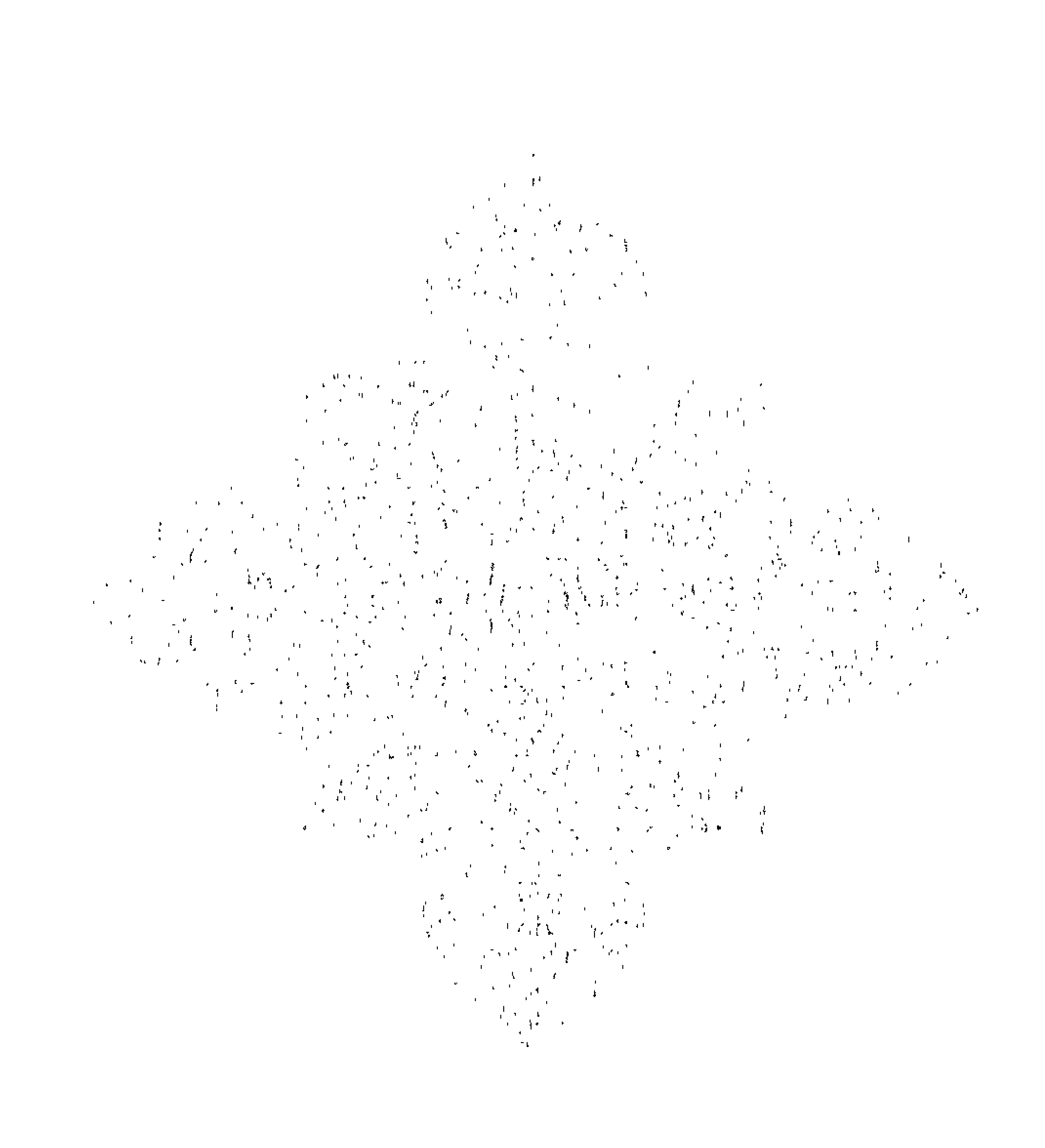
١١- هانس، بيتر مارتين، هارالد شومان ، فخ العولمة، ترجمة: عدنان عباس علي ، عالم المعرفة ، الكويت .

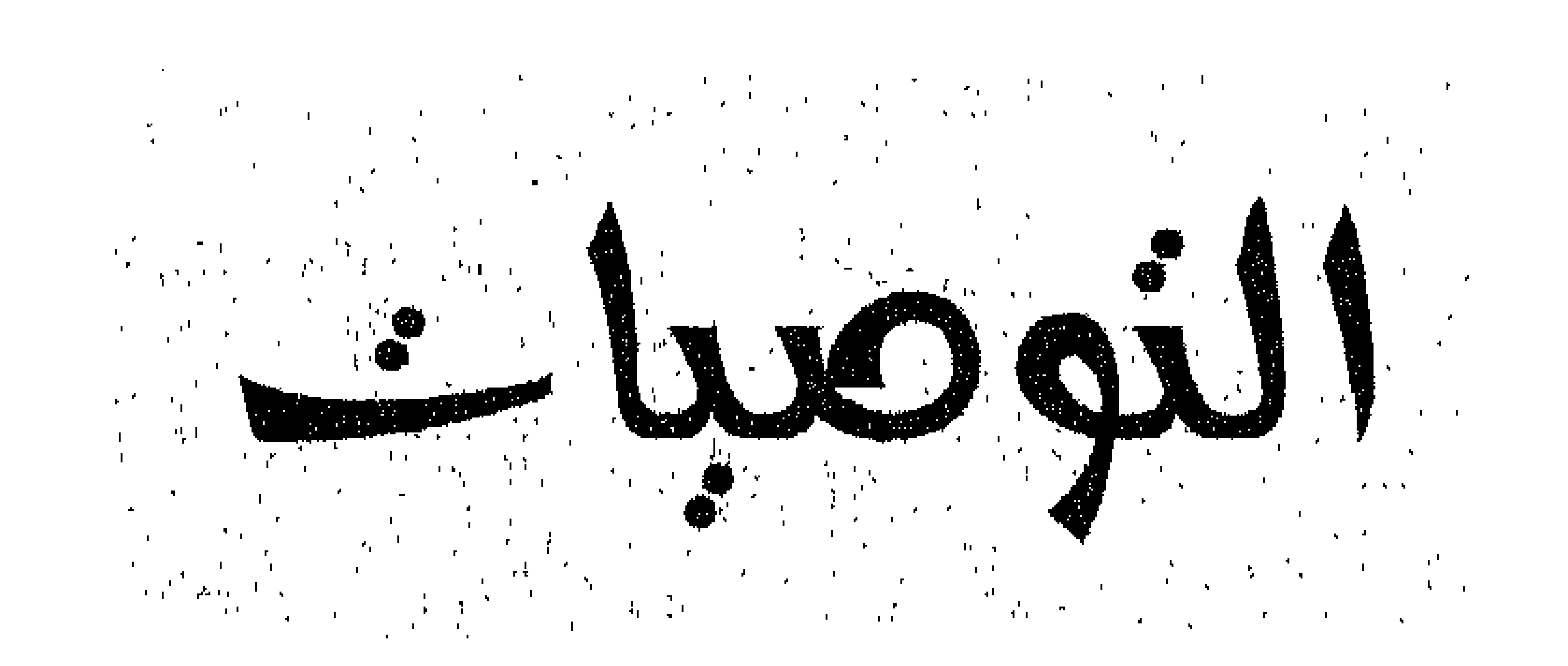
١٢- مجلة العربي، مجموعة أعداد .

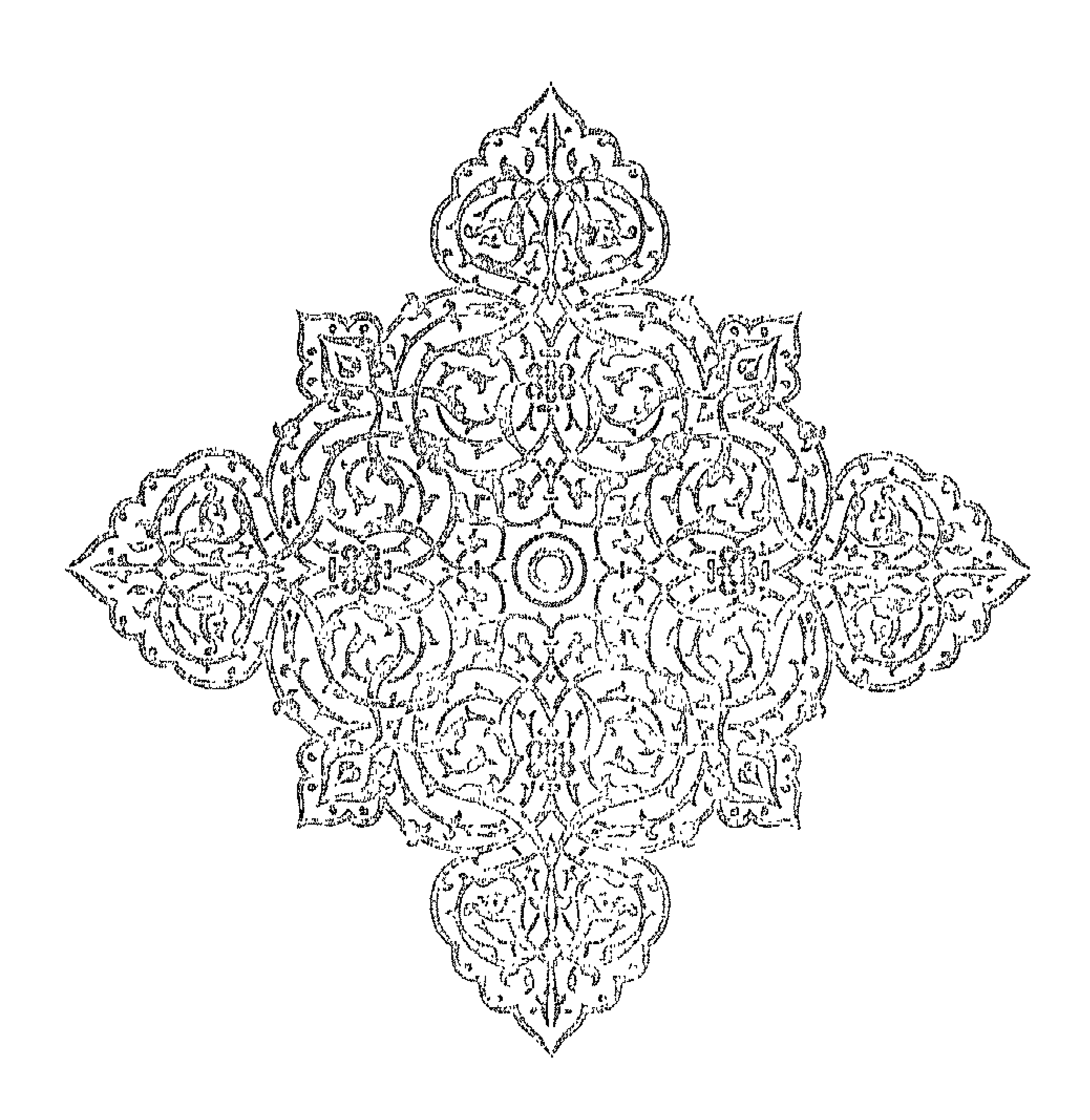
١٣- مجلة وجهات نظر ، مجموعة أعداد .

١٤- مقال عن موقع إسلام أون لاين . http://www.net.islamonline

١٥- مقال عن موقع الحوار المتمدن . http://www.rezgar.com




التوصيات



بسم الله الرحمن الرحيم

بعون الله وتوفيقه وبتنظيم من المركز فقد انعقدت ندوة الإسلام و العولمة بقاعة المحاضرات بجامع السلطان قابوس الأكبر، وذلك خلال يومي الأحد والاثنين ٢٤-٢٥ ربيع الأول ١٤٢٧هـ الموافق ٢٣- ٢٤ أبريل ٢٠٠٦م ، وقد افتتحت الندوة برعاية كريمة من معالي الدكتور يحيى بن محفوظ المنذري الموقر ، رئيس مجلس الدولة وبحضور معالي الشيخ رئيس مجلس الشورى الموقر، وعدد من أصحاب المعالي الوزراء و أصحاب السعادة الوكلاء، وجمع من العلماء والمثقفين والباحثين ، وقد ناقشت الندوة عبر ثلاث جلسات محاور ثمانية المطروحة من خلال أوراق العمل التي أعدها الباحثون المشاركون الذين قدموا جهداً مميزاً ومشكوراً في أوراقهم البحثية وفي مناقشتها ، وقد أتى النقاش على الآثار الاقتصادية واللغوية كما عالج النواحي الإعلامية و التربوية، واعتنى بالأبعاد الفكرية للعولمة ، وأثرها على الهوية الحضارية ، ونبه إلى الفرص المتاحة التي تقدمها العولمة .

وقد تلخصت الأهداف التي توخاها المركز من عقد هذه الندوة على ما يأتي:

١- كشف الآثار المباشرة وغير المباشرة للعولمة على اللغة، والأدب، والتربية، و الهوية الحضارية، والتحديات التي تضعها العولمة على هذه المستويات، ومحاولة إيجاد سبل لتعزيز الاستعداد للدخول في مرحلة طويلة و شاقة من التدافع الحضاري.

٢- كشف الأبعاد الإعلامية والاقتصادية للعولمة ، وما يترتب على ذلك من آثار ثقافية واجتماعية ، والعواقب الإيجابية ، والسلبية لحالة الانفتاح الاقتصادي ، وما تنطوي عليه من فرص، وما تحمله من مخاطر، وما يترتب على تحول المعرفة والثقافة إلى سلعة، و تبعات ذلك .

٣- الوقوف على إمكانات الأمة الحضارية ، والثقافية، وقدرتها على الإسهام الحضاري في ظل حالة يشيع فيها التنافس على كل مستويات الإنتاج المعرفي والمادي ، والوقوف على نقاط الضعف و القوة .

٤- مناقشة الإسهام الذي يقوم به الإسلام في تزويد الأمة بالقدرة على العطاء والمنافسة، وتقديم الأمل للبشرية، ليكون بديلاً حضارياً عن حالة التنميط التي تمثلها حضارات معينة ، لصالح أنماط عيشها ، ومسالكها الحضارية، وكشف الأبعاد العالمية للإسلام، باعتباره رحمة للعالمين.

إن المنظمين والمشاركين في ندوة (الإسلام والعولمة) والمتابعين لها، يدركون الأبعاد المختلفة للعولمة المتنامية في تعدد مظاهرها وحدة آثارها، ويؤكدون على عالمية الإسلام وشموليته، وعلى كوامن منظومته الفكرية والثقافية وطاقاتها ، وإذ يرغبون في إيجاد عولمة بديلة ترتكز على نبع إلهي رحيم، وقيم إنسانية عليا ، وتؤمن بالتعددية الحضارية الثقافية والتشريعية والسياسية والاجتماعية، وترى أن العلاقة مع الآخر يفترض أن تكون قائمة على إعلاء شأن الأنساق المتفقة القائمة قيم العدل و المساواة ، و الحرية و حقوق الإنسان، وتقوم على وحدة الأصل الإنساني، ومنطلق التكريم الإلهي للإنسان ، وإحياء مبدأ التعارف، وتعميق الأخوة الإنسانية، يوصون بالتالي :

(١) اعتماد خطاب إسلامي يراعي التوازن بين الوحي والعقل ، وبين المادة والروح، وبين الحقوق والواجبات ، وبين الفردية والجماعية، وبين الإلهام والالتزام، وبين النص والاجتهاد، وبين الواقع والمثالي ، وبين الثابت والمتحول، وبين الارتباط بالأصل والاتصال بالعصر.

(٢) تضمين الأبعاد الاجتماعية والثقافية، بشكل واضح ومقاس وملموس عند تخطيط السياسات الاقتصادية والتنموية، وعند تطبيقها .

(٣) دعوة المسلمين أفرادا وجماعات إلى ضبط الشهوات الاستهلاكية ، واعتماد المبدأ الاقتصادي الإسلامي المرتكز على القيم، وعلى الحاجات لا الرغبات.

(٤) إيجاد الأطر القانونية الضرورية ، والشفافية اللازمة لاستقطاب الأموال الإسلامية المهاجرة ، ومحاولة تشجيعها للاستثمار في الدول الإسلامية، وذلك لأهمية البعد الاقتصادي في استدامة أي مشروع حضاري.

(٥) تطوير مناهجنا التربوية والتعليمية ، سواء على المستوى العام أم التقني أم العالي ، لتقوم على ترسيخ الهوية الحضارية، وحفز الأجيال الناشئة على مزيد من الاتصال

بتفاصيل تلك الهوية، من أجل تنمية انتماء عميق و متوزان في أبعاده الوطنية والعربية والإسلامية ، ولترتكز في تقييمها التحصيلي على المناهج البحثية والنقدية كآلية لاكتساب المعرفة لدى النشء ، وتطوير العلوم في بلداننا ، ورفع فاعلية الإنتاج فيها .

(٦) إنشاء مراكز للترجمة وتعريب المعرفة ، والحفاظ على اللغة العربية ودعمها، وتشجيع البحوث بها؛ لارتباط ماهيتنا وتكويننا المعرفي بها ، ولردم الفجوة بين اللغة العربية والعصر المتسارع ، وإصدار سياسة لغوية موحدة تنتظم جميع المناشط التعليمية والإعلامية ، وتقوية وجود اللغة العربية في كل مؤسسات التعليم، وتطوير طرائق تدريسها.

(٧) صياغة برامج وطنية للتشجيع على القراءة والتأليف ، بالإضافة إلى برامج وطنية على المستوى الفردي للدول، وعلى المستوى الإقليمي ، وعلى الصعيد الثقافي الإسلامي لصنع نماذج متنورة للشباب.

(٨) البحث في المفاهيم والمصطلحات المتداولة عالميا، سعيا وراء تأصيلها فكريا وإسلاميا، والبحث عن معانيها الاصطلاحية في المخزون الفكري الإسلامي ، خاصة تلك التي لا نجد لها ذكرا بلفظها المتعارف عليه ، والعكس صحيح البحث في مفاهيم وخاصيات الفكر الإسلامي ، وتقديمها في قالب حواري، وأسلوب خطاب عصري؛ ليسد ثغرات في البناء المعرفي في العالم حول الإسلام.

(٩) تكثيف الاهتمام بالدراسات المستقبلية ، وإعطائها حيزاً مناسباً من جهود البحث العلمي في الجامعات و مؤسسات البحث العلمي المختصة.

(١٠) اعتماد منظومة إعلامية تخاطب المسلمين بأسلوب يحثّهم على تمثّل منظومتهم المعرفية والأخلاقية ، ويخاطب غير المسلمين بأسلوب عقلاني قائم على القيم الإنسانية المشتركة ، ويستهدف الخطابان الوصول إلى الحقيقة في كنه كل شيء ، والحوار الذي يمكن الإنسان من إعمال خلافته في الأرض ، والعناية بتوصيف دقيق لمحددات الخطاب الإعلامي، بحيث يكون معمقاً للإيمان بثوابت الهوية و الثقافة الإسلامية ، مع حملة لمضامين التواصل الحضارية .


تم بحمد الله

